دلالـــــة النص القـــــــرآني

في بيـــان

مـعاني الألفاظ التي يرى فيها الائتلاف أوالاختــلاف

دلالة النص القرآني

في بيان

معاني الألفاظ التي يرى فيها الائتلاف أوالاختلاف

إسماعيل عليان مصطفى عليان

7

إهـــــــداء

إلى أول من هتفتُ باسمهما
وهمـا يرقـدان الآن في جوارالرحيم الودود
أبـــي وأمـــي
وإلى من شاطروني النصب في سبيل طلب العلم
زوجتي وأبنائي؛ معاذ، بلال، عمار، خولة، أسماء، أروى
وإلى كـــل من علمـــني حرفـــاً
وإلـى كـل أخ فـــي اللـــه
إليكــــم أهــدي هــــذا العــــمل المتواضع
راجياً القَبول من الله الكريم

شكر وتقدير

أجد لزاماً على نفسي أن أزجي كامل التوقير والاحترام وموفور الثناء لكل من أمدني بالنصح والملاحظات، وأخص بالذكر أخي **الأستاذ الدكتور مصطفى عليان** الذي أفدت منه كثيراً،

وكل التقدير والامتنان لكل من ساهم في إخراج البحث من تخريج للشواهد وطباعة وتنسيق.

دلالة النص القرآني

في بيان الألفاظ الي يُرى فيها الائتلاف أوالاختلاف

ملخص:

بسط هذا البحث طائفة من القضايا اللغوية التي تشكل مثار جدل بين العلماء، منذ نزول القرآن، ولا يزال الاختلاف قائماً.

وأصل الاختلاف بين العلماء ـ القدامى والمحدثين ـ هوالحقيقة والمجاز، فمن أنكرالمجاز فقد أنكر كل ما يتعلق به من القضايا اللغوية؛ كالاشتراك اللفظي والترادف والتضمين وغيرها، ومن أقر بالمجاز فقد أقر بكل ما يتعلق به من قضايا.

ومما أدهش الباحث أن أبا الهلال العسكري الذي وضع خلاصة جهده في كتابه الموسوم بـ«الفروق اللغوية» لإيجاد فروق دلالية بين كثيرمن الألفاظ، لإنكارالترادف، إلا أنه في كتاب آخر أسماه «التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» وهو معجم يذكر فيه بعض المترادفات.

ويحتل الاختلاف في تسمية الاصطلاحات مساحة لا بأس بها، فالتكرار أسماه الجاحظ «الترداد» وأسماه عبدالله النقراط ـ من المحدثين ـ «تصريف القول»، وكذلك حروف الزيادة عند فريق أسموها حروف الصلة، ولا مشاحة في الاصطلاح.

واستقراء النصوص القرآنية من خلال السياق هو الضابط لدلالة النص القرآني؛ لأن في سلخ الألفاظ عن سياقها تشويه للدلالة.

المقدمة

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾[١]، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ـ سيدنا محمد ـ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد؛

فهذا بحث في «دلالة النص القرآني في بيان معاني الألفاظ التي يُرى فيها الائتلاف أوالاختلاف». مرت بخاطري فكرته منذ زمن، فأحسست إحساساً عجيباً بما تضمنه الكتاب العزيز من معان لاتزال بكراً، وهي بحاجة إلى من يثيرمعادن معانيها.

وأخذتِ الآمال في نفسي تنمو وتنمو حتى غدا الحلم حقيقة، فكان لي شرف الالتحاق بالدراسات القرآنية ـ قسم التفسير ـ، ورجوت الله ـ عزوجل ـ أن يجعل لي حظاً في الدراسات القرآنية، لعلي أجد في صحيفتي يوم القيامة ما يشهد لي عند ربي، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢].

وتناوُلُ مثلِ هذا الموضوعِ ليس بالأمر الهيـّن؛ لاشتماله كثيراً من القضايا اللغوية، التي وقع فيها اختلاف كبير، وكل قضية من تلك القضايا تصلح أن تكون بحثاً مستقلاً، ولكن الهدف من هذا البحث هوجمع شتات الكثير من القضايا؛ لأن معظم البحوث استقلت بقضية واحدة، أو مرت على كثيرمن القضايا مرورالنسمة على الأزهار.

وحرصت أن يكون لي حضورٌ ودَوْرٌ فعالٌ في هذا البحث، فلم أكتف بسرد الآراء وبيانها والكشف عن سبب الاختلاف فيها دون مناقشة أو تعليق.

وموضوع هذا البحث ليس بدعاً من القول، وإنما تقدمته دراسات سابقة، ولا أبخس

---

(١) الكهف ١.

(٢) الشعراء ٨٨، ٨٩.

أهلها جهودهم، أفدت منها كثيراً، وشحذتْ همتي نحو البحث، وحاولت ـ ما استطعت إليه سبيلاً ـ أن أنأى بنفسي عن التقليد، وأوليت السياق مكانة خاصة، وحاولت إخضاعَ النصوصِ إلى المزيد من الاستقراء والتحليل الدقيق والربط، وأحسب أن هناك جدة في المنهجية.

ولاتخفى على أحد جهود الباقلاني وغيره من القدماء، وإبراهيم أنيس وغيره من المحْدثين.

واعتمدت في هذا البحث على جملة من التفاسير القديمة والحديثة، كجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبريّ، والكشاف للزمخشريّ، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعيّ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، والوسيط لسيد طنطاويّ، وتفسير الشعراويّ، وكذلك كتب علوم القرآن كالبرهان في علوم القرآن للزركشيّ، ولم يكن لي غنى عن المعاجم اللغوية كلسان العرب وتاج العروس، و كتب اللغة وفقهها ـ قديمها وحديثها ـ كالصاحبيّ لابن فارس، والخصائص لابن جنيّ، وأسرار البلاغة للزمخشريّ، والفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، وفقه اللغة لصبحي الصالح ومحمد المبارك، ودلالات الألفاظ لإبراهيم أنيس، وكتب القراءات كحرز الأماني ووجه التهاني للشاطبيّ، والطيبة والدرة لابن الجزريّ.

وعزّزْتُ الدراسةَ بأحاديثَ نبويةٍ شريفةٍ مع تخريجها، وكذلك شواهد من الشعر العربي للاستئناس فقط، حتى لايُظَنَّ أن الشعر حكم على القرآن.

واقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول، جاءت على النحو التالي:

التمهيد: وبينت فيه معنى النص ودلالته عند الأصوليين واللغويين، ومعنى الدلالة وأقسامها، والغموض في اللغة.

الفصل الأول: نظرة القدماء والمحْدثين لدلالة النص، ويشتمل على أربعة مباحث، هي:

أهمية الدلالة عند المفسرين والبلاغيين والنحويين والمحدثين.

الفصل الثاني: ضوابط معيارية في تخريج اختلاف الدلالة، وفيه أربعة مباحث، هي:

ضابط الدلالة الموضوعية واللغوية، وضابط التركيب النحوي، وضابط القراءات القرآنية.

الفصل الثالث: مجالات الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، وفيه أربعة مباحث، هي:

الاشتراك، والترادف، والتماثل اللفظي، والتضمين.

ثم أعقبت الفصول بخاتمة بينت ما توصلتُ فيها إلى نتائج أحسبها نافعة.

وختاماً؛ فالباحث لا يدَّعي الكمال في هذا العمل، وكل ما يرجوه هو القَبول من الله ـ عزّ وجلّ ـ والنفع للمسلمين.

❋ ❋ ❋

المدخل

النصّ ودلالته

أولاً: النص:

معنى النصّ لغة:

وردت كلمة نصّ في لسان العرب تحت مادة «نـصَصَ»، النَّصُّ: رفْعُك الشَّيْءَ. نَصَّ الْحَدِيثَ يَنُصُّه نَصًّا: رفَعَه. وَكُلُّ مَا أُظْهِرَ، فَقَدْ نُصَّ. وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: مَا رأَيت رَجُلًا أَنَصَّ لِلْحَدِيثِ مِنَ الزُّهْري أَي أَرْفَعَ لَهُ وأَسْنَدَ. يُقَالُ: نَصَّ الْحَدِيثَ إِلى فُلَانٍ أَي رفَعَه، وَكَذَلِكَ نصَصْتُه إِليه. ونَصَّت الظبيةُ جِيدَها: رفَعَتْه. ووُضِعَ عَلَى المِنَصَّةِ أَي عَلَى غَايَةِ الفَضِيحة وَالشُّهْرَةِ وَالظُّهُورِ. والمَنَصَّةُ: مَا تُظْهَرُ عَلَيْهِ العروسُ لتُرَى، وَقَدْ نَصَّها وانتَصَّت هِيَ، والماشِطةُ تَنُصُّ العروسَ فتُقْعِدُها عَلَى المِنَصَّة، وَهِيَ تَنْتَصُّ عَلَيْهَا لتُرَى مِنْ بَيْنِ النساء[1].

معنى النصّ اصطلاحاً:

ما ازداد وضوحاً على الظاهر لمعنى في المتكلم لا في نفس الصيغة، دون توقف على أمر خارجيّ، وكان هذا المعنى هوالمقصود الأصليّ من سَوق الكلام[2].

أقسام اللفظ باعتبار الوضوح:

قسّم علماءُ الحنفية اللفظَ باعتبارالوضوح في دلالته على معناه إلى أربعة أقسام؛ هي:

---

(١) ابن مظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ج٧، ص٩٧.

(٢) زيدان، عبد الكريم: اللوجيز في أصول الفقه، مكتبة البشائر، عمان، ط٤، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، ص٣٤٠.

الظاهر والنصّ والمفسر والمحكم، وأعلاها رتبة في الوضوح المحكم، يليه في ذلك المفسر، ثم النص، ثم الظاهر.

وأما اعتبار استعمال اللفظ للمعنى، فإنه يقسم إلى أربعة أقسام؛ هي: الحقيقة، المجاز، الصريح، الكناية.

أ ـ الحقيقة: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له، وهذه الحقيقة تنقسم إلى:

حقيقة لغوية: مثل الجبل والليل والنهار.

حقيقة شرعية: مثل الصلاة والزكاة والحج، وحقيقة عرفية: مثل السيارة والمحلول.

ب ـ المجاز: «هو اللفظ المستعمل في غيرما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقيّ، كاستعمال لفظ الأسد للرجل الشجاع، والعلاقة هي المعنى الجامع بين المعنى الأصليّ للفظ، والمعنى المستعمل فيه اللفظ، وهي الشجاعة، مثل إطلاق لفظ «البحر» على الرجل الكريم، و«الأسد» على الرجل الشجاع.

ج ـ الصريح: «هواللفظ الذي ظهرالمراد منه ظهوراً تاماً لكثرة استعماله فيه، حقيقة كان أو مجازًا»[1]، ومن الأمثلة على الصريح ألفاظ: طالق أو زوّجتك، أما ما كان مجازاً كقوله تعالى:

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[2] فيعتبر صريحاً؛ لأنه المراد: اسأل أهل القرية، فهو صريح وإن كان مجازاً.

د ـ الكناية: «لفظ استتر المعنى المراد به بحسب الاستعمال، ولا يفهم منه إلا بقرينة، سواء كان هذا اللفظ حقيقة أو مجازاً غير متعارف»[3].

ومن ألفاظ الكناية: الحقي بأهلك، فهذا اللفظ لايوقع الطلاق إلا بنية.

---

(١) الوجيز في أصول الفقه ـ ص٣٣٦.

(٢) يوسف٨٢.

(٣) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، ج١، ص١٠٣.

ثانياً: معنى الدلالة:

الدلالة مصدر دل يدل دلالة، فجاءت مثلثة الدال؛ بضم الدال وفتحها وكسرها، وتصريف ذلك من باب ضَرب يضرِب: بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع، ونصَر ينصُر بفتح العين في الماضي وضم العين في المضارع، وأرجَعَه بعضُ اللغويين إلى باب علِم يعلَم بكسرها في الماضي وفتحها في المضارع، وفي لفظ دلالة لغات ثلاث؛ لأنه يقال دَلالة ودِلالة ودُلالة، بفتح الدال وكسرها وضمها، إلا أن الفتح أعلى[(١)].

ويقال فيه دُلولة بالضم وقلب الألف واواً، وللفعل دلّ معان منها الهداية والإرشاد، ومنه قوله تعالى: ﴿فلما قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ فَلَمَّا مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[(٢)]، وقال صلى الله عليه وسلم «الدال على الخير كفاعله»[(٣)].

وعلم الدلالة هوالعلم الذي يدرس المعنى، أو هوذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى، أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز، حتى يكون قادراً على حمل المعنى.

أقسام الدلالة:

أولاً: الدلالة النحوية:

هي الدلالة التي تتناول ترتيب الألفاظ في الجملة، حتى لا يضطربَ المعنى،

---

(١) الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني: تاج العروس، مادة دلل، تحقيق: علي صيري، دار الفكر، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ج١٤، ص٢٤١.

(٢) سبأ ١٤، القصص ١٢.

(٣) الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذي، رقم الحديث٢٦٧١، مكتبة المعارف، السعودية ط١، دون سنة النشر، ج٥، ص٤١.

كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[١]، فنظام الآية قائم على التقديم والتأخير، وإلا اختل المعنى واضطرب.

ثانياً: الدلالة الصرفية:

هي الدلالة التي تتناول بنية الكلمة وتصريفها، من زيادة حروف وصيغ مبالغة، فكلمة «شكور» لها دلالة تختلف عن «شاكر»، مع أن اللفظين يشتركان أصلاً في الجذر الثلاثي«شكر» ولكن صيغة المبالغة «فعول» تدل على كثرة الشكر بخلاف شاكر «فاعل» الذي لا يحمل المبالغة، وإنما مقصور على الشكر الذي يمتد إلى المستقبل.

ثالثاً: الدلالة العقلية:

هي دلالة اللفظ على ما يكون جزءاً من مفهومه، كدلالة البيت على السقف، ودلالة اللفظ على ما يستلزم مفهومه؛ كدلالة لفظ السقف على الحائط.

رابعاً: الدلالة الوضعية:

وتسمى الدلالة اللغوية أوالدلالة المطابقة، وهي دلالة اللفظ على جميع ما وضع له؛ مثل دلالة اللفظ المشترك على جميع معانيه، إذا لم تصحبه قرينة تخصصه بمعنى معين، كدلالة لفظ النكاح في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

فلفظ«النكاح» دال على العقد والوطء معاً، وهذا ما يسمى بالدلالة.

---

(١) فاطر ٢٨.

(٢) البقرة ٢٣٠.

المطابقة خامساً: الدلالة التضمينية:

وهي دلالة اللفظ على بعض ما وضع له؛ مثل دلالة الواوعلى الحال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾(١)، وكما هو معلوم فإن للواومعاني كثيرة، منها واو الحال.

سادساً: الدلالة الالتزامية:

وهي دلالة اللفظ على معنى خارج ملازم للمعنى الذي وضع له؛ مثل دلالة «فضا»(٢)، فأبو حنيفة استنبط منها حكمًا فقهياً؛ وهو أن خلوة الرجل الصحيحة بامرأته توجب عليه الصداق، ويحرم عليه أخذ شيء من الصداق، معتمداً على المعنى الذي وضع له لفظ «فضا» الدال على السعة والخلوة.

ومن الدلالة ما يسمى بالارتباط الشرطي «تجربة بافلوف» ومفادها أنه كلما سمع الكلب الجرس، يقدم له الطعام، فأصبح الكلب يتهيأ لتناول الطعام، كلما سمع الجرس.

والدلالة تتأثر بعدة مؤثرات منها الصوتية وما يرتبط بها من نبرات، فقد تستخدم كلمة «مرحباً» للترحاب، وإذا تغيرت النبرة قد توحي بالاستهزاء، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٣)، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.(٤)

---

(١) الأنعام ١٢١.

(٢) فضا: المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا: يفضو، فضواً، فهو فاض، «لسان العرب: ج١١، ص١٩٤.

(٣) الدخان ٤٩.

(٤) يوسف ٧٤_٧٥.

فكلمة «جزاؤه» تكررت مرتين، ولكن اختلفت نبرة الصوت، فانتقلت الدلالة من استفهام إلى تقرير.

سابعاً: الدلالة المعجمية:

وهي الدلالة التي تبحث معاني الألفاظ في الألفاظ المجردة أو الجمل أو العبارات.

واعتبر اللغويون والبلاغيون اللغة ظاهرة اجتماعية، تتأثر بعوامل داخلية كالفرح والغضب، وتتأثر بعوامل خارجية كالمجتمع والبيئة.

وعلى هذا فإن الدلالة تتطور، فقد يكون للكلمة في وقت ما دلالة، ثم تتغير دلالتها فيما بعد.

ومن التطور الدلالي لفظ «أدنى» في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[١].

«أدنى» تعني الأقرب والأسفل، وقد أجمع المؤرخون على أن المعركة التي انتصر فيها الروم على الفرس تحقيقاً لوعد الله ـ عزّ وجلّ ـ في بضع سنين، كانت في الأغوار، «أغوار فلسطين» وتوافقت كتب التاريخ مع قوله تعالى في أن أخفض نقطة في الأرض هي غور فلسطين ٣٩٢م تحت سطح البحر، وهوالبحر الميت[٢].

---

(١) الروم ٢ ـ٣.

(٢) النابلسي، محمد راتب: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دار المكتبي، سوريا، ط٢، ص٣٧.

ثالثاً: الغموض في اللغة:

من العلماء من يعتبر الغموض عنصراً أساسياً، وعاملاً إيجابياً من عوامل الإبهام في النص؛ لأنه يكسبه إيحاءً أو إشارة في استقطاب المعنى وتأويله، ومنهم من يعد وجوده ظاهرة سلبية؛ لأنه يسلب المعنى عامل الوضوح والجلاء، ولهذا الاختلاف لابد من تجلية المسألة حتى تتضح الأمور.

فظاهرة الغموض شأنها شأن كثيرمن القضايا الأسلوبية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببنية الكلمة، وتعمل عوامل متعددة على إكساب النص صفة الغموض، منها ما يتعلق بالفكر والمعنى، ومنها ما يتعلق بالنظم والصياغة والأسلوب، ومنها ما يتعلق باللفظ.

ومجال هذه الدراسة هو الغرابة والإبهام من جهة اللفظ، الذي درج العلماء على معالجته تحت باب الغريب أو غريب القران، الذي عدوا منه ظواهرعديدة؛ كالاشتراك اللفظي، والترادف، وتطور الدلالة، والتضاد.

والمطالع لكتاب الملاحن لابن دريد «ت٣٢١هـ» يدرك كيف أبان عن تعدد المعاني للفظة الواحدة، ووجهها توجيهاً بلاغياً مثمراً في الجناس والتورية، بما يفتح مجالاً للقول بأن دراسة الغريب في كتاب الله ليست قصراً على الدلالة الأولى، بل تستوعب دلالات متعددة من خلال البلاغة في التركيب والصياغة والنسيج «النظم والسياق».

وللباحثين وسائل عدة في الكشف عن الدلالات اللفظية الغريبة في النصوص، منها القرينة والسياق والعلاقات الركنية «الأفقية» والعلاقات الرأسية في النص، فمثلاً لفظة «صفراء» من الأضداد ـ الأسود والأصفر ـ قال الراغب الأصفهاني:

«الصفرة لون من الألوان التي بين السواد والبياض، وهي إلى السواد أقرب، ولذلك يعبر بها عن الأسود» قال الحسن في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ

فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[١] أي سوداء، وقال بعضهم: لا يقال في السواد فاقع وإنما يقال إنها حالكة»[٢]، فلو لم ترد القرينة «فاقع» لاحتملت المعنيين، لكن القرنية حددت بدقة المعنى المقصود.

وفي شعر عمران بن حطان الخارجي[٣]:

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة للشوى

ويعزز ذلك كلمة «صُفْر» التي جاءت واصفة لكلمة «جِمالة» قال تعالى:﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صفْرٌ﴾، وقيل صفر: سود تضرب إلى الصفرة.

وأما أسباب الغموض فهي[٤]:

١: دلالة اللفظ: كأن يكون من الأضداد أو الاشتراك اللفظي أوالمجاز أوغيرذلك.

٢: الصيغة التي تصلح للدلالة على اسم الفاعل واسم المفعول مثل قتيل وجريح.

---

(١) البقرة ٦٩.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان داوودي، دارالقلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص١٣٥.

وتعقيباً على كلام الراغب بأن الصفرة لون من الألوان بين السواد والبياض، أقول: هذا استنباط غير دقيق، لأن الألوان الأساسية ثلاثة، هي: الأحمر والأصفر والأزرق، والألوان الثانوية تنتج عن مزج لونين أساسيين مثل: الأحمر مع الأصفر فاللون الثانوي الناتج هو البرتقالي، ومزج الأحمر مع الأزرق فإن اللون الناتج هو البنفسجي، وعند مزج الأصفر مع الأزرق فان اللون الثانوي الناتج هو الأخضر، وأما اللون الأبيض فينتج عن مزج الألوان كلها «ألوان الطيف»، ودليل ذلك قرص نيوتن الموشح بألوان الطيف، فعند دورانه يظهر اللون الأبيض، وأما مزج الأسود مع الأبيض بنسب معينة، فإنه ينتج اللون الرمادي فالأصفر ليس بين البياض والسواد.

(٣) شاعر أموي ت «٨٤ هـ».

(٤) خليل، حلمي: الغموض في العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١ ص، ٨٩، ٩٠.

٣: التركيب أو نظم الكلام:

كغموض عودة الضمير، مثل قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[1]، ففاعل يخاف ضمير مستتر تقديره «هو»، يمكن أن يعود على الله ـ عز وجل ـ، ويمكن أن يعود على الأشقى ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ فلم يخف عاقبة فعلته.

٤: الوقوف والابتداء: سيبسط فَيه القولُ في الَفصل الثاني، مبحث ضابط القراءات القرآنية، بإذنه تعالى.

❊ ❊ ❊

(١) الشمس: ١٤، ١٥.

الفصل الأول
نظرة القدماء والمحْدثين لدلالة النص

المبحث الأول

أهمية الدلالة عند المفسرين:

الاختلاف ظاهرة إنسانية لحكمة أرادها الله ـ عزوجل ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(١).

ولأن القرآن ربانيّ المصدر، يَصْلح لكل زمان ومكان، لم يجعل الله تفسيرالقرآن توقيفياً، ولم يفسر النبي ـ عليه السلام ـ من القرآن إلا ما أشكل فهمه على الصحابة.

«ولم يظهر الخلاف في التفسيرفي عهد النبوة؛ لأن النبي ـ عليه السلام ـ كان يقر المفسر على تفسيره أو يصوبه، ثم جاء عصر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذي يوصف بقلة المرويات عنهم في التفسير، إذا قورنت تلك المرويات بالحديث النبويّ الشريف، ولعل سبب ذلك راجع إلى سببين؛ الأول: أنهم كانوا يفسرون القرآن تفسيراً عملياً، والثاني: سلامة لغة القوم وصفاء عقيدتهم»(٢).

ويتبوأ تفسير الصحابة مكانة خاصة في التفسير، وذلك لأنهم يعلمون أسباب النزول، ثم جاء عصر التابعين الذي ظهر فيه التفسير بالرأي، ويظهر ذلك جلياً في تفسيرابن مجاهد، وتأثر تفسيرالتابعين بأخبار أهل الكتاب.

ثم ظهرت عوامل كان لها أثرها في ضعف الروايات في التفسير، كالوضع والإسرائيليات بسبب حذف الأسانيد، وأول من سن هذه السنة السيئة، هو مقاتل بن سليمان.

---

(١) هود ١١٨، ١١٩.

(٢) عباس، فضل: التفسير أساسياته واتجاهاته، مكتبة دنديس ـ عمان، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ص١٤٩.

وتناول العلماء ـ قديماً وحديثاً ـ أسباب اختلاف المفسرين، فمن القدماء ابن جزيّ الذي

حصر أسباب الاختلاف في اثني عشر سبباً؛ هي:

اختلاف القراءات، واختلاف وجوه الإعراب وإن اتفقت القراءات، واختلاف اللغويين في معنى الكلمة، واشتراك اللفظ بين معنيين فأكثر، واحتمال العموم والخصوص، واحتمال الإطلاق والتقييد، واحتمال الحقيقه والمجاز، واحتمال الإضمار أو الاستقلال، واحتمال الكلمة زائدة، واحتمال حمل الكلام على الترتيب وعلى التقديم والتأخير، واحتمال أن يكون الحكم منسوخاً أو محكماً، واختلاف الرواية في التفسيرعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن السلف رضي الله عنهم[١].

وعرض العلماء المعاصرون أسباب الاختلاف، فتناول فهد عبد الرحمن الرومي في كتابه «بحوث في أصول التفسير ومناهجه» أسباب الاختلاف العارضة بين المفسرين، وكذا فعل الباحث محمد عبد الرحمن الشايع في كتابه «أسباب اختلاف المفسرين».

وتكاد تتفق تلك المصنفات على العناوين العامة، وجاء اختلافهم في إحالة الأفكار إلى جزئيات.

ويمكن حصر أسباب الاختلاف في التفسير في أربعة مطالب؛ هي:

المطلب الأول: الدراسات القرآنية:

أولاً: القراءات القرآنية:

وسيبسط القول فيه ـ بإذن الله تعالى ـ في الفصل الثاني ـ مبحث ضابط القراءات القرآنية

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ج١، ص٩.

ثانياً: الرسم القرآني:

وردت ألفاظ في القرآن الكريم على صورتين في سور مختلفة، مثل الكتاب، كتبت بغير ألف «كتب» وبألف «كتاب» وإبراهيم كتبت بياء ودون ياء «إبراهيم، إبراهم»، فبعض تلك الصور يمكن توجيهها، وبعضها لا يزال ينتظر من يكشف أسرارها.

ويكون اختلاف الرسم أحياناً لاستيعاب بعض القراءات المتواترة الأخرى، فمثلاً، كلمة «إبراهم» تقرأ «إبراهام»[(١)]، وهذه ليست مطردة[(٢)]، وكذلك وردت صورتان لتركيب واحد في القرآن «أم من» و«أمّـنْ»، كقوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾[(٤)].

فالأولى رسمت مدغمة والثانيه بفك الإدغام، فالمفصولة تفيد معنى بل دون الموصولة[(٥)].

ثالثاً: المكيّ والمدنيّ:

توسعت كتب علوم القرآن في التفريق بين المكيّ والمدنيّ، وما يهم الباحث في هذه الجزئية الدلالة المستفادة من معرفة الآية أوالسورة أمكية هي أم مدنية؟ فهي مناط البحث،

---

(١) في سورة البقرة: قرأها هشام وابن ذكوان ـ بخلف عنه ـ عن ابن كثير.

(٢) ففي سورة الممتحنة، كتبت بالياء ـ في موضعين ـ في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، ففي الأول قرأها هشام «إبراهام» وفي الثاني قرأها هشام كغيره «إبراهيم».

(٣) الملك ٢٢.

(٤) النمل ٦٠.

(٥) أبو شهبة، محمد محمد: المدخل لدراسة القرآن، القاهرة الحديثة للطباعة، ١٩٧٢م، ص٣٥٨.

كقوله تعالى: ﴿والفجر * وليال عشر﴾[١] فسورة الفجر مكية، وقد اختلف المفسرون حول «ليال عشر» فبعضهم قال: هي العشر من ذي الحجه[٢]، وبعضهم قال: هي العشر الأواخر من رمضان، والعشر من ذي الحجة[٣]، ومنهم من قال بأنها غير متعينة.

وقال القاسمي «الليالي التي يَحْلَولِك فيها الليل ويشتد ظلامه، ويغشى الفلق سواده، وتلك خمس من أوائله وخمس من أواخره، وإن لفظة عشر بمثابة قوله في السورة الآتية» يغشى، إذا سجى «مما يتبين وجه العبرة ويجليها أتم الجلاء، ولا بُعد في هذا المعنى، بل فيه توافق لبقية الآيات»[٤].

وقد ناقش فضل عباس تلك الأقوال فقال «العشر من ذي الحجة والعشر الأواخر من رمضان لم يعرف فضلها إلا في المدينة، والسورة مكية، وقول القاسميّ يخالف السياق؛ لأن السورة فيها بشرى للنبيّ وللمسلمين، بأن الظلام سيعقبه فجر، ومال فضل عباس الى أنها العشر الوسطى؛ لأن هذا الليل القاسي سيعقبه فجر يسطع نوره ويتنفس صبحه بأنفاس العافية[٥].

رد فضل عباس القول القائل بأن الليالي العشر هي العشر من ذي الحجة والعشر الأواخر من رمضان؛ لأنه لم يعرف فضلها إلا في المدينة، والسورة مكية، وهذا رد قد يبدو

---

(١) الفجر ٢ـ١.

(٢) ابن كثير، إسماعيل بن عمرو: تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ج٤، ص٧٤٨.

(٣) أبو السعود، محمد بن محمد: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم « تفسير أبي السعود»، ج٨، ص١٥٣، الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دارالخير، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، ج٥، ص٤٣٢.

(٤) القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، ج١٧، ص١٤٠.

(٥) عباس، فضل: التفسير أساسياته واتجاهاته ـ مكتبة دنديس، عمان، ط١، ٢٠٠٥م، ص٣٠٤.

مقبولاً لأول وهلة، ولكنه يفتقرإلى المزيد من التقصي في القرآن المكيّ للأسباب التالية:

وردت نصوص تشير إلى أن «الليالي العشر» هي العشرمن ذي الحجة، منها: «عن زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ حَدَّثَنَا عَيَّاشُ بْنُ عُقْبَةَ حَدَّثَنِي خَيْرُ بْنُ نُعَيْمٍ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الْعَشْرَ عَشْرُ الْأَضْحَى وَالْوَتْرَ يَوْمُ عَرَفَةَ وَالشَّفْعَ يَوْمُ النَّحْرِ»(١).

وسورتا القدر والشرح مكيتان، وليلة القدر ونحرالأضاحي وصلاة العيد لم تعرف إلا في المدينة، فكيف بيّـن ـ سبحانه وتعالى ـ فضل ليلة القدر، ولم تكن معروفة حينئذ.

وبربط سورة الفجرمع سورة العلق، وهما مكيتان، يتبين للقارئ غطرسة أئمة الكفر في الصد عن سبيل الله، وكأنّ الباحث يرى أن تقدم القسم بالفجرعلى القسم بالليل يصور انسحاب ظلام الليل، ظلام القهرأمام جحافل نورالفجر، نور الإسلام الساطع، الذي سيكون فيه تمكين للمسلمين، بما فيه الحج وليالي رمضان، وهذا ليس غريباً، فالرسول ـ عليه السلام ـ بشر سراقة بسواريْ كسرى وهو في طريق الهجرة، وبشر المسلمين بفتح بلاد فارس والروم واليمن وهو يحفر الخندق.

«أما ذكرُهذه المسائل قبل أن تعرف فهو من قبيل التشويق، حتى تتهيأ النفوس لنيل فضلها»(٢).

لذلك، فدلالة القرآن المكيّ محتاج إلى المزيد من الغوص في أعماقه لاستخراج مكنونه.

---

(١) ابن حنبل، أحمد: مسند أحمد، باب مسند جابر، بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م، دون طبعة، رقم الحديث ١٤٥٦٥، ص١٠١٥، قال ابن كثير في تفسيره: وهذا إسناد رجاله لابأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤م، ج، ص٤٥٠.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ـ الدار التونسية ـ ج٣٠ ـ ٤٥٧.

رابعاً: أسباب النزول:

«هوما نزلت الآية أوالآيات متحدثة عنه أومبينة لحكمه أيام وقوعه»[١].

«وأسباب النزول لا تتعلق بما قبل البعثة، وما نزل ابتداءً من غيرسبب، والحديث عن الأمم السابقة وعلامات الساعة، فأسباب النزول تكاد تنحصرفي أمرين اثنين؛ هما: جواب سؤال أو تبيين واقع»[٢].

وقد صُنّـفتْ مولفات في سبب النزول اعتمد فيهاعلى النقل الصحيح عن الصحابة أوالتابعين

قال الواحدي: «لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفواعلى الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطلب»[٣].

ولبيان أهمية سبب النزول في كشف غموض الدلالة أورِدُ ما أخرجه البخاري في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌعَلِيمٌ﴾[٤]، أشكل فهم الآية على عروة بن الزبير، فقال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: أرايتِ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾، فَوَالله مَاعَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، قَالَتْ: بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ كَانَتْ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا، وَلَكِنَّهَا

---

(١) الزرقاني، عبد العظيم: مناهل العرفان، تحقيق: بديع اللحام، دار قتيبة، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م، ج١، ص١٤٤.

(٢) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: لباب النقول في أسباب النزول، الواحدي: أسباب النزول، ابن الخشاب أسباب النزول.

(٣) الواحدي، علي بن أحمد: أسباب النزول، دارالفكر، بيروت، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، دون رقم الطبعة، ص٤.

(٤) البقرة ١٥٨.

أُنْزِلَتْ فِي الْأَنْصَارِ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا سَأَلُوا رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله﴾[١].

خامساً: الناسخ والمنسوخ:

يعتبرالنسخ من القضايا التي أثارت جدلاً واسعاً بين العلماء، وتباينت ومواقفهم، مما أدى إلى اختلاف الدلالة في التفسير والأحكام الفقهية. وفي سبيل الكشف عن أهمية النسخ أعرض بعض الأقوال؛ لأنه لا يجوزلأحد أن يفسركتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ.

وقد قال علي لقاصّ: «أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت»[٢].

والباحث يشكك في صحة هذه الرواية عن علي ـ رضي الله عنه ـ؛ لأن القاصّ يقص قصصاً وأخباراً، والقصص والأخبار لا يعتريها النسخ.

والنسخ في اللغة يعني المحو والإزالة والإبطال.

وفي الاصطلاح: هو رفع حكم شرعي بحكم شرعي متأخر عنه.

ولابد من وقفة مع التعريف، فالمنسوخ رُفِعَ حكمُه؛ لأن كثيراً من المفسرين يتشبث بنقول منسوخة، منها القول بأن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، فمن هؤلاء ابن كثير

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى» إن الصفا والمروة «، رقم الحديث ٤٤٩٥٠، ص٧٦٤.

(٢) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: الإتفان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، دون سنة النشر، ج٢، ص٣١.

«وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر»[١].

ومنهم من قال بأنها غير معينة، قاله نافع عن ابن عمر، وقاله الربيع بن خثيم، فخبأها الله تعالى في الصلوات، كما خبأ ليلة القدر في رمضان، وكما خبأ ساعة يوم الجمعة، وساعات الليل المستجاب فيها الدعاء؛ ليقوموا بالليل في الظلمات لمناجاة عالم الخفيات.

ومما يدل على صحة أنها مبهمة غير معينة ما رواه مسلم في صحيحه في آخر الباب عن البراء بن عازب قال: نزلت هذه الآية: «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر» فقرأناها ما شاء الله، ثم نسخها الله فنزلت: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» فقال رجل: هي إذا صلاة العصر؟ قال البراء: قد أخبرتك كيف نزلت وكيف نسخها الله تعالى، والله أعلم[٢].

فلزم من هذا أنها بعد أن نُسشخ تعيينُها وأُبهمت فارتفع التعيين، والله أعلم[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم «ابن كثير»: ج١، ص٢٩٩.

(٢) مسلم، ابن حجاج: صحيح مسلم، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، دار السلام، السعودية ط١، ١٩٩٨م، رقم الحديث ١٤٢٥، ص٢٢٥٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج٣، ص٩٣، ١٩٤ جاء في لسان العرب: «وسَطُ الشيء ما بين طرَفَيْه... فإِذا سكَّنت السين من وسْط صار ظرفاً... قال اعلم أَنّ الوسَط بالتحريك اسم لما بين طرفي الشيء وهو منه كقولك قَبَضْت وسَط الحبْل.... فلما كان وسَطُ الشيء أَفضلَه وأَعْدَلَه جاز أَن يقع صفة وذلك في مثل قوله تعالى وتقدّس وكذلك جعلْناكم أُمّة وسَطاً أَي عَدْلاً فهذا تفسير الوسَط وحقيقة معناه وأَنه اسم لما بينَ طرَفَي الشيء»، وأما الآيات فهي:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

والوسط هاهنا: الخيار والأجود.

ب ـ قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾

أوسط: مثل ماتطعمون أهليكم إسرافاً كان أو تقتيراً.

يتبين للباحث من خلال النصوص المشار إليها في الهامش أن «الوسط» تحمل دلالتين؛ هما:

المكانة وهي الخيرية، والمكانية وهي بين بين، والسياق كبرى القرائن.

سادساً: الإجمال والتفصيل:

هـو ما يطلق عليـه ـ غالباً ـ تفسير القرآن بالقرآن، فتـرد الآية مـجملة في سورة، وتفصّل تالية لها أو في سورة أخرى، لا سيما بعد «وما أدْرَاك» فإن تفسيرها يأتي مباشرة غالباً.

والأوسط هو الأعدل، روي عن ابن عباس رحمهما الله: مد معه إدامه، والإدام يبلغ قيمته قيمة مد آخر أو يزيد في الأغلب.

والمراد بالوسط هنا المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، وليس المراد به الأعلى كما في غير هذا الموضع، أي أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه.

والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسطُ العرب نسباً وداراً، أي: خيرها، وكان ـ عليه السلام ـ وسطا في قومه، أي: أشرفهم نسباً.

ج ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾

قال لهم أعدلهم قولاً وخلقاً وعقلاً وهو الأوسط، ومنه قوله تعالى: ﴿أمة وسطاً﴾ أوسطهم: رأياً أو سِناً.

د ـ قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ دخلت في وسط ذلك الجمع لشجاعتها وقوتها وطواعيتها وشجاعة فرسانها.

وقال ـ صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده، و أنه لا إله إلاالله، و أعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام، و لا يعطي الهرمة و لا الدرنة و لا المريضة و لا الشرط: اللئيمة و لكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره و لم يأمركم بشره»

وقال ابن الرومي:

توخى حمام الموت أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقد

ومن المُجمل إلى المفصّل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[(١)] جاءت صفاتهم مباشرة في سورة المؤمنون ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[(٢)] وجاءت أيضاً في سور أخرى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[(٣)].

سابعاً: المطلق والمقيد، والخاص والعام، والمحكم والمتشابه:

وهذا أمر مبسوط القول فيه في كتب الفقه، فلتراجع هذه المسائل هناك.

ويُرجأ أثر القراءات القرآنية في التفسير إلى الفصل الثاني، مبحث ضابط القراءات القرآنية ـ إن شاء الله تعالى ـ.

المطلب الثاني: قضايا لغوية:

هناك قضايا لغوية شغلت اللغويين والمفسرين دون أن يُجمعوا فيها على رأي، ونشب الخلاف بينهم، فمنهم من أقر بوقوعها في اللغة ووجودها في القرآن، ومنهم من أنكر ذلك، وهناك فريق ثالث متردد بين الفريقين السابقين يقر بوقوعها في القليل النادر، وهذا الاختلاف أدى إلى تنوع الدلالة لدى المفسرين، ومن تلك القضايا: الاشتراك اللفظي، والترادف، والتضاد، والغرابة، والمعنى اللغويّ والمعنى الشرعيَ، والحقيقة، والتطور اللغوي؛ لأن اللغة كائن حي يطرأ عليها ما يطرأ على الكائنات الحية الأخرى، ولا يمكن للغة أن تقف جامدة في

---

(١) المؤمنون ١.

(٢) المؤمنون ٢ ـ ٩.

(٣) الأنفال ٣ـ٢.

مواجهة أعاصير التطور ورياح التغيير.

والتطور يبعث في اللغة حيوية ونشاطاً، فهناك ألفاظ كان لها دلالتها عند نزول القرآن ثم تطورت دلالة تلك الألفاظ، كقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾[١].

وقد يكون التطور «التوسع» نحو الانحطاط، فكلمة «صعلوك » كانت تعني: مَن لا مال له، كما ورد في الحديث النبوي الشريف «وأما معاوية فصعلوك لا مال له»[٢]، ثم تطورت الدلالة نحو الانحطاط لتعني الحقير؛ الذي لا وزن له.

وتحمل بعض الألفاظ معنيين؛ أحدهما لغويّ، والآخرشرعيّ، والسياق كبرى القرائن، فكلمة الصلاة كانت تعني في الجاهلية الدعاء، ثم تطورت دلالتها لتعني الصلاة المخصوصة بأقوال وأفعال، وإن كانت متضمنة الدعاء في ثناياها، كقوله تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣]، فالصلاة هنا تعني الدعاء والعطف والترحم، والتسبيح بالنسبة إلى الطير.

وأما قوله تعالى ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٤] فالصلاة هنا تعني الصلاة المشروعة «صلاة الجنازة»؛ لأن فيها تشريفاً وشفاعة للميت.

أما إذا احتملت الآية المعنيين، فإن السياق هو الدال، كقوله تعالى ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾[٥]، فالمعنى اللغوي لكلمة «يستثنون» يبقون، والمعنى

(١) الروم: ٣ـ٢، انظر صفحة رقم ٥.

(٢) الموطأ: كتاب الطلاق، باب نفقة المطلقة ثلاثاً، ص٤٨٢.

(٣) التوبة ١٠٣.

(٤) التوبة ٨٤.

(٥) القلم ١٧، ١٨.

الشرعي هو الاستثناء في اليمين، فبعض المفسرين اقتصر على المعنى الشرعي[١]، وبعضهم ذكر المعنيين[٢]، ولم يقدموا أحدهما على الآخر، ولكن فضل عباس حمل الآية على المعنى اللغويّ فقال: «إن معنى الاستثناء الشرعي إنما عرف بعد الهجرة، وسورة القلم مكية بإجماع، بل إنها مما نزل مبكراً، هذا أولاً، وأما ثانياً؛ فلأنهم لو قالوا «إن شاء الله» فلا يعد ذلك فضيلة لهم، لأنهم علقوا المشيئة على معصية»[٣].

أما قضية الاستثناء الشرعي لم يعرف إلا بعد الهجرة، فهذا استنباط لم يقم عليه دليل، بل الأدلة تثبت معرفة الاستثناء منذ القدم، فهذا إسماعيل ـ عليه السلام ـ يستثني ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٤].

ولكن يبقى استنباطه الثاني قيّماً، وهو عدم جواز تعليق الاستثناء على معصية.

وينشأ عن الاختلاف في اللغة اختلاف في التفسير وفي استنباط الأحكام الفقهية، كاختلافهم في معنى القرء ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[٥]، فدار خلافهم حول معنى القرء، هل هو الحيض، أم الطهر؟

المطلب الثالث: الحديث النبوي الشريف:

«المفسر أو العالم قد لا يبلغه الحديث، أولا يثبت عنده بعد بلوغه إياه، أو يختلف فهمه له بعد ثبوته عنده، فيكون ذلك سبباً في اختلاف المفسرين، وهو سبب واسع الأثر»[٦].

---

(١) روح المعاني: ج٦، ص٢٧٠، الكشاف: ج٤، ص٥٩٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم: ج٨، ص١٤، فتح القدير: ج٥، ص٢٧٠، طنطاوي، سيد: الوسيط، دار المعارف ج١٥، ص٤٨.

(٣) التفسير أساسياته واتجاهاته، ص٢٩٤.

(٤) الصافات ١٠٢، وموسى ـ عليه السلام ـ قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا﴾، وقال بنو إسرائيل: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

(٥) البقرة ٢٢٨.

(٦) الشايع، محمد عبد الرحمن: أسباب اختلاف المفسرين، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٥م، ص٤٣.

وإذا صح حديث نبويّ في تفسير آية، فإنه لا يجوزالعدول عنه إلى قول، إلا إذا توافق القول مع الحديث، كتفسيره ـ عليه السلام ـ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾(١) بأن الكوثر نهر في الجنة، فعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ»(٢).

وفسره ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بأنه الخير الكثير، فعن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ فِي الْكَوْثَرِ: «هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ». قَالَ أَبُو بِشْرٍ: «قُلْتُ لِسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ: فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهَرٌ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: النَّهَرُ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنْ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ»(٣).

فلا يتعارض قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بأن الكوثر هو الخير الكثير، مع قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه نهر في الجنة؛ لأن النهر رمز للعطاء، ويدل على الكثرة.

وإذا عدل عن دور الحديث في التفسير إلى قول لم يتوافق مع الحديث، فإن مرد ذلك إلى التعصب المذهبي غالباً، كما ورد في تفسيره ـ عليه السلام ـ لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(٤)، فسر الظلم بالشرك، إلا أن الزمخشري قال: «أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم»(٥).

---

(١) الكوثر ١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة الكوثر، رقم الحديث: ٤٩٦٤، ص٨٩٠.

(٣) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب الحوض، موقوف على ابن عباس، برقم: ٤٩٦٦، ص٨٩٠.

(٤) الأنعام ٨٢.

(٥) الكشاف: ج٢، ص٤١، ومن الأمثلة على عدم بلوغ الحديث إلى المفسر، عدة المتوفى عنها زوجها، فكان علي بن أبي طالب وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ يريان أن الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد بأطول الأجلين، إما أربعة أشهر وعشراً، وإما وضع الحمل، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ =

ومما ساهم في اختلاف المفسرين الوضعُ في الأحاديث والإسرائيليات، ومما يؤسف له أن كثيراً من التفاسير قد غصت بهاتين النقطتين، وذلك عائد لسببين:

أولهما: تأخر تدوين الحديث حتى عهد عمر بن العزيز ـ رضي الله عنه ـ، وإن كان هناك تدوين للحديث في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه كان في نطاق ضيق[١].

وثانيهما: ترك الأسانيد، مما ساعد على الوضع في الأحاديث، وقد نبـّه كثيرمن العلماء على الإسرائيليات كالإمام الغزّاليّ وابن كثير وابن تيمية وغيرهم.

وتقسم الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام؛ هي:

«ما عـُلِمتْ صحته عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نقلاً صحيحاً، فهذا يقبل، وما عُـلِم كذبه بأنه يناقض شرعَنا، فهذا لايصح نقله ولاروايته إلا بالتنبيه عليه، ومسكوت عنه، فهذا نتوقف فيه، فلا نصدقه ولا نكذبه، وتجوز حكايته لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم».

وقد اجاز بعض المفسرين الاستشهاد بالإسرائيليات للاستئناس، فقد نقل الذهبيّ

= أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ البقرة ٢٣٤، كان ابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما يريان أن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها وضع حملها، بغض النظر عن المدة «أربعة أشهر وعشراً» وكان استدلالهما مبنياًعلى حديث سبيعة الأسلمية حين توفي عنها زوجها سعد وهي حامل، فما لبثت أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تحللت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليهاأبو السنابل بن بعكك فقال لها: مابي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، والله ما أنت بناكح حتى تمرعليك أربعة أشهروعشر، قالت سبيعة الأسلمية: فلما قال لي ذلك، جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي».

(١) نهى الرسول ـ عليه السلام ـ عن كتابة أي شيء سوى الفرآن، ثم سمح لبعض الصحابة بالكتابة، حيث كان النهي خاصاً بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره، وحتى لايكل الصحابة على الكتابة بدلاً عن الاعتماد على الحفظ، أو كان النهي عن كتابة القرآن مع غيره في صحيفة واحدة، فكان الإذن ناسخاً للنهي.

عن البقاعيّ رأيه في الإسرائيليات، فقال:

«حكم النقل عن بني إسرائيل ولو كان قيماً لا يصدقه كتابنا ولا يكذبه الجواز، وإن لم يثبت ذلك»

المنقول، وكذا ما نقل عن غيرهم من أهل الأديان الباطلة؛ لأن المقصود الاستئناس لا الاعتماد، بخلاف ما يستدل به في شرعنا، فإن العمدة الاحتجاج للدين فلا بد من ثبوته»[١].

المطلب الرابع: العقيدة والفرق:

عصفت رياح الفتنة التي وقعت بين عليّ ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ بالاستقرار وبوحدة الدولة، مما أدى إلى ظهور فرق؛ كالشيعة والخوارج والمعتزلة، التي كانت تطوع النص القرآنيّ تطويعاً يتفق مع وجهة نظرها، ومحاولة انتصاركل فرقة لمذهبها، مع اجتماعهم حول القرآن ـ حمّال الوجوه ـ مما أدى إلى نشوء اختلاف في تفسيرالنص القرآنيّ، ولامجال للحديث عن تلك الفرق، باستثناء المعتزلة التي كان من أعلامها الجاحظ والزمخشريّ، التي قدمت العقل على النقل، ولعل آيات الصفات ورؤية الله ـ عزّ وجلّ ـ كانت محور الخلاف بينها وبين الأشاعرة من جانب، وبينها وبين الحنابلة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ»[٢].

---

(١) انظر: الذهبي، محمد حسين: الإسرائيليات في التفسير والحديث، دار الإيمان، دمشق، ط٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥، ص٧٠» نقلاً عن مخطوطة للبقاعيّ بدار الكتب المصرية بعنوان: الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة ـ ورقة رقم ٣٤.

(٢) الكشاف، ج١، ص٥٩١ ـ ومن الأمثلة على تفسير المعتزلة لبعض الآيات قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وأوّلوا كلمة «كلّم» تأويلاً فيه تعسف، بعيداً عن الظاهر، وهو حمل معنى «كلم» على جرَح، فيقول بعضهم: «إن كلم هنا من الكلم، بمعنى الجرح، والمعنى: وجرّح الله موسى بأظفارالمحن ومخالب الفتن، مستدلين بقراءة شاذة، وذلك بتقديم المفعول على الفاعل في هذه الأية وجعل كلمة «الله» في محل نصب مفعول به، وكلمة «موسى» في محل رفع فاعل.

ويسلم الحديث عن العقيدة وأهلها الباحث إلى ما يسمى بالتفسير الإشاريّ، وأصحابه المتصوفة؛ أصحاب المنهج الرمزي، معتمدين معجماً خاصاً بمصطلحاتهم، وسبب رمزيتهم استنادهم إلى أحاديث مرسلة وموقوفة وضعيفة.

وقد اتخذوا من الحديث التالي مدخلاً لتفسيراتهم «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة: القرآن له ظهر وبطن يُحاجّ العباد، والرحم تنادي: صِلْ من وصلني، واقطع من قطعني، والأمانة»(١).

فجانبهم الصواب.

وذكر الشاطبيّ شروطاً للظاهر والباطن، فقال:

«وكون الباطن هو المراد من الخطاب، فإنه يُشترَط فيه شرطان؛ أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب، ويجري على المقاصد العربية. وثانيهما: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر، يشهد لصحته من غير معارض»(٢).

---

(١) المناوي، فيض القدير، تحقيق عبد السلام أحمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ج٣، ص٤١٧ قال المناوي: فيه كثير بن عبد الله البشكري، متكلم فيه، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط٣، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، رقم ٢٥٧٧.

(٢) الشاطبي، إبراهيم بن موسى: الموافقات في أصول الشريعة، دار الفكر العربي، ط٢، ج٣، ص٣٩٤ـ ٤٠٠، ومن ذلك مثلاً ما نقل عن سهل بن عبد الله ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، قال: لم يرد الله معنى الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة بشيء هو غيره، أي لاتهتم بشيء هو غيري، قال: فآدم لم يعصم من الهمة والتدبير، فلحقه ما لحقه، قال: وكذلك كل من ادعى ما ليس له وساكن قلبه ناظراً إلى هدى نفسه، لحقه الترك من الله مع ما جبلت عليه نفسه، إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره، وينصره على عدوه وعليها، قال: وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلى تدبيرنفسه للخلود لما أدخل الجنة؛ لأن البلاء في الفَرْع، دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوست به نفسه، فغلب الهوى والشهوةُ العلمَ والعقلَ السابق القدر، ومن الأمثلة على التفسير بالباطن: الغسل تجديد العهد، الطهور: هو التبري والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام، الكعبة: النبي، والباب: علي، والصفا هو النبي، والمروة هوعلي.

ومن الأمثلة على التفسير بالباطن:

الغسل تجديد العهد، الطهور: هو التبري والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام، الكعبة: النبيّ، والباب: عليّ، والصفا هو النبيّ، والمروة هو عليّ[١].

وفي نهاية هذا المبحث ـ أهمية الدلالة عند المفسرين ـ يتبين للباحث أن الخلاف القائم على أسس سليمة وفهم مستقيم جائز لاحرج فيه، وأما إن كان لهوىً في نفسه، أوإرضاءً لمذهبه، بعيداً عن مقومات التفسير الثلاثة التي هي: المأثور واللغة والسياق ـ فإنه مذموم مردود.

❋ ❋ ❋

---

(١) الموافقات ـ ج٣ـ ص٣٩٥.

المبحث الثاني

أهمية الدلالة عند البلاغيين:

نزل القرآن بلسان عربي مبين، متحدياً أساطين البلاغة وفرسان الصنعة من أهل العربية، بعدما بلغت لغتهم أوج مجدها، ولا أدل على ذلك من تلك المساجلات الشعرية والخطابية التي كانت تعقد لها الأسواق والمنتديات.

فالبيان لم يكن متكلفاً ولامصطنعاً، وإنما كان طبعاً فيهم وسجية، ولما رفعوا راية العجز، اتخذوا من الطعن في القرآن وسيلة، ومن التشكيك في الرسول ـ عليه السلام ـ منهجاً.

والمتتبع للتفسير الذي واكب نزول القرآن، يجد للبيان فيه نصيباً وافراً ـ نظماً وتصويراً ـ، فقد فسّر الرسول ـ عليه السلام ـ الرزق بالشكر في قوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[١]،

قال: «شكركم تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، ونجم كذا وكذا»[٢].

وتتداخل جهود اللغويين والنحويين والبلاغيين، ويصعب التفريق معها، والناظر في المصنفات الأولى مثل مجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرأن للفراء؛ يجد فيهما من الإشارات البلاغية ما كانت أساساً لمن جاء بعدهما.

وميدان دلالة الألفاظ على المعاني ميدان فسيح، وساهم كل من الأدباء والأصوليين

---

(١) الواقعة ٨٢.

(٢) سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ـ باب ومن سورة الواقعة، رقم الحديث ٣٢٩٥ ـ ج٥ ـ ص٤٥، ضعفه أحمد شاكر في المسند ـ رقم ١٠٨٧.

في خلق بيئة التطور الدلالي، وكان القرآن محط الأنظار ومحور الدراسات في إظهار وجوه إعجاز النص القرآني، وتعتبر قضية اللفظ والمعنى من أوائل القضايا التي انشغل بها البلاغيون والأصوليون، ولا أدل على ذلك من اشتمال كتب الأصوليين عليها، ولا يكاد يخلو كتاب أصولي منها، لما لها من أثر في استنباط الأحكام الشرعية.

ويعتبر اللفظ والمعنى عماد الدلالة عند البلاغيين واللغويين والفلاسفة وغيرهم، فتجاذبوا هذه القضية، وكان شأنهم فيها شأن بقية القضايا اللغوية، ولم يُجمعوا أمرهم على رأي.

المطلب الأول: اللفظ والمعنى:

كان محور اهتمام اللغويين والبلاغيين يدور في نقطتين أساسيتين؛ هما:

الأولى: التأليف: أيهما المقدم: اللفظ أم المعنى؟

الثانية: الجمال: أيهما المقدم: اللفظ أم المعنى؟

وتقديم اللفظ على المعنى أو العكس أمر شائك، وأحياناً يصعب التفريق بينهما، فكان عبد القاهر الجرجانيّ صاحب نظرية النظم يرى تلازم المعنى واللفظ، ولا يقدم أحدهما على الآخر، فالألفاظ عنده رموز وخدم للمعاني... وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ[1].

وتناول الجاحظ قضايا البلاغة والبيان في كتابيه «البيان والتبيين» و«الحيوان»، ويعتبر الجاحظ أول من أبرز البيان، وأحسن عرضه، وشد أنظار من بعده إلى مسألة البيان، فأفرده بتأليف مستقل، وهو أول من قدم اللفظ على المعنى «والمعاني مطروحة في الطريق

---

(١) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تعليق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ص٤٣.

يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقرويّ والمدنيّ، وإنما الشأن للفظ في إقامة الوزن، وتخيير اللفظ، وسهولة المخرج، وخروج الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[١].

ولا تكتسب الألفاظ جمالها ورونقها إلا من خلال السياق، فاللفظ المركب يكشف مكنون أسرار اللفظ، وينفي تعدد المعاني، والمقام يحدد المعنى وهو أكبر القرائن.

ويبين ابن قيم الجوزية أهمية السياق: «السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد العام، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله فقد غلط في نظره وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[٢] كيف تجد السياق يدل على أنه الذليل الحقير»[٣].

والدلالة عند البلاغيين تتذبذب بين الحقيقة والمجاز، وكان للعلماء موقف من الحقيقة والمجاز، بين مقرٍّ ومنكر، فمن الذين أنكروا المجاز ابن فارس فقال: «الحقيقة: الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم ولا تأخير، وهذا أكثر

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان: تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، ١٣٨٨هـ-١٩٦٩م، ط٣، ص١٣١، ١٣٢، وقدم ابن خلدون اللفظ على المعنى: «اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل... وأما المعاني فهي في الضمائر، وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها مايشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى تكلف صناعة في تأليفها... انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، دار إحياء التراث العربي، ط٣، دون سنة الطبع، ص٥٧٧.

(٢) الدخان ٤.

(٣) ابن القيم، محمد بن أبي بكر: بدائع الفوائد، تحقيق بشير عيون، مكتبة دار البيان، ط٣، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م ص٥٨٨.

الكلام، وأكثر آي القرآن وشعر العرب على هذا»[١].

بينما أقر بالمجاز ابن جنيّ الذي اعتبر أن أكثر اللغة من المجاز لا من الحقيقة، وقال ابن الأثير: «واعلم أنه إذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة، وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه، فانظر؛ فإن كان لا مزية لمعناه في حمله على طريق المجاز، فلا ينبغي أن يحمل إلاعلى طريق الحقيقة؛ لأنها هي الأصل، والمجازهو الفرع، ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع الا لفائدة»[٢].

وقد لخص صاحب «تأويل المشكل» ما يتناوله المجاز فقال: «وللعرب المجازات في الكلام، ومعناه طرق القول ومأخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد ومخاطبة الجمع، والجمع خطاب الواحد، والواحد والجمع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن»[٣].

ويتضح مما سبق أن بواكير البلاغة بدأت من الجاحظ، وتطورت وتبلورت بجهود عبد القاهر الجرجانيّ، إلى أن جاء الزمخشريّ الذي اتخذ من نظرية عبد القاهر منطلقاً، وتفنن مَن جاء بعد الزمخشريّ بالعبارة، فالكشاف غذّى التفسيرَ بروافدَ صافيةٍ عذبةٍ وَرَدَها المفسرون.

---

(١) ابن فارس، أحمد بن فارس: الصاحبي، تعليق: أحمد بسج، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م، ص١٤٩.
انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: المزهر، ضبطه محمد أحمد جاد المولى، دار الفكر، ج١، ص٣٥٥.

(٢) ابن الأثير، المبارك بن محمد: المثل السائر: تحقيق محمد محيي الدين، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١ هـ ١٩٩٠م، ج١، ص٧٩.

(٣) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: تأويل مشكل القرآن، مكتبة ابن قتيبة، ط١، ١٩٨١م، ص٢٠، ٢١.

وتناول البلاغيون النص القرآنيّ من زوايا متعددة يجمعها إطار واحد، فبعضهم تناول الحروف من حيث الملاءمة في الكلمات والوقع الموسيقي، وبعضهم اتخذ من التصوير الفني أساساً ومرتكزاً لدراسته البيانية، وبعضهم جعل الأسلوب أساساً لتحليله، وبعضهم جعل للمفردة القرآنية ـ التي هي جزء من الجمل المركبة ـ نصيباً.

المطلب الثاني: الفاصلة القرآنية:

من الباحثين من يعدّ الفاصلة القرآنية من الدلالات البلاغية التي يكمن بداخلها سرٌ من أسرار الإعجاز القرآنيّ، ومن هؤلاء سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «من المواضع التي لاحظت فيها تغير نظام الفاصلة يعني شيئاً خاصاً ما جاء في سورة مريم، فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحيى، وتليها قصة مريم وعيسى، وتسير الفاصلة والقافية هكذا ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا... وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1] إلى أن تنتهي القصتان على روي واحد، وفجأة يتغير هذا النسق بعد آخر فقرة في قصة عيسى على النحو التالي ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا..... أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2] وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول، ويتغير نظام القافية، فتصبح بحرف النون، أو بحرف الميم، وقبلهما مد طويل، وكأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكماً بعد نهاية القصة، مستَمَداً منها، ولهجة الحكم تقتضي أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض، وتقتضي إيقاعاً رصيناً..........، وكأنما لهذا السبب كان التغيير»[3].

ومن الباحثين من لا يعتبر الفاصلة القرآنية من الدلالات البلاغية، ومن هؤلاء؛

---

(١) مريم ١٦ ـ ٣٣.

(٢) مريم ٣٣ ـ ٣٨.

(٣) قطب، سيد: التصوير الفني، دار المعارف بمصر، دون سنة الطبع ورقم الطبعة، ص٩١، ٩٢.

محمد رشيد رضا «إن كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها، فليس فيه كلمة تقدمت، ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة؛ لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة، كما قالوا في كثير من السجع والشعر، إنه قدّم كذا وأخّر كذا لأجل السجع ولأجل القافية، والقرآن ليس بشعر ولا التزام فيه لسجع، وهو من الله الذي لا تعرض له الضرورة، بل هو على كل شيء قدير، وهو العليم الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه، وما قاله بعض المفسرين مثل هذا القول إلا لتأثرهم بقوانين البلاغة، وغلبتها عليهم في توجيه الكلام »(١).

والفاصلة القرآنية و القراءات القرآنية والرسم العثماني تكمن في أحشائها أسرار بلاغية لا يزال كثير منها غير مكتشف.

ومن الأمثلة على الفاصلة القرآنية وتناغمها مع السياق، ما كان من تقدم موسى تارة على هارون، وتارة تقدم هارون على موسى ـ عليهما السلام ـ كما في قوله تعالى ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾(٢)، وتارة يتقدم هارون على موسى ـ عليهما السلام ـ كما في قوله تعالى ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾(٣).

قال بعض العلماء ـ منهم أبو السعود في تفسيره ـ في تقديم موسى على هارون ـ عليهما السلام ـ تارة، وتارة تقديم هارون على موسى، فقال: «تأخيرُ موسى عند حكاية كلامِهم لرعاية الفواصل، وقد جُوّز أن يكون ترتيبُ كلامهم أيضاً هكذا إما لِكبَر سن هارون عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وَأَمَّا للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطلِ من جهة فرعونَ وقومِه حيث كان فرعون ربي موسى عليه الصلاة والسلام فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعينُ وقومُه من أول الأمر أن مرادَهم فرعونُ»(٤).

---

(١) رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ج٢، ص١٢.

(٢) الأعراف ١٢١، ١٢٢ ـ الشعراء ٤٧، ٤٨.

(٣) طه ٧٠.

(٤) إرشاد العقل السليم: ج٦ ـ ص٢٨، ٢٩.

وهذا توجيه يبدو مقبولاً من أبي السعود ـ رحمه الله ـ، ولكن لم يكن تقدم هارون مطرداً ـ لكبر سنه ـ، إذن لا بد من وقفة تحليلية للسور الثلاث للوقوف عل أسباب التقديم والتأخير.

ويرى الباحث أن تقديم موسى على هارون ـ عليهما السلام ـ في سورتي الأعراف والشعراء فيها تقابل ـ تضاد ـ بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون، والمسألة مرتبطة بذكر الملأ، حيث إن الملأ بمنزلة الوزراء عند فرعون، وكذلك منزلة هارون من موسى ـ عليهما السلام ـ ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾[١]، فعندما يرد ذكر الملأ، فإن موسى يتقدم على هارون، ليتم التقابل فيتقدم فرعون على ملئه ـ وزرائه ـ ويتقدم موسى على وزيره ـ هارون ـ.

وأما في سورة «طه» لم يرد ذكرٌ لملأ فرعون في القصة، فيتقدم هارون على موسى ـ عليهما السلام ـ لكبر سنه، ، والله تعالى أجل وأعلم.

المطلب الثالث: المفردة والجملة القرآنية:

حظيت المفردة القرآنية لدى البلاغيين بنصيب وافر من العناية، لا سميا التقديم والتأخير كتقديم المال على النفس، أوالنفس على المال، كما في قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[٢]، وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[٣].

وسبب تقديم الأموال على النفس في سورة الصف جاء في سياق إرشاد المؤمنين على التجارة المنجية من عذاب أليم، بعيداًعن المعركة، وإعداداً لما سيكون، ففي هذه الحال تبرزأهمية المال، بينما في سورة التوبة قدمت النفس على المال؛ لأنها وردت في سياق الحث

---

(١) طه ٢٩، ٣٠.

(٢) الصف ١١، انظر التوبة ١١١.

(٣) التوبة ١١١.

على القتال، ففي أتون المعركة تكون حاجة المسلمين إلى الأنفس أشد منها إلى المال.

والجملة القرآنية ليست دون المفردة في الدلالة، فقد أستثمرها البلاغيون والمفسرون أيما استثمار، كقوله تعالى ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[1] و﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[2].

والقذف فيه إيحاء بالرمي، وفيه تصويرللحالة النفسية لمن يُقذف كما في قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[3]، والصياصي هي الحصون، والأمر متعلق بقذف حصون بني النضيرالتي أشار إليها قوله تعالى ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[4].

وأما قوله تعالى ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[5] فنزلت في سياق غزوة بدر، ولم يكن للمشركين حصون، ودارت المعركة بأرض بدر، وكانت ساحة المعركة مكشوفة، بينما الآية التي ورد فيها «وقذف» كانت في سياق حصار بني النضير في المدينة، حيث كانوا أهل حصون، فناسب الحصون القذف وليس الإلقاء[6].

---

(١) الأنفال ١٢.

(٢) الحشر ٢.

(٣) الأحزاب ٢٦.

(٤) الحشر ٢.

(٥) الأنفال ١٢.

(٦) التفسير أساسياته واتجاهاته: ص٤٩٩.

المبحث الثالث:

أهمية الدلالة عند النحويين:

تسنمت اللغة العربية مكانة لاينازعها فيها لغة أخرى، وتحلت بخصائص ميزتها عن بقية اللغات.

والدلالة النحوية لا تنفك عن الدلالة الصرفية، ولا يستغني الباحث بواحدة عن الأخرى، فهما توأمان متلازمان تلازم الظل لصاحبه.

ولا يخفى الفرق بين الفعلين قسط وأقسط، وكيف أن زيادة الهمزة أخرجت الفعل إلى نقيضه، فالفعل الأول «قسط» يعني ظلم وجار، قال تعالى ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[(١)]، والفعل الثاني «أقسط» فإنه يعني العدل، قال تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[(٢)].

ومن مؤثرات الدلالة دراسة التركيب الصوتي وبيان المعنى الذي تؤديه صيغتها، فلا يكفي لبيان معنى استغفر بيان معناها المعجمي المرتبط بمادتها اللغوية «غ ف ر» بل لا بد من أن يضم إلى ذلك معنى الصيغة «استفعل» التي تدل على الطلب.

فالدلالة الصرفية نابعة من بنية الكلمة وصيغتها، فكلمة «كافر» تختلف عن «كفور» التي تدل على كثرة الكفر والمبالغة فيه، بخلاف كافر الدالة على مجرد الكفر.

وأولى الفقهاء أهمية خاصة للتصريف، واستنبطوا منه أحكاماً فقهية عمادها التصريف[(٣)].

---

(١) الجن ١٥.

(٢) المائدة ٤٢.

(٣) نقل الأسنوي «ت ٧٧٢» مسألة عن أبي القاسم إمام الدين عبد الكريم بن محمد الرافعي «أن الرجل =

وبيّن ابن خلدون مكانة النحوعندما تكلم في علوم اللسان العربيّ، فقال: «أركانه أربعة، وهي اللغة والنحو والبيان والأدب... والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة، فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة»(١).

وللتراكيب النحوية أثرفي الدلالة، منها:

أ: أثر دلالة الضمير:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾(٢)، «أو لامستم»: الأظهر أنه إنما يعود عنده على المحْدث حدثاً أصغر فقط، ويحتمل أن يعود الضمير عليهما معاً إذا كانت الضمائر إنما يُحْمَلُ أبداً عودها على أقرب مذكور، إلا أن يُقَدَّرَ في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ، حتى يكون تقديرها هكذا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً، ومثل هذا لايصار إليه إلا بدليل.

= إذا حلف لا يلبس مما غزلته زوجته، فإنه لا يحنث إلا بما غزلته قبل اليمين، ولو قال: مما تغزله، فلا يحنث إلا بالذي تغزله بعدها، فلو قال: من غزلها دخل في الماضي والمستقبل» ، فانظر كيف تعلق الحكم بصيغة الفعل. انظر: الأسنوي، عبد الرحيم: الكوكب الدري في كيفية تخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية، تحقيق: محمد حسن عواد، دار عمار، ط١، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م، ص٣٠٩.

(١) المصدر السابق: ٥٤٥.

(٢) المائدة ٦.

واعتبر البعض أن الضمير في «تجدوا» عائد على المسافر ومن ذكر بعده؛ لأن في الكلام صفة محذوفة «لا تستطيعون» في محل نصب صفة لمرضى.

وآخرون اعتبروا أن الضمير في «تجدوا» يعود على المريض والمسافر ومن بعدهما، ولا حذف في الكلام(١).

ب: أثر دلالة الموصول:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ...﴾(٢).

«أو يعفو الذي»، فمن هو الذي يملك عقدة النكاح؛ الزوج أم الولي؟(٣)

ج: أثر دلالة المعرفة بأل:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ﴾(٤).

تفيد «ال» العهد الذهني، فخرج من الميتة السمك والجراد، ومن الدم الكبد والطحال(٥).

---

(١) ابن رشد، محمد بن أحمد: بداية المجتهد، دار الفكر، ج١، ص١٦.

(٢) البقرة ٢٣٧.

(٣) اختلف الناس في المراد بقوله تعالى: ﴿أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾ فروى الدارقطني عن جبير ابن مطعم أنه تزوج امرأة من بنى نصر ـ نضير ـ فطلقها قبل أن يدخل بها، فأرسل إليها بالصداق كاملا، وقال: أنا أحق بالعفو منها، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وأنا أحق بالعفو منهاوذهب ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ في إحدى الروايات عنه وعائشة وطاووس ومجاهد وعطاء والحسن وعلقمة والزهري والشافعي في قوله القديم إلى أن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي الذي لا تنكح المرأة إلا بإذنه الجامع لأحكام القرآن: ج٣، ص١٨٧، ١٨٨.

(٤) البقرة ١٧٣.

(٥) عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الميتتان: الحوت =

د: دلالة «كان»:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[١].

فالخلاف حول «كان» هل هي ناقصة أم تامة؟

هـ: دلالة الظرف:

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٢].

أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبّرعن الصلاة بالركوع، والتعبيرعن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها[٣].

و: دلالة الاستثناء:

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤].

فالاستثناء في قوله: ﴿إلا الذين تابوا﴾ حقه أن يعود إلى جميع ما تقدم قبله كما هو

= والجراد والدمان: الكبد والطحال» ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة ـ كتاب الصيد ـ باب: صيد الحيتان والجراد ـ رقم الحديث: ٣٢١٨ ـ مكتبة المعارف، الرياض، ط١، دون سنة النشر، ص٥٤٤.

(١) البقرة ٢٨٠، قرأ الجمهور ذو عسرة، على أن: كان، تامة، وهو قول سيبويه، وأبي علي، وإن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة، وأجاز بعض الكوفيين أن تكون: كان، ناقصة هنا. انظر البحر المحيط: ج٢، ص٧١٦.

(٢) البقرة ٤٣.

(٣) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مكتبة الإيمان، المنصورة، دون سنة النشر، ص٥٠.

(٤) النور ٤، ٥.

شأن الاستثناء عند الجمهور، إلا أنه هنا راجع إلى خصوص عدم قبول شهادتهم وإثبات فسقهم، وغير راجع إلى إقامة الحد بقرينة قوله: ﴿من بعد ذلك﴾، أي بعد أن تحققت الأحكام الثلاثة، فالحد قد فات، على أنه قد عُلِم من استقراء الشريعة أن الحدود الشرعية لا تسقطها توبة مقترف موجبها.

وقال أبو حنيفة وجماعة: الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة جرياً على أصله في عود الاستثناء الوارد بعد جمل متعاطفة[١].

ز: أثر دلالة الحال:

قال تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾[٢].

وقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ الناس السحر﴾ في محل نصب على الحال، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر بعد خبر[٣].

ح: أثر دلالة الإضافة:

كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[٤]، ففي الآية حذف المضاف «أهل» فإن في الآية من القرائن ما يوضح حذف المضاف، مما جعله يُستغنى عنه.

ط: أثر دلالة النعت:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير: ج١٨، ص١٥٨.

(٢) البقرة ١٠٢.

(٣) فتح القدير: ج١، ص١١٩.

(٤) يوسف ٨٢.

(٥) النساء ٩٢.

قُيِّدت الرقبة هنا بالمؤمنة، وكانت مطلقةً في الظهار﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾(١).

ي: أثر دلالة البدل:

قال تعالى: ﴿لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾(٢).

لولا التخصيص بالبدل، لكان الحج لازماً على كل الناس؛ لأن «مَن» بدل بعض من كل.

ك: أثر دلالة الأمر:

تتعدى صيغة الأمر من الأمر الحقيقي إلى معانٍ؛ كالإباحة والالتماس والتخيير والدعاء وغيرها، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا﴾(٣)، فالأمر هنا للإباحة، وليس على الوجوب.

ل: أثر دلالة الشرط:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾(٤).

«مَـــنْ» إما أن تكون شرطية، وإما أن تكون موصولة.

م: أثر دلالة العدد:

قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾(٥).

---

(١) المجادلة ٣

(٢) آل عمران ٩٧.

(٣) المائدة ٢.

(٤) النساء٢٥.

(٥) النساء ١٥.

دل العدد «أربعة» على أن الشهود ذكور؛ لأن العدد يخالف المعدود في التذكير والتأنيث في الأعداد من ثلاثة إلى تسعة.

وإن كان في حذف المعدود يتساوى فيه التذكير والتأنيث، كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال» فالمعدود أيام، ومفردها يوم، والعدد يخالف المعدود في الأعداد من واحد إلى تسعة.

المبحث الرابع:

أهمية الدلالة عند المحْـدَ ثين

المطلب الأول: جهود المحْدثين الغربيين والعرب القدامى في تطور علم الدلالة:

بدأ الاهتمام بدراسة المعنى ـ عند المحدثين ـ منذ أوائل القرن العشرين، حيث شهد هذا القرن قفزة نوعية لجميع العلوم، ويعتبر اللغوي الفرنسي «ميشيل بريل» أول من استخدم المصطلح الدال على علم الدلالة، ثم جاء من بعده دي سوسير، الذي يعد أول من درس الدلالة من الناحية الوصفية، وأطلق على دراسته اسم « سيميولجي» وهو العلم الذي يتناول استعمال العلامات ووظائفها ودراسة الكلمات في فترة محددة.

ويرى سوسير أن الدال له مظهران؛ نفسي داخليّ، وماديّ خارجيّ، وهذا يتفق مع قول كثير من الأصوليين أن الكلام معنى قائم في النفس يعبر عنه بهذه الأصوات المقطعة»[(١)].

وأشارسوسير إلى أن اللغة ظاهرة إشارية واجتماعية، وقد حدد الإشارة اللغوية العلامة أو الرمز اللغويّ بأنها اتحاد تصورمع صورة سمعية أوذهنية أونفسية، فالصورة هي الدال

والتصورهو المدلول، وشبه الرمز اللغوي بورقة ذات وجهين: أحدهما الدال، والآخرالمدلول، ولايمكن وجود مدلول دون دال، ويندرج الدال باعتباره أصواتاُ أو إيماءات أو حركات أو صوراً محسوسة تحت النظام المادي، بينما يندرج المدلول بوصفه فكرة أو مضموناً أو معنى أو محتوى تحت النظام الذهنيّ»[(٢)].

---

(١) العبيدان، موسى: دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين، الأوائل للنشر، ط١، ٢٠٠٢م، ص٧٣.

(٢) عزام، محمد: النقد والدلالة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦، ص١٠٢

«ثم تطور البحث في علم الدلالة في أوروبا على يد «ريتشاردزوأوجدن» في كتابهم «معنى المعنى» حاولا وضع نظرية فلسفية للعلاقات بين المعنى والرمز»(١).

وممن ساهم في تطوير علم الدلالة «بلومفيلد» الذي تناول المعنى من وجهة نظر علم النفس السلوكيّ، والبولنديّ مالينوفسكي الذي استخدم مصطلح سياق الحال، وقد اعتمد «فيرث» الإنجليزيّ صاحب النظرية الاجتماعية على آراء «مالينوفسكي»، وبالرغم من أن علماء اللغة ـ قديماً وحديثاً ـ على وجه الخصوص قد أدركوا أهمية السياق ودوره في الحدث اللغويّ، بل إن فكرة السياق ودلالته على المعاني الحقيقية للكلام كانت مطروحة في الفكر الإنسانيّ منذ أفلاطون وأرسطو وعلماء البلاغة العربية، إلا أن الفضل في إعادة الحياة إلى هذه الفكرة يعود إلى «فيرث» الذي صاغ منها نظرية علمية في دراسة اللغة، قد تلتقي في جوانبها مع آراء القدماء من علماء العربية أو غيرهم، ولكنها بلا شك تختلف من حيث المنهج والتحليل والتطبيق(٢).

ونظرية السياق لم تتبلور إلا في العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين، وهي دراسات تهدف إلى تصنيف المداخل المعجمية في أنساق بنيوية وفق علائق دلالية.

وبعد أن بين الباحث جهود الغربيين في علم الدلالة، لا بد من استجلاء الأمر وبيان دور اللغويين العرب القدامى، لا سيما أن البعض يعتبر «فيرث» صاحب السبق في نظرية السياق، ولكن الحق يقال إن ابن جنيّ تعرض للدلالة وتناولها من عدة زوايا تتعلق بأحوال المتكلم وتعابيره، ودلالة السياق والحال والمشاهدة، ولكن جهود ابن جني وغيره من علماء اللغة السابقين كانت مبعثرة وبحاجة إلى من يجمع شتات أمرها.

فجهود علماء اللغة القدامى حقيقة لا يُمارَى فيها، تلك الجهود التي تمخضت عنها

---

(١) خليل، حلمي: مقدمة لدراسة علم اللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص١٤٧.

(٢) مقدمة لدراسة علم اللغة، ص١٥٣.

معاجم الموضوعات الغنية بالحقول الدلالية، ككتاب «المقصوروالممدود» لابن دريد «ت ٣٢١ هـ».

وقد اتسعت دائرة الحقول الدلالية حتى شملت الترادف والاشتراك اللفظي والأوزان الصرفية؛ لوجود علائق في كثير من الكلمات فيما بينها»[١].

وعلم الدلالة الحديث ركز على الجانب الصوتيّ في دراسته، ونتيجة للتطور العلميّ الذي شهده القرن العشرون، أقيمت المختبرات اللغوية والصوتية، مما ساهم في إنجاح تلك الدراسات، مع أن اهتمام المسلمين بالدلالة الصرفية تزامنت مع نزول القرآن، والعناية بتلاوته وتعليمه وتعلمه، حتى تناقله اللاحقون عن السابقين بدقة وأمانة وإتقان.

والقراءات المتواترة ذات دلالات صوتية كالهمس والصفير والإمالة والفتح والتقليل وغيرها من صفات الحروف ومخارجها، ولم يحظ علم بالنقل كما حظي به علم التجويد، وحرصت الأجيال على الحصول على الإجازات والسند إتقاناً وتجويداً خدمة لكتاب الله العزيز.

وكان من خصائص اللغة العربية التفخيم الذي له قيمة دلالية، حيث يتم التفريق بين لفظين بينهما جناس ناقص، لئلا يحدث لبس في السماع، ومن ثـَم لبس في الفهم، مثل قنط وقـنت، تاب وطاب، سار وصار[٢].

---

(١) ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد: روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت، دون سنة الطبع ورقم الطبعة، ص١١٩، ١٢٠، انظر: العبيدان، مصطفى ـ دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين ـ ص٧٤.

(٢) وهناك تفخيم لا لبس فيه ولاعلاقة له بالدلالة، وإنما هو خطأ في الأداء، أي أنه خطأ صوتي يذهب جمال التلاوة، ويخرج الحرف عن صفته، ومثال ذلك «صدق» وقعت الدال بين حرفي استعلاء «تفخيم» فإذا لم يراعَترقيق الدال، فإنها ستخرج عن صفتها وتتبع حرفي الاستعلاء «ص، ق»، ومن ثَمّ فإنها ستنطق ضاداً.

المطلب الثاني: الصوت وأثره في الدلالة:

ولعل أهم ما يميز العلوم الحديثة ميلها إلى التخصص، لا سيما علم اللغة، بينما يغلب على العلوم القديمة سمة الإلمام.

وتركزالدراسات عند المُحْدثين على الجانب الصوتيّ، وهو ما يعرف في اللسانيات بالفونيم؛ وهو «العلم الذي يعالج الخصائص الصوتية الوثيقة الصلة بلغة معينة من وجهة نظر إحساس المتكلمين»(١).

وتبرز القيمة الدلالية للصوت في النواحي التالية:

أولاً: النبر

«بذل طاقة معينة عند أداء الصوت والمقطع من طرف أعضاء النطق»(٢).

يعترف بوجوده في اللغة العربية «بروكلمان»(٣)، وينكر وجوده من المحْـدثين العرب إبراهيم أنيس وأحمد مختار وعبد الرحمن أيوب، وحجتهم في ذلك: عدم وجود دليل ماديّ مرده إلى الأقدمين، يوضح طريقة النبر عند القدماء(٤).

والإنكار يرده ما ذكره ابن منظور أن المهديّ حجّ مع الكسائيّ، فتقدم الكسائي يصلي في المدينة المنورة، فهمز، فأنكر أهل المدينة عليه، فقالوا: تنبر في مسجد رسول الله ـ

---

(١) ماريو باي: أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٨م، ص٨٨ Invitation to linguistics By Mario Pei.

(٢) علم اللغة العام، ص٢١٠.

(٣) بروكلمان: فقه اللغات السامية، ترجمة: عبد التواب رمضان، جامعة الرياض، ١٩٧٧م، ـ ص٤٥.

(٤) أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية، دار النهضة العربية، ط٣ ـ ١٩٦١ م، ص٤٦، انظر: مختار، أحمد: دراسة الصوت اللغوي: عالم الكتب، ١٩٩٠م ـ دون رقم الطبعة ـ ص٣٠٧.
وأيوب، عبد الرحمن: محاضرات في اللغة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦م، ص١٤٥.

صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن؟[١]

ولا يخفى أن المصطلحات اللغوية الحديثة لم تكن معروفة لدى القدماء بهذه المسميات، فالنبر عند ابن جنيّ «المطل» وعند سيبويه «الإشباع»، ولا مشاحة في الاصطلاح.

ثانياً: التبديل:

هو إحلال صوت مكان صوت آخر، بحيث يؤدي ذلك إلى حدوث تغير في دلالة الكلمة.

وأشار إلى التبديل ابن جنيّ في الخصائص وسماه المقابلة بقوله: «وأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فباب عظيم واسع»[٢].

أما المحْدثون الغربيون، فالعالم الإنجليزي «فيرث» تناول «الفوناتكس» وبيّن أن هناك علاقة بين الكلمات التي تبدأ بحرفين مثل ST، ومثّـل ذلك بما يلي: Stack «كومة»، stick «عصا»، Stub «أصل الشجرة بعد قطعها»، Stud «خشبة تمرعليها الألواح المستخدمة في تشييد جدران المنازل». فهذه كلمات ترتبط بعلاقة مشتركة في المعنى العام.

وقد نال ابن جنيّ شرف السبق على العلماء المحْدثين، عندما تناول الكلمات التي يربطها أصل واحد فقال: «واستعملوا تركيب جب ل، جب ن، جب ر، لتقاربها في موضع واحد، وهو الالتئام والتماسك فيه، الجبل لقوته وتماسكه، وجبن إذا تماسك وتوقف وتجمع، ومنه جبر العظم ونحوه إذا قويته»[٣].

(١) لسان العرب: ج١٤، ص١٧٥، والباحث ـ بكل تواضع ـ يرد ما ذكره ابن منظور، لأن قراءة نافع ـ وهو قارئ المدينة ـ يهمز، كما في النبي، فإنه يقرؤها «النبيء».

(٢) ابن جني، عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص١٥٧، ١٥٨.

(٣) الخصائص: ج٢، ص١٤٩

ثالثاً: التنغيم:

«رفع الصوت وخفضه في أثناء الكلام للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة»[١].

ويناقض رمضان عبد التواب نفسه في قضية التنغيم عند القدماء، فيقول: «لم يعالج أحد من القدماء شيئاً من التنغيم، ولم يعرفوا كنهه، غير أننا لا نعدم عند بعضهم الإشارة إلى بعض آثاره في الكلام للدلالة على المعاني المختلفة»[٢].

وقوله: «لا نعدم عند بعضهم الإشارة إلى بعض آثاره»، لعله يقصد علماء القراءات والتجويد.

أما الغربيون فيفـرّقون بين مصطلح النغمة «Ton» الذي يعالج مستوى الكلمة المفردة، ومصطلح التنغيم. «Intonation» الذي يعالج الجملة.

واعتمد المحْدثون على المناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها، وبوّب السيوطي باباً سماه

مناسبة الألفاظ للمعاني، وقال: «فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فادت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعالجة فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين، والأخف والأسهل، والأهمس، لما هو أدنى وأقل وأخف عملاً أو صوتاً، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً»[٣].

ويَعتبِر إبراهيمُ أنيس أنّ ابن جنيّ والثعالبيّ بالغا في قضية المناسبة فقال «لقد غالى ابن جنيّ في هذا ومعه الثعالبيّ صاحب فقه اللغة، إذ جعل مجرد الاشتراك في أصلين فقط

---

(١) حسان، تمام: مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٠ه، ١٩٧٩م، ص١٩٧.
(٢) المصدر السابق: ١٩٨.
(٣) المزهر: ج١، ص٥٣.

من الأصول الثلاثة دليلاًعلى الاشتراك في معنى عام لبعض الكلمات، فيقرر أن المعنى العام للتفرقة يكون بين صوتي الفاء والراء، والمعنى العام للقطع يكون بالقاف والطاء إلى غيرذلك من تخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة عند رجل أشتد ولعه باللغة العربية، فتصور فيها ما ليس فيها، وأضفى عليها من مظاهرالسحرما لايصح في الأذهان ولا تتصف به لغة من لغات البشر»[١].

رابعاً: التنوين:

هو نون ساكنة تلحق الاسم لفظاً لا كتابة، وعند الأخفش يلحق التنوين بالفعل أسماه «الغالي» يلحق القوافي المقيدة: «وقاتم الأعماق خاوي المخترقن»، وقد لحق التنوين بالفعل في القرآن الكريم في موضعين هما: ﴿وَلَيَكُونَاً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ﴾[٣].

ونظام التنوين نظام خاضع لنظام المقاطع، ففي العَروض، يأخذ التنوين مقطعاً طويلاً؛ لأنه متضمنٌ صوتاً متحركاً وساكناً، فللتنوين دلالة فعّالة، لأنه من الظواهر الصوتية.

وتظهر دلالة التنوين في العمل والحذف، أما العمل: فإن التنوين في اسم الفاعل ينصب مفعولاً يقول الكسائي: اجتمعت أنا وأبو يوسف القاضي عند هارون الرشيد، فجعل أبو يوسف يذمّ النحو ويقول: وما النحو؟ فقلت: ـ وأردت أن أعلمه فضل النحو ـ ما تقول في رجل قال لرجل: أنا قاتلُ غلامِك، وقال له آخر: أنا قاتلٌ غلامَك، أيهما كنت تأخذ به؟ قال: آخذهما جميعاً، فقال له هارون: أخطأت، وكان له علم بالعربية، فاستحيا وقال: كيف ذلك؟ قال: الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال: أنا قاتلُغلامِك بالاضافة؛

---

(١) من أسرار اللغة: ص١٢٦.

(٢) يوسف ٣٢.

(٣) العلق ١٥.

لأنه فعل ماض، وأما الذي قال أنا قاتلٌ غلامَك بالنصب فلا يؤخذ؛ لأنه مستقبل لم يكن بعد، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾[١] فلولا أنّ التنوين مستقبل ما جاز فيه غداً، فكان أبو يوسف بعد ذلك يمدح العربية والنحو[٢].

وأما دلالة الحذف، فللتنوين دلالات متنوعة منها العوض عن الياء المحذوفة في حالتي الجر والرفع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٣]وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[٤].

وعوض عن اسم، كقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[٥] أي كل طائر، وعوض عن جملة، وهوالتنوين الذي يلحق «إذ» كقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾[٦]، أي حين إذ بلغت الروح الحلقوم، فحذف بلغت الروح الحلقوم.

وكذلك من دلالات التنوين: التعريف والتنكير، مثل سيبويه وخالويه، فإذا تكلمت عن شخص معين «سيبويه» معهود لديك من غيرتنوين، وأما إذ قصدت شخصاً غيرمعين فإنه ينون «سيبويهٍ».

وكذلك التنوين في أسماء الأفعال مثل «صه» من غير تنوين، تأمر المتكلم السكوت عما يتحدث به، وبتنوين «صهٍ» تأمر المتكلم السكوت عن جميع الكلام[٧].

وعلى ضوء ما تقدم فإن الباحث يلاحظ أن نواة علم اللغة بجميع دلالاتها قد تناولها اللغويون القدماء، وإن كانت غير معروفة بأسمائها عند المحدثين.

---

(١) الكهف ٢٣.

(٢) الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ج٤، ص٩٢.

(٣) الرعد ٧.

(٤) الرعد ١١.

(٥) النور ٤١.

(٦) الواقعة ٨٤.

(٧) ابن عقيل، عبد الله، شرح ابن عقيل، دار القلم، ١٤٠٧هـ، ج١، ص١٧.

الفصل الثاني:

ضوابط معيارية في تخريج اختلاف الدلالة

المبحث الأول

الدلالة الموضوعية

التفسير الموضوعي هو عبارة عن جمع آيات الموضوع الواحد، ودراستها، مع محاولة ترتيبها حسب النزول وأسبابه.

ومن أنجع الأساليب للنهوض بمهمة الكشف عن المقاصد هوالتفسير الموضوعي، الذي قيل فيه إن بذوره الأولى برزت في العهد النبويّ، عندما كشف النبيّ ـ عليه السلام ـ الغموض عن معنى الظلم في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(١) فشق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم: فقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أما سمعتم قول العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

ويعقب فضل عباس على ذلك بقوله: «أرى في هذا القول الكريم لفتة لضم آيات القرآن بعضها إلى بعض، حينما نريد فهمه وتفسيره»(٣).

ويرى الباحث أن تفسير النبيّ »الظلم«بالشرك ليس تفسيراً موضوعياً، وإنما هومن باب التجوّز؛ لأن من منهجية التفسيرالموضوعيّ استقصاء النصوص في جميع مواطن ورودها في القرآن الكريم، وعدم الاقتصارعلى لفظ أو لفظين، والأَوْلى أن يسمى تفسيراً بالمأثور.

---

(١) الأنعام ٨٢.

(٢) لقمان ١٣.

(٣) التفسير أساسياته واتجاهاته: ص٦٤٨.

والوحدة الموضوعية تشكل نقطة الارتكاز في التفسير الموضوعي، وقد عرّفها حسن محمد باجودة فقال: «المراد بالوحدة الموضوعية: أن يكون العمل الفنيّ متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك، بحيث إن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولايمكن حذف جزئية واحدة؛ لأن العمل الفنيّ يستغني عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها، وينبغي أن نقرر ابتداءً أن القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين: الفنية والدينية، وأن الناحية الفنية وسيلة دائماً للناحية الدينية، ويستحيل فصل الواحدة عن الآخرى»(١).

المطلب الأول: ضوابط الدلالة الموضوعية:

أولاً: جمع النصوص:

جمع النصوص القرآنية واستقراؤها ودراستها دراسة شمولية بما في ذلك أسباب

---

(١) باجودة، حسن محمد: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، دار الكتب الحديثة، دون سنة النشر، ص٢٥، ويبين محمد الدالي العلاقة بين الوحدة الفنية والوحدة العضوية فيقول: «والعلاقة بين الوحدة الفنية والوحدة العضوية كعلاقة الفرد بالمجتمع، والعضو بالجسد، فهي التي تربط بين الموضوع وعناصره، وبين الموضوع ووحدة المشاعر والانفعالات التي تنبعث منه، وبعبارة أخرى هي التي توجد الصلة بين طبيعة الموضوع والأثر الناتج عنه، فهي التي ترتب الأفكار وتنظمها، وهي التي توحي بالمثل والقيم، وهي التي تمد الخيال بالصور، وهي التي تنتقي الألفاظ والجمل، وهي التي تدعم المحاكاة والقصص بالرسم والتشخيص، والإيقاع الموسيقي، وهي التي تبعث الحركة والحيوية في الصراع والمحاورة، وهي التي تكسب العمل دلالة اجتماعية وتصبغه بالصبغة الموضوعية «الوحدة الفنية في القصة القرآنية، أمون للطباعة، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ـ ص٢٠٢، وفرق محمد الغزالي بين التفسير الموضعي والتفسير الموضوعي، فقال: «التفسير الموضعي يتناول الآية أو الطائفة من الآيات، فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام، وأما التفسير الموضوعي فيتناول السورة كلها، يحاول رسم «صورة شمسية» لها، تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيداً لآخرها، وآخرها تصديقاً لأولها «انظر الغزالي»، محمد: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، ط٢، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ص٥.

النزول وترتيب الآيات والسور حسب النزول ـ إن أمكن ـ فبه يعرف الناسخ والمنسوخ، والتدرج في التشريعات، ودراسة الفرق بين النجم وغيره من النجوم الأخرى، ودراسة كل نجم على حدة، مع مراعاة السياق الذي هو بمثابة البوصلة التي تحدد الاتجاه.

ثانياً: المكيّ والمدنيّ:

التفريق بين القرآن المكيّ والمدنيّ من حيث الخصائص التي ترشد إلى الاستدلال، لا سيما في الأحكام الشرعية والتدرج(١).

ثالثاً: البيئة:

دراسة البيئة ضرورية لمعرفة ملابسات آية قضية، وكما قال تعالى ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ»(٢)، ودراسة البيئة تخدم في القصص القرآني، فهذا شعيب ـ عليه السلام ـ أرسِل إلى مدين وأصحاب الأيكة ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾(٣) في حين لا يقال

---

(١) ومما لا يُتعدى عنه قضية التدرج في تحريم الخمر، فإن الناظر في آيات الخمر يدرك أن هناك تدرجاً في التربية لا في التشريع، فالآية الأولى قوله تعالى ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فإن ذا اللب يدرك من خلال وصف الرزق بالحَسَن، وعدم وصف السّكر بذلك، يدرك بأن السَّكر ليس حَسَناً، فأين التشريع من هذا؟ والآية الثانية قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أيضا هنا عقدت موازنة بين الإثم والمنافع مع بيان عظيم الإثم، ولم تتطرق الآية إلى منع جزئي أو كلي، ولكن الباحث يرى هنا أن وصف الخمر بالإثم الكبير فيه إشارة واضحة للتحريم، لأنه لا يعقل أن يسمع الصحابي بالإثم الكبير ـ وهم أهل اللغة ـ ويداوم على شربها، منتظراً «حرم عليكم» وهذا أيضاً تدرج ثان في التربية، ثم الآية الثالثة بدا التدرج التشريعي فيها واضحاً في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ النساء٤٣، ثم التحريم القطعي بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة ٩٠.

(٢) إبراهيم ٤.

(٣) هود ٨٤.

له «أخاهم» عندما يكون الأمر متعلقاً بأصحاب الأيكة ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[(١)] ومكانة شعيب الاجتماعية في رهطه كانت مانعاً من إيقاع الأذى به ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[(٢)]، بينما موسى ـ عليه السلام ـ لم تكن له عزوة في قومه، بل تربى غريباً ـ عند فرعون ـ مما أدى إلى تهديد فرعون له بالسجن والقتل ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[(٣)] و﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾[(٤)] ويحول فرعون ترجمة التهديد بالتنفيذ، وذلك عندما حاول اللحاق بموسى ومن معه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾[(٥)].

رابعاً: تحديد الموضوع وربطه بالماضي والحاضر:

تحديد الموضوع بدقة، ودراسة كل ما يتعلق به من مقدمات وقضايا وربط القضايا فيما بينها، مع الاطلاع على الأقوال المأثورة، ومحاولة ربط التفسير بالواقع الحالي حتى يكتسب التفسير الصبغة العلمية، ويشعر المسلم بفاعلية التفسير، وأنه ليس بمعزل عن الواقع الذي يعيشه،

وذلك لاستخلاص العبر والأبعاد المتصلة بالموضوع.

خامساً: اسم الموضوع:

يُستوحى اسم الموضوع من الآيات أوالسور المفسرة، كالصبر في القران، أو العدل في القران.

وأما الموضوعات المبسوطة في التفسير الموضوعيّ، فيمكن جمعها في القران الكريم

---

(١) الشعراء ١٧٦، ١٧٧.

(٢) هود ٩١.

(٣) الشعراء ٢٩.

(٤) غافر ٢٦.

(٥) طه ٧٨.

في التوحيد؛ ويتناول الإلهيات، والنبوات، والسمعيات، والفقه؛ ويتناول العبادات والمعاملات، والتوجيهات؛ وتشمل الأخلاق والمواعظ والقصص القرآني وعلاقة القران بأهل الكتاب.

المطلب الثاني: مناهج التفسير الموضوعي:

تختلف مشارب المفسرين الموضوعيين للقرآن، ولكنها لم تخرج عن مناهج ثلاثة، هي:

أ: اللفظة القرآنية:

يختارالمفسر لفظة معينة من القران ويستقرؤها في كل مواقعها من القرآن، بما في ذلك الاشتقاق والتصريف لهذه اللفظة، مع استنباط الدلالات، ويمثل هذا المحور الراغب الأصفهاني في مفرداته، وكتب الأشباه والوجوه والنظائر[١].

وتعترض هذا الاتجاه مشكلة تَوَحّد بعض الألفاظ القرآنية، بمعنى: أن ألفاظاً لم تتكرر في القرآن، ولا نظيرلها، ومن تلك الألفاظ «ضيزى، مدهامتان، أمشاج» وغيرها

ب ـ السورة القرآنية:

افترق الباحثون في هذه القضية فريقين:

فريق يرى أن الوحدة الموضوعية هي محور التفسير الموضوعي، فمهما تعددت القضايا في السورة الواحدة، فإن موضوعاً واحداً يجمعها.

وهذا رأي فيه نظر؛ لأن السورالقرآنية تتفاوت في الطول والقصر، ويمكن أن تتحقق الوحدة الموضوعية في سورة قصيرة ويصعب تحققها في سورة طويلة؛ لأن الوحدة

(١) منها: نظم الذخائر في الاشباه والنظائر، لشرف الدين عبدالرحمن ابن على المقدسي، والأشباه والنظائر للسيوطي، وغيرها.

الموضوعية قد تحققت في سورة القارعة التي انضوى تحتها قضية واحدة، وهي اليوم الآخر.

بينما يقول الفريق الثاني بالوحدة العضوية في السورة الواحدة، وإن تعددت القضايا في السورة. ومن السور التي تحققت فيها الوحدة الموضوعية سورة النمل، المبنية على العقيدة والعبادة، والعلم والحمد(١).

ج ـ الموضوع:

يجمع الباحث آيات الموضوع الواحد جمعاً استقرائياً، ثم يرتبها حسب النزول لمعرفة المتقدم والمتأخر، والمكيّ والمدنيّ، والناسخ والمنسوخ، ومحاولة التوفيق بين الآيات الموهمة التناقض أو التكرار، لا سيما في القصص القرآني، فمثلا يلوح في سورة طه، أن موسى ـ عليه السلام ـ سأل ربه ـ عزّ وجلّ ـ مجموعة من الأسئلة منها ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي *يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾(٢).

فاستجيب سؤله ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾(٣)، وفي موضع آخر يظهر فرعون ساخراً من موسى ـ عليه السلام ـ للحبسة التي كانت في لسانه وهو صغير ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾(٤).

---

(١) في بداية سورة النمل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ـ النمل ١٥ـ، علم مرْدَفٌ بالحمد، وفي وسطها ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ـ النمل٤٠ علم متبوع بشكر، وفي خاتمتها ﴿وقل الْحَمْدُ للهِّ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ـ النمل ٩٣ معرفة مشفوعة بحمد.

(٢) طه ٢٧، ٢٨.

(٣) طه ٣٨.

(٤) الزخرف ٥٢.

ففي هذه الحال، لابد من الجمع والتوفيق بين الآيات، حيث إن فرعون استهزأ بموسى على مجاز ـ علاقة ما كان ـ علمه القديم بحبسة لسان موسى عليه السلام ـ، ولا تناقض بين استجابة الله ـ عزّ وجلّ ـ سؤل موسى، وبين استهزاء فرعون.

ولا يُلْجأ إلى التوسع في الناسخ والمنسوخ لمجرد وهم التناقض.

المطلب الثالث: التناسب بين السور:

يشكل التناسب بين السور مناخاً خصباً وتربة صالحة للمفسرين، وقد أجاد برهان الدين البقاعيّ في تفسيره المسمى «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» بين فيه أهمية علم المناسبة، فقال: «فعلم مناسبات القرآن علم تُعرف منه عللُ ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرقة مقصود السورة المطلوبة ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو»[١].

ومنهجية البقاعي في تفسيره أن يبين مقصود السورة العام وغرضها الأساسي ثم يفسر البسملة ثم يفسر الآية بتجزيء الآية أجزاء، ويربط تلك الأجزاء، ثم يربط الآية بما قبلها وهكذا إلى آخر السورة.

وكذلك يربط بين السورتين المتتابعتين، كما فعل حين ربط بين سورتي القارعة والتكاثر، فبعد أن فسر سورة القارعة، أشار إلى أن سبب دخول النار هو خفة الموازين، ثم افتتح سورة التكاثر بالسبب الذي يورد الناس الهلاك، ألا وهو التكاثر[٢].

ومن الذين تعرضوا للربط بين السورتين الزمخشريّ، فقد ربط بين فاتحة سورة المؤمنون وخاتمتها[٣].

---

(١) نظم الدرر: ج١، ص٦.

(٢) نظم الدرر ـ ج٢٢، ص٢٢٥.

(٣) الكشاف: ج٣، ٢٠٩.

المطلب الرابع: من الدلالات الموضوعية في التفسير

أ: اسم السورة:

عقد بعض المفسرين أهمية على اسم السورة حتى طغى على موضوعها، ومن هؤلاء سيد قطب ـ رحمه الله ـ يغلب اسم السورة على موضوعها، فمثلاً في مقدمة سورة محمد يقول «هذه السورة مدنية، ولها اسم آخر اسمها سورة القتال، وهو اسم حقيقيّ لها، فالقتال هو موضوعها، والقتال هو العنصر البارز فيها، والقتال في صورها وظلالها، والقتال في جرسها وإيقاعها»(١).

مما لا شك فيه أن لاسم السورة أهمية، ولكنه لا يطفو فوق القضية المركزية، فقد يكون اسم السورة منتزعاً من مشهد من مشاهد السورة، ويشكل جزئية ضمن مجموعة من الجزئيات، فهذه سورة البقرة لم تُشَكل فيها قصة البقرة سوى تسع آيات، ثم إن أسماء السور توقيفيّ، وهناك بعض السور لها أكثر من اسم كالتوبة التي من أسمائها براءة والفاضحة(٢) ومحمد تسمى القتال، فأي اسم يعتمد في تحديد أهمية السورة؟

وأماعبد الله شحاته فإنه يقول: «بأن السورة تسمى بأغرب شيء فيها»(٣)، وهذا قول فيه نظر؛ لأنه إن كانت سورة النمل سميت بهذا الاسم نظراً لغرابة كلام النملة، فهذا ليس مبرراً مقنعاً؛ لأن النملة خاطبت بني جنسها، بينما كان كلام الهدهد أغرب؛ لأنه خاطب سليمان ـ عليه السلام ـ فلِمَ لمْ تسمّ السورة باسم سورة الهدهد؟

ب ـ محورالسورة:

يتطلب تحديد المحور والقضية الأساسية دراسة السورة بتأنٍ وتأملٍ، والمرة تلو

---

(١) في ظلال القرآن: ج٦ ـ ص٣٢٧٨.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تعليق: محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ١-٢٠٠١م ج١٠، ص١٩٤، ابن كثير: ج٢ ـ ص٣٨١.

(٣) شحاته، عبد الله: التفسير بين الماضي والحاضر، دار بوسلافة، تونس ـ دون سنة النشر ـ ص٣٢، ٣٣.

الأخرى، وأن يتعامل مع السورة بنظرة شمولية، وألا ينشغل المفسر بقضايا فرعية تشغله عن القضية المحورية، ولايعني هذا إهمال القضايا الجزئية أو الفرعية؛ لأن هذه القضايا الجزئية تشكل روافد تغذي القضية المحورية.

ج ـ المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة وبين السور:

والمناسبة هي الربط بين شيئين بأي وجه من الوجوه، وأما في القران فهو ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وارتباط الآية بسابقتها ولاحقتها من الآيات.

ويتعلق بالمناسبة اسم السورة ومحورها، وافتتاحيتها وخاتمتها، وخاتمة السورة وافتتاحية السورة التي تليها.

لو أمعِنَ النظرُ في افتتاحية سورة الممتحنة وخاتمتها، لوجد أن هناك تناسباً يوحي بأهمية استهلال السورة وخاتمتها، استهلال السورة بقضية غاية في الخطورة، وهي النهي عن موالاة الكفار، ، وذلك في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[١].

ولاعجب أن تختتم السورة بالقضية ذاتها، نظراً لخطورتها، ألا وهي عدم تولي الكفار، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

وأما خاتمة السورة وافتتاحية ما بعدها، فإنه يتمثل في خاتمة الأحقاف ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾[٣] وافتتاحية سورة محمد: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾[٤].

(١) الممتحنة ١.

(٢) الممتحنة ١٣.

(٣) الأحقاف ٣٥.

(٤) محمد ١.

وكأن سائلا يسأل من هم القوم الفاسقون؟ فيأتيه الجواب: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله...﴾.

ومما يتعلق بالمناسبة، تناسب آيات السورة الواحدة ـ وهو ما يسمى بالقراءة الرأسية للسورة، ففي سورة العلق بينت السورة أن سبب طغيان الإنسان متذبذب بين العلم والغنى، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[١].

فإن في هذه الآيات تناسباً يجسد سبب طغيان الإنسان، المحُصِورَ بين العلم والغنى، فمن الناس من يطغى بعلمه، ومنهم من يطغى بماله، ومنهم من يطغى بعلمه وماله؛ مثل قارون ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾[٢].

ولمقاطع السورة الواحدة والوحدة الموضوعية أهمية ترتبط بالمناسبة، فالناظر في السورة القرآنية يجدها مشتملة على عناصر مبثوثة على سطورها، وقد يتبادر إلى الذهن أن ليس بين هذه العناصر من رابط، ولكن بمزيد من التأمل يجد أن للسورة محوراً موضوعياً تلتف حوله العناصر كلها، ويدور حوله السياق.

فالمتأمل في سورة الكهف يدرك أن المحور الموضوعيّ للسورة التي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان العقيدة، فأما تصحيح العقيدة، فيقرره بدؤها وختامها، فالبدء ﴿ الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾[٣] والختام ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٤].

---

(١) العلق ٥ ـ٧.

(٢) القصص ٧٨.

(٣) الكهف ١ .

(٤) الكهف ١١٠ .

وهكذا يتساوق البدء والختام في إعلان الوحدانية، وإنكار الشرك، وإثبات الوحي، والتميز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث»[١].

د ـ المكيّ والمدنيّ، وأسباب النزول:

وقد تناولها الباحث في مبحث أهمية الدلالة عند المفسرين[٢].

هـ ـ المقاصد:

ويقصد بها الأهداف والغايات التي احتوتها السورة، وبالتالي فإنها تشكل موضوعاً واحداً في السورة.

---

(١) أبو حمدة، محمد علي، في التذوق الجمالي، سورة الكهف، دارعمار، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٠م، ص١١.

(٢)

المبحث الثاني

الدلالة اللغوية

تشكل الألفاظ لدى اللغويين بيئة خصبة ومناخاً ملائماً لدراساتهم، واتخذوا من الألفاظ منطلقاً لاكتشاف ما تحتويه هذه الألفاظ من كنوز، فكانت العلاقات الدلالية محور دراساتهم اللغوية، حتى تؤدي اللغة ما وقع على عاتقها من غايات سامية، باعتبارها لغة القرآن الكريم، الدستور الإسلاميّ الخالد، فاعتنوا اعتناءً شديداً بالألفاظ وأصولها، وتعدد المعاني للفظ الواحد، ويقابله تعدد الألفاظ للمعنى الواحد، فتناولوا بالبحث الأضداد والاشتراك، والحقيقة والمجاز، والخاص والعام، والمطلق والمقيد.

المطلب الأول: أحوال المتكلمين ـ المتحدثين ـ وتعابيرهم:

تناول ابن جنيّ الدلالة من عدة زوايا متمثلة فيما يلي:

أ ـ أثر الكلام والحركات في الدلالة:

يبين ابن جنيّ الحدث الكلاميّ أو أثرالكلام والحركات، فيقول: «ألا ترى إلى قوله تقول: وصَكــّــتْ وجهــَها بيمينها.... أبــْعلي هذا بالرّحى المُــتقاعِس».

فلو قال حاكياً عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس من غير أن يذكر صك الوجه، لأعلمنا بذلك أنها متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال فقال: «وصكت على وجهها» علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غيرمشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ويعظم الحال في نفسك تلك المرأة أبين(١).

---

(١) السابق: ج١، ص٢٤٨.

ب ـ أثر السياق في الدلالة:

كثيراً ما يتناقل الناس أمثالاً ويتداولونها فيما بينهم، ولا يدركون معناها؛ لبعدهم عن المناسبة التي ضرب فيها المثل.

وهذا يظهر جلياً في التفسير وما يلعبه سبب النزول في كشف المعنى، ويضرب ابن جنيّ المثل على دلالة السياق بالمثل القائل «رفع عقيرته»، والعقيرة هي الصوت، أي أنه رفع صوته، ولكن بعيداً عن السياق أو السبب يبقى المثل ميّتـاً لا روح فيه، فينقل ابن جنيّ قول أبي بكر بن السراج « بأنه لا يُؤمَن أن تكون هذه الألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها، ولم ندرِ ما حديثها، كقولهم «رفع عقيرته» إذا رفع صوته، فلو ذهبنا نستق لقولهم (ع ق ر) من معنى الصوت لَبَعُد الأمر جداً، وإنما هو أن رجلاً قطعت إحدى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأعلى صوته، فقال الناس: رفع عقيرته أي رجله المقطوعة»[(١)].

فالسبب الذي قيل فيه المثل والسياق منحت المثل دلالات لا يمكن أن يمنحها المثل بألفاظ مجردة أو بأصوات الألفاظ.

ج ـ الحال المشاهدة

«حدث غير كلاميّ» وهذا الأمر يبدو واضحاً في استخدام بعض الأساليب النحوية كالحذف، فينوب المذكور ويكشف عن دلالات الألفاظ، ويستدل ابن جنيّ على هذا بقوله «وكذلك قولهم لرجل مُهْوٍ بسيف في يده: زيداً، أي اضرب زيداً، فصارت شهادة بالفعل بدلاً من اللفظ به»[(٢)].

فالاكتفاء بذكر المفعول والاستغناء عن الفعل أعطى دلالة واحدة دالة على نفس العمل، فالحدث غير الكلاميّ سد مسد الحدث الكلاميّ.

---

(١) السابق: جا، ص٢٤٨.

(٢) السابق: ج١، ص١٦٤، ٢٨٤-٢٨٥.

وقد يكون التعبير بالإشارة، ويكون لها عظيم الأثر في التعبير، قال تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾(١) واللمز قد يكون باللسان أو بالعين أو بالإشارة أو غير ذلك، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٢) فالإشارة حدث غير كلامي.

فلو وقف على ألفاظ المثل القائل «رفع عقيرته» معجمياً، لوجد أن الدلالة المعجمية قاصرة عن الإفصاح، ولما أمكن الوقوف على دلالة السياق، فالعقيرة تعني الصوت، وهذا المعنى المعجمي عاجز عن تصويرالحال التي ضرب بها المثل، فلابد من الوقوف على دلالة السياق.

المطلب الثاني: الدلالة الصوتية:

كان للغويين المسلمين قصب السبق في دراسة الأصوات وصفاتها وتحديد مخارجها، ومن هؤلاء اللغويين الخليل وسيبويه وابن جنيّ، ثم جاء السكاكيّ ونقل هذه الدراسة نقلة نوعية محولاً إياها من الدراسة النظرية إلى الدراسة العلمية، وذلك برسمه رسماً تشريحياً يبين مخارج الحروف في الأصوات العربية، وتناول سيبويه في كتابه «أصوات الحروف» وما لها من تأثير وتغيرات تطرأ على الكلمة.

ويتفرع عن الدلالة الصوتية عند اللغويين الهمز والنبر والتنغيم.

فأما الهمز «فهو الضغط، ومنه الهمز في الكلام لأنه يضغط»، وأما النبر «فهو ارتفاع الصوت، يقال نبر الرجل نبرة، إذا تكلم بكلمة فيها علو»(٣).

ذكرلسان العرب: «قيل للرسول صلى الله عليه وسلم ـ يا نبيء الله ـ فقال له: لا

---

(١) الهمزة ١.

(٢) غافر ١٩.

(٣) ابن ذي الوزارتين، علي بن محمد بن أحمد بن مسعود، تخريج الدلالات السمعية ج١، ص١١٥، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي – بيروت ط٢، ١٤١٩.

تنبر باسمي؛ أي لاتهمز» وكذلك قال «إنا معشر قريش لا تنبر» وروي أن الكسائيّ صلى بالمدينة المنورة، فهمز، فأنكر أهل المدينة عليه، وقالوا: تنبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقران؟(١)

وبتغير موقع النبر في الجملة تتغير الدلالة، قال تعالى توبيخاً لمن اتخذ عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه إِلَهَيْنِ: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾(٢)، فإذا كان النبر على «أأنت» فإن المقصود الضمير المخاطب، وهو المسند إليه، ويقع الشك فيه، وإذا تغير موضع النبر وجعل على الفعل «قلت» فإن الدلالة انتقلت من المسند إليه إلى المسند، فإن الشك واقع في الفعل المسند القول.

ومن المحْدثين الذين أنكروا النبرعند القدماءعبد الرحمن أيوب «لم يحظ النبر باهتمام اللغويين العرب الأولين، ولذلك لم يصفه النحاة ولا علماء القراءات كماوصفوا السواكن والحركات»(٣).

وأما التنغيم فهو قرين النبر وهما دالان على المعنى، فالتغنيم معبرعن المعنى ودال

---

(١) هذه الروايات ذكرها ابن منظور دون أن يعلق عليها، ويرى الباحث رد هاتين الروايتين للأسباب التالية:

أولاً: ابن كثير المكيّ في قراءته النبر في الكلمات التالية « ضئاء، مناءة، ضئزى «، فكيف يقال إن قريشاً لا تنبر.

ثانياً: نافع قارئ المدينة ة يتربع رأس هرم القراء في الترتيب من الشاطبية والطيبة، وقراءته فيها نبر، فيقرأ «النبيء، النبيئين، النبوءة»، وأراد الكسائيّ ـ وهو من القراء المتواترة قراءتهم من الشاطبية والطيبة، ويعرف قدر الإمام نافع، أراد أن يهمز في المدينة كي لا يخالف قراءة أهل المدينة.

ثالثاُ: الحديث لم يقف عليه الباحث في كتب متون الحديث

وبناء على ما ذكر فإن الروايات قد خالفت قراءات متواترة.

(٢) المائدة ١١٦.

(٣) أيوب: عبد الرحمن: محاضرات في اللغة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦م، ص١٤٥.

عليه، ومن المتعلقات بالتنغيم الاستفهام، فقد يتضمن الاستفهام معنى التعجب، وهو ما يعرف بالتضام، وقد تعرض إلى الاستفهام ابن جني فقال: «لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب استحال خبراً، وذلك قولك: مررت برجل أي رجل، فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل ولست مستفهماً، وكذلك مررت برجل أيما رجل؛ لأن ما زائدة، وكقول الله ـ سبحانه ـ» أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله»[1]، إذا لحقته همزة التقرير عاد نفياً، أي ما قلت لهم ذلك[2].

فيصعب التفريق بين الاستفهام والتعجب إلا بالتنغيم والنبر.

والأداء القرآني لم يُعطَ حقه من الهمز والنبر والتنغيم، فيتساوى الأداء عند القارئ، وإن كان بعض القراء يلجأ إلى تغيير طبقات صوته، فما أحوجنا إلى مراعاة مقام السياق عند التلاوة، فمثلا خفض الصوت عند قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[3].

وتغيير النبر عند قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[4].

وقد يكون في النبرمخرجاً من قضية الحذف التي ينكرها البعض، فمثلاً قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ الله وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا۞ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهَشَهِيدًا﴾[5].

---

(١) المائدة ١١٦.

(٢) الخصائص، ج٣، ص٢٩٦.

(٣) طه ١٠٨.

(٤) الدخان ٤٩.

(٥) النساء ٧٨، ٧٩.

فكيف التوفيق بين هاتين الآيتين؟، ففي الأولى يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن الحسنة والسيئة من الله، وفي الثانية تشيرالآية إلى أن الحسنة من الله، والسيئة من نفسك «من الرسول».

فالمَخْرج من هذا الوهم إما بتقدير همزة استفهام محذوفة تفيد الإنكار، وإما بتغيير نبرة الصوت للدلالة على الاستفهام الإنكاري.

المبحث الثالث

ضابط التركيب النحوي

الحركات الإعرابية وما يلحق الألفاظ من تغيير تحمل في ثناياها دلالات ظاهرة أو خَفيـّة تشكل جانباً من جوانب الإعجاز، ولهذا لمح بعض المفسرين ملمحاً بلاغياً في تغيير حالة الإعراب في قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾(١) فقالوا: والتحول بها من النصب «سلاماً» إلى الرفع «سلام» على الابتداء، للدلالة على أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيّاهم بتحية أحسن منها، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾(٢)، فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أي: عليكم سلام، وعدل به إلى الرفع لقصد إفادة الجملة الاسمية للدوام والثبات، بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدّد والحدوث، ولهذا قال أهل المعاني: إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة(٣).

المطلب الأول: القرآن والتركيب النحوي:

حُقّ لهذا القرآن العظيم أن يبلغ الذروة في البلاغة، وهذا بإجماع أهل البلاغة والنقد.

وقد عرّف السكاكي النحو بقوله: «علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية وأعني بكيفية التركيب

---

(١) الذاريات ٢٥.

(٢) النساء ٨٦.

(٣) فتح القدير: ج٥، ص٨٧.

تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك»[١].

وهذا كلام يأخذ بناصية الباحث للكلام عن الاستشهاد بالشعر، فلا تخفى منزلة سيبويه التي أهّلته أن يكون إمام النحو، وما نال كتابه «الكتاب» من الاهتمام والعناية حتى غدا أصلاً لأصول النحو على اختلاف المذاهب.

ولكن الناظر في كتاب سيبويه «الكتاب» يلحظ زهده في الاستشهاد بالقرآن الكريم، قياساً إلى استدلاله بالشعرالعربي وكلام العرب، وأما النحو والمعنى عند سيبويه فإنهما متلازمان، والمطالع لكشاف الموضوعات في كتاب سيبويه يوقن بهذا التلازم.

ولعل أشهرمن كتبوا وصنفوا في الإعراب من القدماء الفراء وابن جنيّ، فالفراء صاحب كتاب «معاني القرآن»، والذي يُستشَف من عنوان كتابه الصلة الوثيقة بين المعنى واللغة، ووضع فيه قوانين اللغة وعلل الإعراب، ويُثمّن جهده في جعل القرآن أصلاً لتلك القوانين والعلل[٢].

ومن الأمثلة في كتاب الفراء عندما فرق بين «بلى ونعم» فقال: وضعت بلى لكل إقرار أوله جحد، ووضعت نعم للاستفهام الذي لا جحد فيه، وبلى بمنزلة نعم، إلا أنها لا تكون إلا لما في أوله جحد، وبلى لا تصلح جواباً لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ ولا تصلح نعم جواباً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

---

(١) السكاكي، محمد بن علي: مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠، ٢٠٠٠م، ج١، ص٣٣، وقال الرازي: « إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول منقول عن قائل مجهول، فلأن يجوز إثباتها بالقرآن العظيم، كان ذلك أولى.... وكثيرا ما أرى النحويين يتحيرون في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهول فرحوا به، وأنا شديد التعجب منهم، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلا على صحته، فلأن يجعلوا ورود القرآن به دليلاً على صحته كان أولى، انظر التفسيرالكبير: ج٩، ص٥٧.

(٢)

وقد دأب اللغويون والنحويون والمفسرون على هذه القاعدة، وهي أن بلى جواب لجحود، ونعم جواب لإثبات، وفي هذا السياق، فإن آية في سورة الزمر قد استوقفت الباحث، وهي قوله تعالى: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[١]، ولم يسبقها حجود[٢].

وللقرآن الكريم أسلوب من النحو استوعب الأساليب العربية كلها، ولا ادل على ذلك من القراءات المتواترة التي غطت اللهجات العربية كلها، ولم ينكرأساليبَه العربُ المعاصرون لنزول القرآن، والمُتَحدَّوْنَ به، فضلاًعن أنه منقول إلينا بالتواتر، قطعيّ الدلالة، قطعيّ الثبوت.

وعلى هذا، فإنه يتحتم على النحويين أن يبنوا قواعدهم النحوية على ضوء ما جاء به القرآن،

وهذا يقود للحديث عن القياس في النحو، وموقف العلماء منه، وأيهما الأصل قواعد النحو أم القرآن الكريم؟

وهذا ما يتضح أمره في المطلب التالي.

---

(١) الزمر ٥٩.

(٢) وكذلك الحديث التالي: «عَنْ أَبِي قَيْسٍ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَجُلاً يَقْرَأُ آيَةً مِنْ الْقُرْآنِ فَقَالَ مَنْ أَقْرَأَكَهَا قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَقَدْ أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَذَهَبَا إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَحَدُهُمَا يَا رَسُولَ الله آيَةُ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ قَرَأَهَا فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَكَذَا أُنْزِلَتْ فَقَالَ الْآخَرُ يَا رَسُولَ الله فَقَرَأَهَا عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَلَيْسَ هَكَذَا يَا رَسُولَ الله قَالَ هَكَذَا أُنْزِلَتْ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

والشاهد في الحديث أن الرسول ـ عليه السلام ـ سئل بسؤال فيه جحود، ولم يجب ببلى، ولكنه أجاب هكذا. إلا أن يكون الجواب مضمراً، أي: بلى هكذا.

وأما آية الزمر فقد يكون أيضاً إضماراً لسؤال فيه جحود بتقدير ألم تأتك آياتي.

المطلب الثاني: القرآن والقياس:

أعمل بعض النحويين فكرهم وأسسوا منهجهم على شعر العرب في الجاهلية وكلامهم، وجعلوه الأصل المقيس عليه وغيره مقيساً؛ أي أن النحو أصل والقرآن فرع، ولم يجدوا حرجاً في أنفسهم من التصريح بأن في القرآن ما يخالف هذا الأصل ـ القياس ـ، ومن لم يتجرأ على التصريح بهذا فإنه قد لمّح إلى هذا، ومن هؤلاءالنحاة:

سيبويه: عندما تناول قوله تعالى ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾[١] قال: فإن ما جاء في القرآن وهو قوله تعالى ﴿ما هذا بشراً﴾ مخالف للقياس.

وقوله تعالى ﴿والسارق والسارقة﴾ و﴿الزانية والزاني﴾ قال: وقد قرأ أناس والسارقَ والسارقَةَ، والزانيةَ والزاني، وهو على ما ذكرت من القوة، ولكن أبت العامة إلا القراءة بالرفع[٢].

عجباً لسيبويه كيف ينكر قراءة العامة المتواترة ويبني قياسه على قراءات شاذة، وبيان ذلك: من قرأ والسارق والسارقة بالفتح هماعيسى بن عمر وابن أبي عبلة، وهما ليسا من العشرة ولا من القراء الأربعة الشواذ المشهورين[٣].

وأما قراءة «والزانية والزاني» بالفتح أيضاً فهي قراءة غير متواترة، قرأ بها عيسى الثقفي ويحيى بن يعمر، وعمرو بن قائد وأبو جعفر وشيبة وأبو السمال ورويس[٤].

وقراءة الرفع لم يقرأ بها إلا ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهي قراءة تفسيرية، وليست

---

(١) يوسف٣١.

(٢) الكتاب: ج١، ص١٤٤.

(٣) مختار، أحمد ورفيقه: معجم القراءات القرآنية، مطبوعات جامعة الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ج٢ ـ ص٢٠٨، والأربعة الشواذ هم اليزيدي وابن محيصن والحسن البصري والأعمش.

(٤) المصدر السابق: ج٤، ص٢٣٤، ولم أقف على هذه القراءة «أبي جعفر ورويس» في الطيبة ولا في الدرة.

تعبدية، فعجب والله قوله، كيف ينصرف عن قراءة متواترة إلى قراءة شاذة ويقيم عليه أصلاً، فالقرآن أصل، وغيره فرع، القرآن مقيس عليه وغيره مقيس.

وقد رد ابن حزم ـ رحمه الله ـ (ت ٤٥٦ هـ) على النحاة الذين يردون بعض القراءات، لمخالفتها القياس بزعمهم، ثم هم يثبتون اللغة بما هو دون القراءة، فقال: «ولا عجب أعجب ممن إن وجد لامرئ القيس (ت نحو ١٣٠ - ١٨٠ ق. هـ)، أو لزهير (ت ١٣ ق. هـ)، أو لجرير (ت ١١٠ هـ) أو الحطيئة، أو الطرماح (ت نحو ١٢٥ هـ)، أو لأعرابيّ أسديّ، أو أسلميّ، أو تميميّ، أو من سائر أبناء العرب بوّال على عقبيه، لفظاً في شعر، أو نثر، جعله في اللغة، وقطع به، ولم يعترض فيه، ثم إذا وجد لله تعالى خالق اللغات وأهلها كلاماً لم يلتفت إليه، ولا جعله حجة، وجعل يصرفه عن وجهه، ويحرفه عن مواضعه، ويتحيل في إحالته عما أوقعه الله عليه، وإذا وجد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلاماً فعل به مثل ذلك»(١).

المطلب الثالث: الاستدلال بالشعر:

للعلماء في هذه المسألة آراء، ففريق أنكرالاستدلال للقرآن بالشعر لسببين؛ الأول: ذم الشعر والشعراء في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾(٢)، نافياً عن رسوله الكريم الشعر، وأنه لايليق بمقامه النبويّ، وكذلك قوله تعالى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾(٣)، مستثنياً من هؤلاء المؤمنين، ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

---

(١) ابن حزم، علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ج٣، ص١٠٨.

(٢) يس ٦٩.

(٣) الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

وعارض فريق هذه القضية من زاوية أخرى، وهي أن الاستدلال بالشعر يجعل الشعر أصلاً للقرآن.

وفريق ثالث رأى أنه لابأس من الاستدلال للقرآن بالشعر، وأن ذلك لايجعل الشعر أصلاً للقرآن، معتمدين في ذلك على آثار نقلت عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ منها:

ما روي عن عمر بن الخطاب و ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ «الشعر ديوان العرب»[١].

ونقل السيوطي في كتابه الإتقان مسائل ابن الأزرق[٢] مع ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

«بينما عبد الله ابن عباس جالس بفناء الكعبة، فقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لاعلم له، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال

---

(١) الإتقان: ج١، ص٤٣٣، انظر: البرهان: ج١، ص٣٦٨، وقال سعيد بن المسيب ـ رضي الله عنه ـ: « بينما عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على المنبرقال: أيها الناس: ما تقولون في قول الله عزوجل: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، فسكت الناس، فقال شيخ من بني هذيل: هي لغتنا يا أمر المؤمنين، التخوف: التنقص، فخرج رجل فقال: يافلان، مافعل دينك؟ قال تخوفته، أي تنقصته، فرجع فأخبر عمرفقال عمر: أتعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكه واكتنازه.

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر: أيها الناس: عليكم بديوان شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم ـ روح المعاني: ج٨، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) الإتقان: ج١، ص٤٣٣.

ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ فقال العزون: حلق الرقاق،

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونا حول منبره عزينا

ثم ساق بقية الأسئلة[١].

وإنكار الاستدلال للقرآن بالشعرغلو، فالأمر ليس كما يظنه البعض بأن يـُجعلَ الشعرُ أصلاً للقرآن، ولكن الشعر العربي قبل الإسلام كان رمزاً للفصاحة والبلاغة، وكانت تعقد له الأسواق، فلسانهم عربيّ مبين، ونزل القرآن بلغة عربية مبينة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

والمفسرون منهم المكثر ومنهم المقل في الاستشهاد بالشعر للتدليل على حجة رأيه.

---

(١) شكك د. مصطفى عليان في مسائل ابن الأزرق مع ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لعدة أسباب منها: ضعف الروايات، واختلاف عدد المسائل، فعند الطبراني ست وثلاثون مسألة، وعند السيوطي مائة وتسع، بينما هي عند ابن الطسي مائتان وخمسون، وكذلك «ومما يزيد في احتمال نحل هذه المسائل على ابن عباس وضعف دلالتها على منهجه في تفسير غريب القرآن أن أجوبة بعض الأسئلة منها، بعيدة عن قصد السؤال وغايته، أنه سئل عن «حمأ مسنون» قال: الحمأ: السوداء وهو الثاط أيضاً، والمسنون: المصور. قال: فهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت حمزة بن عبد المطلب وهو يمدحه عليه السلام:

أغر كأن البدر سنة وجهه جلا الغيم عنه ضوؤه فتبددا.

فالسؤال عن صفة الطين المخلوق منه الإنسان، والجواب عنه صورة تشبيهية لجمال الوجه، بياضه ونقائه.

انظر: عليان، مصطفى: نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده ـ «فصل الشواهد الشعرية»، ص١٩٠ـ١٩١.

المطلب الرابع: تركيب الجملة في القرآن الكريم:

النحوعبارة عن أصول وقواعد تضبط الجملة، وهي ترتيب مألوف يقتضي ورود إحدى الكلمتين أولاً ثم الأخرى ثانياً، كالمبتدأ والخبر، والفعل والفاعل، وأدوات الصدارة، ويسمى هذا الترتيب «قرينة الرتبة» أو «الرتبة المحفوظة» وهذه الرتبة لا إشكال فيها، ولكن قد يخرج تركيب الجملة عن ترتيبه المعهود إلى رتبة أخرى أو قرينة تسمى «الرتبة غير المحفوظة» وهذه الرتبة تتعدد صورها أو أشكالها، فمنها:

أولاً: ما يتعلق بالضمائر:

أ ـ عودة الضمير إلى أقرب مذكور:

دأب النحويون على إرجاع الضمير إلى أقرب مذكور، ولكن هذا أمر غير مطرد في القرآن، فأحياناً تضطرب القاعدة، ولا يعود الضمير إلى أقرب مذكور، وضابط ذلك السياق، كقوله تعالى: ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾(١) فالضمير في «أكله» غير عائد على أقرب مذكور وهو «متاعنا» فالسياق يأبى ذلك، وإنما يعود الضميرعلى يوسف.

ب: تكرار الضمير لاتساع المسافة وقصرها:

قد تتسع المسافة بين الضمير والضمير، فيتكرر ذكرالضميرلاتساع المسافة ومخافة النسيان، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢) فتكرر الضمير في «بعضهم» و«سيرحمهم».

---

(١) يوسف ١٧.

(٢) التوبة ٧١.

وأما تكرار الضمير لقصر السافة لغاية التأكيد، فكقوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

ج ـ حذف المرجع:

المرجع هو ما يعود عليه الضمير، فإذا كان يصلح أن يكون مرجعاً، وإلا حذف المرجع، وتدل عليه قرينة السياق إذا أمن اللبس، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾(٢)، فالضمير في «ظهرها» ليس له مرجع مذكور، ولكن قرينة السياق «الدابة» تبين أن الدابة تدب على الأرض، فالمرجع محذوف وهو «الأرض».

ويحذف المرجع لبعد المسافة بين الضمير والمرجع، ويتمثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْإِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاوَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوافَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا*وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوابَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾(٣).

فالمرجع هوالمرأة والبعل، فطالت الشقة بين المرجع وذكره، فاستغني عنه بذكر الضمير.

د: الالتفات:

وهو الانتقال من صيغة ضمير إلى صيغة أخرى، كقوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر

---

(١) المائدة ١١٨.

(٢) النحل ٦١.

(٣) النساء ١٢٨ ـ ١٣٠.

﴿فصل لربك وانحر﴾[١]، فاستخدم ضمير المتكلم «نا» في قوله ﴿إنا أعطيناك﴾ الدال على العظمة، ثم انتقل إلى ضمير المخاطب «ك» في قوله «لربك»، فلو استخدم ضمير المتكلم «نا» المستخدم غالباً في الدلالة على جماعة المتكلم، فبذلك يظن المشركون أن هناك تعدداً للآلهة، فالتفت إلى ضمير المفرد المخاطب «لربك» لإفراد الوحدانية في العبادة.

هـ: حذف الضمير المتصل:

نحو ياء الإضافة في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢]، وياء المفعول في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾[٣].

و: اختلاف مدلول الضمير:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾[٤] «قل» ضماناً لإفهام أن ما بعد «الأمر» الثاني مطلوب قوله، وبخاصة لعدم اشتمال هذا الجزء من الآية على ضمير يعود على ما قبل الفعل، ليربط الجزئين، كأن يقال مثلاً: الله أذن لكم به، وهكذا أغنى عن التكرارعن الضمير الرابط[٥].

ز: زيادة الضمير:

وهذا متعلق بضميرالشأن، كقوله تعالى ﴿وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يوقنون﴾[٦]، فالضمير «هم» زائد للتوكيد

---

(١) الكوثر ١، ٢.

(٢) طه ١١٤.

(٣) هود ٧٦.

(٤) يونس ٥٩.

(٥) البيان في روائع القرآن: ص١١٤.

(٦) النمل ٣.

ثانياً: ما يتعلق بالألفاظ:

وهو تكرار الألفاظ لغايات منها:

أ: تكرار اللفظ لتأكيد المعنى ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حكيم﴾[1]، فتكرار لفظ الجلالة للتأكيد.

ب: تكرار اللفظ لاتساع المسافة بين الألفاظ مخافة النسيان، كقوله تعالى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2]، فتكرر لفظ «المنافقون» في أول الآية وفي نهايتها.

ج ـ التماثل: وهذا أمر يتعلق بالأسلوبية، فقد عزا تمام حسان التماثل إلى أمور ثلاثة:

أولاً: الفاصلة:

فقال «وثمة نوع آخر من عدم حفظ الرتبة لإيفاء مطالب أسلوبية من رعاية فاصلة أو غير ذلك، في قوله تعالى: ﴿فريقاً تقتلون وَتأسرون فريقاً﴾[3] هو «وفريقاً تأسرون» ولكن رعاية الفاصلة آثرت حفظ الرتبة في النهاية بعد أن لم تحفظها في البداية».

ولو تماثلت الآيتان في سورتين متباعدتين كالبقرة والنساء، فإن تمام حسان يعزو ذلك أيضاً للفاصلة في قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلًا﴾[5].

---

(١) التوبة ٧١.

(٢) التوبة ٦٧.

(٣) الأحزاب ٢٦.

(٤) البقرة ٨٨.

(٥) النساء ٤٦.

ثانياً: كسر الرتابة في الأسلوب وإتقاء الملل: كما في تحوير التركيب بين الاسمية والفعلية في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ..... * وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾(١).

ثالثا: ترتيب الأشباه:

أ ـ «ولقد اختار الأسلوب القرآني أن يبني التقديم والتأخير على مبدأ القِصَر والطول، فما كان من أفراد الطائفة قصيراً كان أولى بالتقديم مما هو أطول منه، كما في قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾(٢)، فقد اشتملت هذه الآية على صفات ثلاث تتفاوت في القِصر والطول، فابتدأت بأقصرها «مؤمن» لإفرادها، ثم جاءت الصفة «من آل فرعون» ثم ختمت بجملة «يكتم إيمانه»(٣).

ب ـ تكرار اللفظ إذا أمن اللبس: كقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٤) تكرار لفظ الجلالة «الله» ولا يمكن استبدال اللفظ الثاني بالضمير «وهو»؛ لأن غموضاً يكتنف الآية، فتصبح جملة «وهو العزيز الحكيم» جملة حالية؛ لأن الجمل بعد المعارف أحوال، ولتعلق النكال بعزة الله وحكمته.

هـ ـ تكرار اللفظ لاختلاف المدلول:

قال تعالى: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥)، تكرر لفظ «الملك»

---

(١) النساء ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) غافر ٢٨.

(٣) بيان روائع القرآن: ص٩٨.

(٤) المائدة ٣٨.

(٥) آل عمران ٢٦.

وكذلك لفظ «تشاء» وكل لفظ مدلوله مختلف عن مدلول اللفظ المكرر.

فلفظ «الملك» الأولى متعلقة بملكوت الله عز وجل، والثاني متعلق بملك ممنوح، والثالث متعلق بملك منزوع، ثم لفظ «تشاء» الأول مرتبط بالملك الممنوح المعطر بالعز، والثاني ممزوج بالذل لملك منزوع.

و ـ التعويض بالضمير عن تكرار اللفظ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

استعاض بالضمير «لهم» عن تكرار الألفاظ السابقة كلها، لأن التكرار غير مستساغ هنا.

ثالثاً: الموافقة في العدد:

الأصل في الرتبة المحفوظة أن يطابق العدد فعله، ولكن خرجت آيات عن هذه المطابقة، كأن يكون ضمير الفعل مؤنثاً، والفعل مذكراً، ومن تلك المخالفة:

قال تعالى ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٢]، فالفعل «قالتا» مؤنث مثنى، والحال مذكر جمع «طائعين»[٣].

---

(١) الأحزاب ٣٥.

(٢) فصلت ١١.

(٣) هناك ألفاظ لها دلالة الإفراد والتثنية والجمع، ومن تلك الألفاظ:
الخصم، الفئة، الطائفة، الفرقة– قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ ـ الحج ١٩
وقال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ «ص» ٢١ =

رابعاً: الحذف:

ويشمل:

١ : حذف الخبر: قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾[١].

٢ : حذف الفعل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[٢]، وتقديره واعتنقوا الإيمان.

٣ : حذف المبتدأ: قال تعالى ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[٣]، والتقدير «هذا ذكر رحمة ربك».

٤ : حذف المضاف: قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[٤]والتقدير «واسأل أهل القرية».

٥ : حذف الموصوف: قال تعالى ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾[٥]، أي: اعمل دروعاً.

= فالخصم في الآية الأولى حملت دلالة المثنى ولكن فعلها جاء جمعاً، وفي الآية الثانية حمل لفظ « الخصم» دلالة الإفراد، وجاء فعلها جمعاً.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَافَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله ﴾ الحجرات ٩.

ففي الآية لم يتطابق لفظ «طائفتان» مع الفعل «اقتتلوا» فكان اللفظ مثنى وفعله جمعاً، ثمّ تم التطابق في الإفراد بين لفظ إحداهما والتي وكذلك من حيث التأنيث.

(١) الرعد ٣٥.

(٢) الحشر ٩.

(٣) مريم ٢.

(٤) يوسف٨٢.

(٥) سبأ ١١.

٦: حذف المفعـول: قال تعالى: ﴿وَقَالُـوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْـرَانَـكَ رَبَّنَا وَإِلَيْـكَ الْمَصِيرُ﴾[١].

والتقدير «سمعنا قولك وأطعنا أوامرك».

٧: الحذف خشية الإطناب: ويظهر هذا الأمر في القصص القرآني، فكثيراً ما تحذف التفاصيل من القصة القرآنية، كما في سورة النمل، عندما أسقط تفاصيل استعداد مجيء ملكة سبأ إلى سليمان ـ عليه السلام ـ، وما واجهها في الطريق قبل الوصول إليه.

والمعنى يدل على المحذوف في كل ما تقدم من الحذف.

٨: حذف الفعل الناسخ: قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾[٢]، وتقديره يكون العذاب.

٩: حذف الحرف: وهو على ضربين، حذف من بنية الكلمة وحذف لأجل الرسم القرآني، فأما الحذف من بنية الكلمة فيكون بحذف ياء الإضافة من المنادى «يا قوم» و «يا رب»، وكذلك حذف ياء الضمير، ضمير المفعول، كقوله تعالى ﴿فلا تفضحون﴾.

وأما الحذف لأجل الرسم فكقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة﴾[٣].

حاول بعض العلماء إيجاد تعليلات لبعض ما حذف رسماً، ومن هؤلاء محمد أبو شهبة الذي علل حذف الألف من الفعل «سعوا» في قوله تعالى ﴿والذين سعو في آياتنا معاجزين﴾[٤].

---

(١) البقرة ٢٨٥.

(٢) مريم٧٥.

(٣) العلق ١٨.

(٤) سبأ ٥.

فقال: للإشارة إلى أنه سعي بالباطل لايصح أن يكون له ثبات في الوجود، وأنهم لن يحصلوا منه على طائل.

أما حذف الحروف العاملة كنزع الخافض وغيره، فيرجأ الحديث عنه إلى المبحث الرابع من الفصل الثالث ـ مبحث التضمين ـ إن شاء الله تعالى.

١٠: الافتقار:

وهو افتقار وحاجة فعل التسوية إلى فعل يقابله، وافتقار الأداة الجازمة الى فعل مجزوم، وفعل الشرط إلى جواب، ومن الأمثلة على ذلك:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾(١)، ففعل التسوية المحذوف «ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢) «لما» حرف جزم افتقر إلى فعل مضارع مجزوم، وتقديره «لما يوفوا».

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣)، إذا: أداة شرط غير جازمة تحتاج الى فعلين، فجملة «قيل لهم اتقوا» في محل جزم فعل الشرط، وهو مفتقر الى جواب الشرط وتقديره «أعرضوا».

---

(١) الحديد ١٠.

(٢) هود ١١١.

(٣) يس ٤٥.

المطلب الخامس: الترخيص في الإعراب:

ويتضمن هذا المطلب المسائل التالية:

أ ـ الترتيب:

لا يعني العطفُ بالواو الترتيبَ دائماً، فهناك آيات لم تلتزم الترتيب الزمني، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾(١)، فمعلوم تاريخياً أن الصابئين قبل النصارى.

ب ـ الإعراب:

خرجت بعض الآيات عن الرتبة المحفوظة في الإعراب، فالواوعاطفة وما بعدها تابع لما

قبلها، ومن تلك الآيات قوله تعالى ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾(٢).

فكل من «المؤمنون والمؤتون الزكاة» معطوف على «الراسخون» وتوسطت تلك المعطوفات «المقيمين الصلاة» التي خرجت عن الرتبة المحفوظة في الإعراب، وذلك بنصبها على الاختصاص أو المدح.

ج ـ الحمل على الجوار:

---

(١) البقرة ٦٢، ومن الآيات التي خرجت عن الترتيب قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ ـ النساء١٦٣، ولا يخفى أن عيسى عليه السلام متأخر عن أيوب ويونس وهارون وسليمان ـ عليهم وعلى نبينا السلام ـ.

(٢) النساء ١٦٢.

وهو المناسبة الصوتية بين الكلمة والتي تجاورها كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾[١]، قرأها أبو جعفر «للملائكةُ» بالضم لمناسبة الضمة مع جارتها الضمة في «اسجدوا».

د ـ الادغام الكبير:

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[٢] فلفظ «تأمنا» أصله تأمننا وهو فعل مضارع لم يسبق بجازم حتى تدغم النون في النون؛ لأن «لا» نافية وليست لا ناهية، فالسياق يأبى النهي.

وبعد، فإن الإعراب يؤدي دوراً مهماً في إدراك معاني الكلمات، يقول عبد القاهر الجرجانيّ في ذلك: «إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها»[٣].

---

(١) البقرة ٣٤.

(٢) يوسف ١١.

(٣) دلائل الإعجاز ـ ص٨٧.

المبحث الرابع

ضابط القراءات القرآنية

شرف القراءات القرآنية شرف لايدانيه شرف، فقد استقى هذا الشرف وعلو المنزلة بتعلقه بمنهل العلوم ورأسها؛ القرآن الكريم، فلم يحظ كتاب بما حظي به.

فالقراءات معين لاينضب، لايزال يتطلع إلى من يستبطن أسراره، مفتقراً إلى المزيد من العناية والدراسة، لإمداد اللغة بروافد تعين على فهم متجدد للقرآن الكريم.

وثمة مسائل لابد من التنويه إليها قبل طرح ضابط القراءات على بساط البحث، وهي:

أ: غالباً ما يتخذ الباحثون رواية واحدة من الروايات المتواترة، مثل رواية حفص عن عاصم، ويجعلونها منطلقاً لدراساتهم واستنباطاتهم، لاسيما دراسات الإعجاز القرآني.

ب: الترجيح بين القراءات المتواترة:

القراءات المتواترة خرجت من مشكاة واحدة، وتكمن فيها أسرار وأسرار، فإن ظهر لنا سر من أسرارها وخفي علينا سر، فهذا لايعني رد قراءة أو ترجيح أخرى عليها، ولا يعني الأفضلية، فقد رد بعض المفسرين والنحويين قراءات متواترة، ورجحوا بعضها على بعض[1]، وكان سبب رد النحـْويين أن تلك القراءات خالفت المقاييس النحوية.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ج٥، ص٤، تفسير قوله تعالى ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ وأقوال النحويين في قراءة «والأرحامِ» بالخفض، قال القرطبي: فأما البصريون، فقال رؤساؤهم: هو لحن لاتحل القراءة به، وأما الكوفيون، فقالوا: هو قبيح، ولم يزيدوا على هذا، ولم يبينوا علة قبحه، قال النحاس: فيما علمت، وقال سيبويه: لم يعطف على المضمر المخفوض، لأنه بمنزلة التنوين، والتنوين =

وسيتخذ الباحث من الطبري نموذجاً على الرد والترجيح بين القراءات المتواترة.

ج ـ الوقف والابتداء:

شأن الوقف والابتداء شأن آيات الأحكام، حيث يصعب حصرها؛ لأن المسألة الواحدة يمكن تفريعها إلى أكثر من مسألة، ومن الآمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا﴾[١]، فلو وقفنا على قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فهذا يعني تفضيل نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفضيلاً مطلقاً بلا قيد ولا شرط، ولو وقفنا على قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ لأصبح التفضيل مقيداً بالتقوى[٢].

وينقسم هذا المبحث إلى مطالب ثلاثة هي:

= لايعطف عليه.

(١) الأحزاب٣٢.

(٢) ومن الأمثلة على الوقف والابتداء قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ القصص٢٥، فمن المعاني الجميلة التي نرصدها عند تغير موضع الوقف هو الجمع بين استحياءين، استحياء في المشي واستحياء في والقول، تغيير مكان الوقف، فلو وقفنا على قوله تعالى ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، لكان الاستحياء في المشي، ولو ابتدأنا من قوله تعالى ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ﴾ لكان الاستحياء في القول، ومما لاشك فيه أن ابنة الرجل الصالح جمعت بين الحسنيين ـ الاستحياء في المشي والقول ـ والحياء شعبة من شعب الإيمان، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ دِينٍ خُلُقٌ وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ» الموطأ: باب ما جاء في الحياء، ص٧٨٩.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ الأنعام ٧٤ـ الوقف على كلمة «آزرَ» على أنها بدل مطابق من «أبيه» ممنوع من الصرف، وإذا ابتدأنا القراءة من قوله تعالى ﴿آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ يكون «آزرُ» منادى مبني على الضم، وهذه قراءة يعقوب، وهي متواترة من طريقي الطيبة والدرة.

المطلب الأول: أنواع القراءات من حيث السند:

اختصت هذه الأمة من دون سائر الأمم بعلم الجرح والتعديل ـ سنداً ومتناً ـ، وهذا العلم ليس مقتصراً على الحديث ورجاله، وإنما يشمل أيضاً القراءات القرآنية.

وعرّف ابن الجزري القراءة بقوله: «علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزو لناقله»(١).

وأما القراءات من حيث السند فهي:

أ: القراءة المتواترة:

هي القراءة التي رواها جمع عن جمع لايمكن تواطؤهم على الكذب من مبدئها إلى منتهاها(٢).

ب ـ قراءة الآحاد:

وهي قراءة صح سندها، إلا أنه لم يبلغ حدّ التواتر، ولم يشتهر سندها، إلا أنه اختل أحد الركنين الباقيين، وهما الرسم العثمانيّ أواللغة العربية، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾(٣)، بفتح الفاء «أنفَسكم»، قرأها أبوعمرو ومحبوب وعبد الله بن

(١) ابن الجزري، محمد بن محمد: النشر في القراءات العشر، دار الفكر، دون سنة النشر ورقم الطبعة، ج١، ص٤٦.

(٢) سبّع ابن مجاهد القراءات، وهي السبعة التي جمعها الشاطبي في نظمه الموسوم «بحرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع»، ثم أضاف ابن الجزري ثلاثاً، وهي: قراءة أبي جعفر، ويعقوب الحضرمي، وخلف العاشر، وسمى تلك الثلاث بـ«الدرة المضية في قراءات الأئمة الثلاثة المرضية»، وتسمى الشاطبية والدرة بالعشر الصغرى، نظراً لقلة طرقها.

وجمع ابن الجزري القراءات العشر ـ من طريق الطيبة ـ في منظومته المسماة بـ«طيبة النشر في القراءات العشر»، وتسمى العشر الكبرى نظراً لكثرة طرقها.

(٣) التوبة ١٢٨.

قسيط ويعقوب وفاطمة وعائشة وابن عباس وأبو العالية والضحاك وابن محيصن وابن عليه والزهري[١].

ج ـ القراءة الشاذة:

وهي ما اختل فيها ركن من أركان القراءة المتواترة، وهي: التواتر، وموافقة اللغة العربية ولو بوجه، وموافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً.

وهناك أربع قراءات شاذة ـ على وجه الخصوص ـ وافقت اللغة العربية والرسم العثمانيّ، إلا أنها لم تصح سنداً[٢].

---

(١) معجم القراءات القرآنية: ج٨، ص٥٤، انظر: ابن خالويه: مختصر في شواذ القرآن ـ ص٥٦، انظر: الدمياطي، أحمد بن محمد: اتحاف فضلاء البشر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ص٣٠٨.

(٢) أصحاب القراءة الشاذة هم:

أ ـ ابن محيصن، محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي « ١٢٣هـ» كان له اختيار برأيه في القراءة خرج به عن إجماع أهل بلده، فرغب الناس عن قراءته، وأجمعوا على قراءة ابن كثير، ومن قراءته الشاذة «لقد جاءكم رسول من أنفَسكم» بفتح الفاء، وكذلك «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضُعُفا» بضم الضاد والعين.

ب ـ يحيى اليزيدي، «ت ٢٠٢هـ»، هو يحيى بن محمد بن المبارك بن المغيرة العدوي البصري، له اختيار في القراءة، مثل «عاملةً ناسبةً»، خالف شيخه أبا عمرو البصري في عشرة أحرف.

ج ـ الحسن البصري، الحسن بن يسار «ت ١١٠هـ» زاهد ورع فصيح، من قراءته «بغَتة، وصيد البحر وطُعمه، حاش الإله، أين المِفر».

د ـ الأعمش، سليمان بن مهران الأعمش «١٤٨هـ» من قراءته: «من القنطين، قالوا سلامٌ قالوا سلامٌ».

وسبب رد هذه القراءات أن أصحابها اختاروا قراءة بعض هذه الأحرف من عند أنفسهم على بعض اللغات العربية، أو أنهم لم تصلهم العرضة الأخيرة مما استقر عليه القرآن، أو أسانيدها ضعيفة لا ترقى إلى التواتر.

والقراءات الشاذة ذات قيمة لغوية عالية، ومع ذلك فلا بد من التنويه على شذوذها[(١)].

ومما يجب التنبيه عليه أن بعض قراءات ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ليست قراءة متواترة، ولا تعبدية، ولا شاذة، وإنما هي من التفسير، ومجازاً يطلق عليها «قراءة».

ولايفوت الباحث في هذا المقام بيان مكانة ابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ من حيث القراءة، وحتى يرتفع اللبس الذي قد يطرأ على الفهم لسببين؛ هما:

الأول: وصف قراءة ابن مسعود بالقراءة التفسيرية، حتى لاَيظُنّ من يسمع ذلك أن ابن مسعود لم يكن ممن اشتهر بالقراءات المتواترة من الصحابة، فقراءة ابن مسعود كانت تفسيرية؛ أي تعليقات وشروحات تبين ما خفي من معان.

ولعل من أوضح ما بيّـن مكانة ابن مسعود وفضله في القراءة، قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ «خذوا القرآن من أربعة»[(٢)]، من ابن أم عبد، فبدأ به، «ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة»[(٣)].

---

(١) ومن الذين لا يشيرون إلى شذوذ القراءة أو أنها تفسيرية أحمد مختار الذي يقول: «بعض القراءات قد يوضح المراد من الآية، ويلقي الضوءعلى معناها، ومن ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ المائدة ٣٨، وقد جاءت قراءة ابن مسعود لتحديد اليد التي يبدأ بقطعها، وهي «فاقطعوا أيمانهما» وقد قرأ أبيّ وابن مسعود وغيرهما «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ»، ولم يشرمختار إلى درجة القراءة أونوعها، مما يؤدي إلى لَبس في الفهم لدى مَن ليس لديه علم بالقراءات وأنواعها، فيعتقد أن قراءة ابن مسعود قراءة مروية عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن ذكر «غيرهما» قد يوهم أن «غيرهما» من المتواتر.

(٢) صحيح البخاري، ج٥، ص٣٦، وصحيح مسلم، ج٤، ص١٩١٣.

(٣) متفق عليه، «وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ بَشَّرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ».

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «اقرأ عليّ، قلت أقرأعليك وعليك أنزل؟ قال: أحب أن أسمعه من غيري. «متفق عليه».

الثاني: تحريق عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ المصاحف:

كان للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مصاحف خاصة بهم، فيها القراءات التي كانوا يتلقونها عن النبي ـ عليه السلام ـ وعليها شروحات، كمصحف عائشة ومصحف ابن مسعود وغيرهما، وعندما أمرعثمان ـ رضي الله عنه ـ بجمع المصحف، وكتب منه نسخاً وزعت على الأمصار، احتفظ بمصحف الإمام، وأمر بإحراق جميع ما لدى الصحابة من مصاحف، وكان فعله هذا من قبيل سد الذرائع؛ لأنه لم يكن يخشى أن يلتبس أمرمصحف ابن مسعودعلى أصحاب الرسول الكريم، ولكنه خاف على الأجيال التي تعقب الصحابة.

ومما يجب التنبيه عليه أن القراءة الشاذة قد توافق قراءة متواترة، ولكن سندها لم يصح، بمعنى أن متن القراءة صحيح، ولكن طريق الرواية ورجالها غير صحيح.

ومن الأخطاء الشائعة عدّ القراءات أربع عشرة، والصحيح: عشرمتواترة، وأربع شاذة[١].

د ـ: القراءة الموضوعة والقراءة التفسيرية:

القراءة الموضوعة أو المختلقة، هي قراءة نسبت إلى قائليها من غير أصل، ولاتستحق أن تدرج ضمن أنواع القراءات، ونظيرها الحديث الموضوع.

وأما القراءة التفسيرية أو المدرجة فهي من تفسير الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لبعض الألفاظ القرآنية، والأوْلى بالقراءة التفسيرية ألاتدرج ضمن القراءات القرآنية.

ومن الأمثلة على القراءة التفسيرية قوله تعالى: ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ فأدرج الصحابي تفسيره، فكتب: متتابعات، قال عمر: فما أدري أكانت قراءته أم فسر؟[٢].

---

(١) ومن الأمثلة على القراءة الشاذة: تبت يدا أبو لهب: أبو معاذ، «ما أغنى عنه ماله وما اكتسب، سيُصلى ناراً، ومريّتُه: ابن مسعود» حاملة: أبوقلابة مختصر في شواذ القرآن: ١٨٢.

(٢) مناهل العرفان: ح١، ص٤٢٩، وقد تكون القراءات التفسيرية مروية عن النبيّ ـ عليه السلام ـ وهذا ما ذكره ابن الجزريّ.

المطلب الثاني: الصرف والقراءات:

ثمة علاقة قوية بين الصرف والقراءات، وما ينطبق على النحو فإنه ينطبق على الصرف من حيث إن القرآن أصل، وخلافه فرع، والقرآن مصدر؛ أول المصادر واقواها.

وما يهم في هذا المطلب نقطتان:

الأولى: القاعدة الصرفية القائلة: «زيادة المبنى زيادة في المعنى» وسأعرض ثلاث مسائل متعلقة بهذه القاعدة الصرفية، ثم مناقشة بعض الآيات في هذا الشأن، على ضوء هذه القاعدة وبيان عدم اطّرادها في القرآن الكريم؛ وهي:

المسألة الأولى: دلالة الفعلين: «أنزل ونزّل».

سيتم تناول هذه القضية من خلال دراسة السياق القرآني، وطرح سؤالين؛ هما:

الأول: هل نزلت الكتب السماوية دفعة واحدة أم منجمة؟

والثاني: هل نزلت المائدة على الحواريين دفعة واحدة، أم كانت متدرجة في النزول؟

وما دفع الباحث إلى إثارة هذين التساؤلين هو صيغتا الفعل «نـزَل ونـزّل»؛ لأن جل الآراء في هاتين القضيتين صدرت عن تلكما الصيغتين.

فالسؤال الأول تتم دراسته من خلال النص القرآني في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ*مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(٢).

---

(١) آل عمران ٣، ٤.

(٢) الفرقان ٣٢.

غاير ـ سبحانه وتعالى ـ بين الفعلين: نَزّل وأنزل في كيفية نزول القرآن والتوراة والإنجيل، فكانت صيغة الفعلين مدخلاً لكثيرمن العلماء إلى القول بأن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، مسترشدين بقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى﴾(١)، فعن ابن عباس قال: «أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى السماء الدنيا جملة واحدة»، ثم نزل منجماًعلى مدار ثلاث وعشرين سنة، مستدلين بقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ حيث إن صيغة التضعيف تدل على التكثير.

وأما نزول التوراة والإنجيل، فكان الاستدلال نابعاً من صيغة «أنزل» الدالةعلى الدفعة الواحدة.

ويناقَش أمر نزول القران ونزول التوراة والإنجيل، من عدة زوايا، هي:

أولاً: لم يبين الرسول ـ عليه السلام ـ كيفية نزول القرآن، وجل الآراء في كيفية نزول القرآن صدرت عن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهوحديث مرفوع، ونزول القرآن أمرعقدي، ولايخفى اختلاف العلماء في أخذ حديث الأحاد في العقائد، فكيف إن كان الحديثُ خبرَ آحاد مرفوعاً؟

ثانياً: الآيات التي اعتبرها المفسرون والباحثون أنها تشير إلى نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا اقترنت بحرف الجر «في» الدال على الظرفية الزمانية، وهي: «في ليلة القدر، في ليلة مباركة، في شهر رمضان» وهذه النصوص خالية من حرف الجر «إلى» الدال على انتهاء الغاية الزمانية والمكانية، وما يهمنا هو الغاية المكانية، بينما وردت نصوص تتحدث عن نزول القرآن مقترنة بحرفيّ الجر «إلى وعلى» في قوله تعالى:

(١) البقرة ١٨٥، الدخان٣، القدر ـ ١

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾(١) و﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾(٢).

ثالثاً: اختلف المفسرون في كيفية نزول التوراة والإنجيل، متخذين من صيغة الفعل «أنزل ونزّل» حجة ومحوراً لمحاجّتهم، فكانت لهم صولات وجولات في دلالة الصيغتين «نزّل وأنزل»، فجاءت آراؤهم على النحو التالي:

تردد الزمخشري ولم يحسم الأمر، فتارة يفرق في الدلالة بين الصيغتين «نزّل وأنزل» وتارة يعدُّهما بمعنى واحد(٣).

وعدّ أبوحيان أن التضعيف لايدل على التكثير ولا التنجيم، وقد جاء في القرآن نزّل وأنزل(٤).

ولم يفْصل الشوكاني في القضية، واضطربت أقواله، ففي سورة آل عمران يقول: «إن الكتابين نزلا دفعة واحدة»(٥)، ثم يذكر في نص سورة الفرقان بأنهما نزلا متفرقين(٦).

---

(١) الزمر ٢.

(٢) آل عمران ٧.

(٣) ففي آل عمران يقول: «فإن قلت: لِمَ قيل» نَزَّلَ الكتاب و«وَأَنزَلَ التوراة والإنجيل»؟ قلت: لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة، وفي الفرقان يقول «نَزَّلَ» ههنا بمعنى أنزل لا غير، كخبر بمعنى أخبر، وإلاّ كان متدفعاً، انظر: الكشاف: ج١، ص٣٦٤.

(٤) أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي، البحر المحيط: دار الفكر، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، ج٤، ص٤١٤.

(٥) فتح القدير: ج١، ص٣٤٦ وعد الآلوسي التعبير بأنزل فيهما ـ التوراة والإنجيل ـ للإشارة إلى أنه لم يكن لهما إلا نزول واحد، وهذا بخلاف القرآن فإن له نزولين، نزول من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من سماء الدنيا جملة واحدة، ونزول من ذلك إليه ـ عليه السلام ـ منجماً في ثلاث وعشرين سنة على المشهور، ولهذا يقال فيه: نزّل وأنزل وهذا أولى مما قيل: إن نزّل يقتضي التدريج، وأنزل يقتضي الإنزال الدفعي إذ يشكل عليه «لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرءان جُمْلَةً واحدة»، حيث قرن نزل بكونه جملة، وقوله تعالى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الكتاب﴾.

(٦) فتح القدير: ج٤، ص٨٥.

ونفى ابن عاشور أن يكون للتوراة والإنجيل نزولان لايوجد في كتب الإسرائيليين، ولاورد به أثر من السنة، وإنما هي من أقوال لبعض السلف ولعلها تسربت للناس من القصاصين.

وبعد الاطلاع على الأقوال السابقة التي تمثل الاتجاهين في كيفية نزول القرآن والتوراة والإنجيل، يتبين أن آراءهم صادرة عن اعتمادهم على صيغتي «نزّل و أنزل».

ولم يختص القرآن بصيغة «نزّل»، فإن التوراة أيضاً اقترنت بصيغة «تـُنزّل»، قال تعالى ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾(١).

وفي أكثرمن موضع في القرآن طلب الكفار من محمد ـ عليه السلام ـ أن ينزّل عليهم كتاباً، ولم يقتصر الأمرعلى سورة الفرقان، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾(٢).

وعلى هذا، فصيغة الفعل مجردة وبعيدة عن السياق لا دلالة فيها على التكثير أو عدمه.

رابعاً: القراءات القرآنية:

لم يقف الباحث في القراءات القرآنية المتواترة على أحدٍ قرأ «نزّل» في الفرقان بالتخفيف

«نَزَل»، بينما قرئت كلمات مشابهة لها بالتخفيف والتثقـيل(٣).

---

(١) آل عمران ٩٣.

(٢) النساء ١٥٣، وكذلك قوله تعالى ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ الإسراء٩٣.

(٣) قال الشاطبي:

وينـزل خفــــفه وتـــنزل مثـله وننزل «حق» وهو في الحجر ثقلا. =

وبعد الاطلاع على القراءات المتواترة، يتبين أن التشديد ليس بالضرورة دالاً على التكثير، لاسيما قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لو لا نزّل عليه القرآن جملة واحدة﴾، الذي يرد قول القائلين بدلالة التدريج والتكثير مع الفعل المضعف.

وللباحث وقفة مع قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لو لا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾، فإن ثمة علاقة بين اللفظين «يُنـزّل وترتيلاً»، والترتيل يعني الترتيب مع وجود فرجة، فيقال: «ثَغْرٌ رَتِلٌ ورَتَلٌ أَي مُفَلَّج» و«رَتَّلْتُ الكلامَ تَرتيلاً إذا أمهَلْتُ فيه وأحسَنْتُ تأليفَه، وهو يَتَرَتَّل في كلامه، وَيتَرسَّلُ إذا فَصَلَ بعضَه من بعض»(١).

ومن هنا تبدو المناسبة بين التنزيل والترتيل، فجاءت الصيغتان «نزّل ورتّل» متوافقتين.

وأما التساؤل الثاني: هل نزلت المائدة على الحواريين دفعة واحدة أم نزلت على دفعات؟

وتتم دراسة هذا التساؤل من خلال قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِ نَاوَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُالرَّازِقِينَ*قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

انظر إلى صيغة الفعل الذي طلب به عيسى ـ عليه السلام ـ «أنْـزِلْ»، ثلاثي مزيد

= وخفـف للبصري بسبحان والـذي في الأنعـام للمكي على أن ينـزّلا.
ومنزلها التخفيف «ح» شـ«فـا ؤه وخفف عنهم ينزل الغيث مسجلا.

(١) لسان العرب: ج٦، ص٩٦، انظر تاج العروس: ج١٤ ـ ص٢٦٢.

(٢) المائدة ١١٥، ١١٤، قرأ نافع وابن عامر وعاصم «منزّلها» بالتشديد، وقرأها الباقون بالتخفيف.

بالهمزة، فلم يأته الرد من الله بنفس الصيغة «منْزِلها» بالتخفيف، بل جاء بصيغة اسم الفاعل «منزّلها» المشتقة من الفعل المضعف «نزّل» الذي يبدو فيه التدرج، ولم تكن هناك مشاكلة بين الفعل واسم الفاعل، فلماذا تغايرت الصيغتان ولم تتوافقا؟

وللإجابة عن هذا التساؤل، لابد من بحث المسألة من زاويتين؛ هما:

الأولى: هل نزلت المائدة دفعة واحدة أم تكررنزولها؟

ذكر أبو حيان بأنه اختلف فيها، فقال: «اختلف فيها، مـَن قال إنها نزلت، هل رفعت بإحداث أحدثوه أم لم ترفع؟، وقال الأكثرون: أكلوا منها أربعين يوماً بكرة وعشياً»(١).

فإذن ليس هناك من تأكيد على تكرارالنزول حتى يستنبط من صيغة اسم الفاعل «منزّلها».

أنها تدل على التكثير والتدرج ـ على قراءة التشديد ـ، مع أن بعض المفسرين يعدون أنزل ونزّل بمعنى واحد، وأنهما لغتان(٢).

والزاوية الثانية: العلاقة بين التشديد في قوله تعالى: ﴿منزّلها﴾ و﴿عيداً﴾:

هناك تناسب بين اللفظين، فالعيد فيه دلالة على العود والتكرار، فقد جاء في التاج «عَوَدَ»: الرجوع كالعودة، وقال ابن الأعرابي: سمي العيد عيداً؛ لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد(٣).

فناسب اسم الفاعل «منزّلها» للفظ «العيد»، فكان مشاكلاً له، ولم يكن مشاكلاً للفعل «أنزل».

---

(١) البحر الميط: ج٤، ص٤١٤.

(٢) الكشاف: ج١، ص٣٦٤ ـ البحر المحيط: ج٤، ٤١٤.

(٣) تاج العروس: ج٥، ص١٣٣، ١٣٥.

وبعد هذا التحليل، فإن من أكبر ضوابط الألفاظ هي القرينة والسياق، واللفظ الواحد تتغير دلالته من سياق إلى سياق.

المسألة الثانية: دلالة الفعلين «بصر وأبصر»(١):

وتتم دراسة هذه القضية من خلال قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٣).

ورد الفعل «بصُرَ» مرتين مع الماضي في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وجاء مع الفعل المضارع مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾.

وهذا فعل مجرد، وجاء مزيداً مع الماضي مرتين في قوله تعالى: ﴿فمن أبصر فلنفسه﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾(٥).

ومع المضارع تكرر كثيراً، منها قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾(٦).

بَصُرت، وأبصرت كلاهما من أفعال النظر بالعين، إلا أن بصُر بالشيء حقيقته صار بصيراً به أو بصيراً بسببه؛ أي شديد الإبصار، فهو أقوى من أبصرت؛ لأنّه صيغ من فَعُل

---

(١) لم يختلف القراء في هذين الفعلين سوى « يَـبْصروا، تـبْصروا » ولكني أحببت إضافتها لتدعيم الفكرة.

(٢) طه ٩٦.

(٣) القصص ١١.

(٤) الأنعام ١٠٤.

(٥) السجدة ١٢.

(٦) البقرة ١٧.

بضم العين الذي تشتق منه الصفات المشبهة الدالة على كون الوصف سجية.

فدلالة «بَصُرَ» المجرد أشد قوة من الفعل المزيد «أَبْصَرَ»، لذا فإن الفعلين «بصُرَ، يَبصُروا» قد تناسبا في سياق واحد، الأول إيجابي في شدة الإبصار «بصُرت» والثاني سلبي في بيان العجز عن الإبصار «بما لم يَبصروا»(١).

وهذه أخت موسى ـ عليه السلام ـ تقص أثر أخيها، وقصّ الأثر أمر يتطلب المزيد من التركيز في البصر، فكان نظرها ثاقباً، مما أوصلها إلى مبتغاها، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ونظيرذلك قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٢)، «وحدة البصر: قوة نفاذه في المَرئي، وحدّة كل شيء قوةُ مفعوله، ومنه حدة الذهن، والكلام يتضمن تشبيه حصول اليقين برؤية المرئي ببصر قوي»(٣).

ولهذا أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أولي الأبصار، لشدة انتباههم ونباهتهم.

فالمصدر من بصُر بصرٌ، ومن أبصر إبصار، ومن هنا قال: فبصرك، ولم يقل إبصارك.

ومع ذلك ورد الفعل «أبصر» للدلالة على شدة الإبصار، وذلك في يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

---

(١) ردّ ابن عاشور ما روي عن السامري في هذا السياق، فقال: ورووا قصة قالوا: إن السامري فتنهُ الله، فأراه الله جبريل راكباً فرساً فوطىءَ حافر الفرس مكاناً فإذا هو مخضَرّ بالنبات. فعلم السامري أن أثر جبريل إذا ألقي في جماد صار حياً، فأخذ قَبضة من ذلك التراب وصنَع عجلاً وألقى القبضة عليه فصار جسداً، أي حياً، له خوار كخوار العجل، فعبر عن ذلك الإلقاء بالنبذ، وهذا الذي ذكروه لا يوجد في كتب الإسرائيليين ولا ورد به أثر من السنّة، وإنما هي أقوال لبعض السلف ولعلها تسربت للناس من روايات القصاصين ـ التحرير والتنوير: ج١٦، ص٢٩٥.

(٢) ق ٢٢.

(٣) التحرير والتنوير: ج٢٦، ص٣٠٩.

فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾(١)، ويوم القيامة يرى الكافرون العذاب رأي العين، وباستخدامهم هذا الفعل، فإن فيه تكذيب لنواياهم التي كشفها عزوجل في قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(٢).

وهكذا يلاحظ أن الزيادة في المبنى لم تفد زيادة في المعنى، بل العكس، فإن الفعل المجرد أشد قوة وتأثيراً من الفعل المزيد.

المسألة الثالثة: المَيْت والميّت:

جاء في لسان العرب: «ورجل مَيِّتٌ ومَيْتٌ، وقيل المَيْتُ الذي ماتَ والمَيِّتُ والمائِتُ الذي لم يَمُتْ بَعْد».

وحكى الجوهريُّ عن الفراء يقال لمنْ لم يَمُتْ إِنه مائِتٌ عن قليل ومَيِّتٌ، ولا يقولون لمن ماتَ هذا مائِتٌ، قيل: وهذا خطأٌ، وإِنما مَيِّتٌ يصلح لِما قد ماتَ ولِما سَيَمُوتُ قال الله تعالى: ﴿إِنك مَيِّتٌ وإِنهم مَيِّتُونَ﴾(٣).

«مات يموت ويمات فهو مَيْت ومَيِّت، ضد حي، وما سكن ونام وبلي، أو المَيْت مخففة: الذي مات، والميّت والمائت: الذي لم يمت بعد»(٤).

قال الطبري: «التخفيف والتشديد في«ياء» «الميتة» لغتان معروفتان في القراءة وفي كلام العرب»(٥).

وقارن ابن عاشور بين اللفظين فقال: «الميّت: هومن اتصف بالموت، أي زالت

---

(١) السجدة ١٢.

(٢) الأنعام ٢٨.

(٣) لسان العرب: ج١٤، ١٤٧.

(٤) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، دار الجيل، دون سنة النشر، ج١، ص١٦٤.

(٥) تفسير الطبري، ج٣ ص٣١٨.

عنه الحياة، ومثله المَيْت، بتخفيف السكون على الياء، والتحقيق أنه لافرق بينهما، خلافاً للكسائي والفراء»(١).

ولعل من فرّق بين اللفظين اعتمد على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾.

ولم يفرق أبو جعفر ـ من القراء العشرة ـ بين اللفظين، فقرأهما بالتشديد(٢).

وقد استعمل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفظ «الميّت» بالتشديد للدلالة على من مات، فقال: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»(٣).

وجمع الشاعر صالح عبد القدوس ـ ابن العلاء ـ بين اللفظين، ولم يفرق بين الدلالتين، فقال:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ... إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ
إِنما المَيْتُ مَن يَعِيشُ شَقِيّاً كاسِفاً بالُه قليلَ الرَّجاء

وبعد هذا التأمل في الآيات المذكورة، فإن مثل هذه الألفاظ تفتقر إلى دراسة متخصصة تتناول دلالة كل لفظ منها تناولاً يعين على توجيه هذه القراءات.

---

(١) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٤٠٤.

(٢) قرأ أبو جعفر الميّتة بالتشديد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ـ البقرة ١٧٣ وشارك نافع ويعقوب أبا جعفر التشديد في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، وشاركه نافع ورويس التشديد في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾.

(٣) متفق عليه.

المطلب الثالث: الحمل على الجوار:

الحمل على الجوار هو إتْباع حركة الحرف الأخير من الكلمة الأولى لتناسب حركة الحرف الأول من الكلمة التالية، أو إتْباع حالة إعراب الكلمة الثانية لحركة ما قبلها لمجاورتها إياها.

ويتعلق بالحمل على الجوار مسألتان؛ هما:

المسألة الأولى: التخفيف من الحركات، وتنقسم إلى تخفيف في الإعراب وفي غير الإعراب.

أولاً: تخفيف الحركة في الإعراب:

أ ـ تخفيف الضمة:

قال تعالى ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١).

«يَأْمُرَكُمْ» قرأها بفتح الراء ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب وخلف العاشر وقرأها بضم الراء «يَأْمُرُكُمْ» نافع وابن كثير والكسائي وأبو جعفر(٢)، وقرأها الدوري

---

(١) آل عمران ٨٠.

(٢) التحرير والتنوير: ج٣، ص٢٨٦

النصب عند الطبري محمول على العطف، فهي معطوفة على « ثم يقولَ» وكان تأويله: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب، ثم يقولَ للناس، ولا أن يأمرَكم بمعنى: ولا كان له أن يأمرَكم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا ، ويمكن حمله على إضمار «أن»، والرفع محمول على القطع والابتداء، وهذا الأصل فيما إذا أعيد حرف النفي، فإنه لما وقع بعد فعل منفي، ثم انتقض نفيه بلكن، احتيج إلى إعادة حرف النفي، والمعنى على هذه القراءة واضح: أي ما كان لبشر أن يقول للناس كونوا..... إلخ، ولا هو يأمُرهم أن يتخذوا الملائكة أرباباً.

عن أبي عمرو بتسكين الراء «يَأْمُرْكُمْ» وبالاختلاس قرأها السوسي عن أبي عمرو[١].

ويمكن توجيه القراءة بالضم «ولا يأمُرُكُم» حملاً على الجوار ـ لمجاورة الميم المضمومة، وأما التسكين فهو فرار من توالي الحركات.

ب ـ تخفيف الفتحة:

لم يقف الباحث على تخفيف الفتحة في الإعرابً من قراءات متواترة، وما وقف عليه قراءات شاذة.

ج ـ تخفيف الكسرة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

قرأ بتسكين الراء في كلمة «أَرِنَا ـ في البقرة ـ أَرِنِي» ابن كثير والسوسي ويعقوب، وقرأها بالاختلاس الدوري عن أبي عمرو، وقرأها الباقون بالكسر للدلالة على الياء المحذوفة[٣].

وعلل مكي بن أبي طالب سبب تسكين الراء، فقال: «إنه شبّـه حركة الإعراب بحركة البناء، فأسكن حركة الإعراب استخفافاً لتوالي الحركات»[٤].

---

(١) وقرأ أبوعمرو بتسكين واختلاس الراء ـ الدوري بالتسكين والسوسي بالاختلاس في الأفعال التالية: «يأمرهم، تأمرهم ينصركم، يشعركم».

(٢) البقرة ١٢٨، فصلت ٢٩، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ البقرة ٢٦٠.

(٣) وقرأ «أَرِنَا» ـ في فصلت ـ بتسكين الراء ابن كثير والسوسي وابن عامر وشعبة ويعقوب ـ، وقرأها الدوري عن أبي عمرو بالاختلاس، وقرأها الباقون بالكسر. وقرأ الدوري عن أبي عمرو بالإسكان والاختلاس، وقرأها السوسي بالإسكان، في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، وقرأها الباقون بكسر الهمزة.

(٤) ابن أبي طالب، مكي: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق: محيي الدين رمضان مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ـ دون سنة الطبع ورقم الطبعة ـ ج١ ـ ص٢١٥.

د ـ تخيف السكون:

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَعَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ*أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَاكَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ*وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾(١).

جاءت الأفعال «يشأْ، يسكنْ، يظللْن، يوبقْهن، يعفْ» كلها مجزومة، ثم تبعها الفعل «يعلمَ» منصوباًعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العشر، ومرفوعاً على قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر.

«فالقراءة على النصب تخريجها على أنه خبر مراد به الإنشاء والطلب، فهو في قوة «وليعلمْ الذين يجادلون» أواعلموا يا من يجادلون، وليس خبراًعنهم؛ لأنهم لايؤمنون بذلك حتى يعلموه»(٢).

ولقراءة النصب تخريج آخرمحمول على الصرف، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(٣)، صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً لتوالي الجزم(٤).

ثانياً: تخفيف الحركات لغير إعراب:

أ ـ تخفيف الضمة:

سكن ابن كثير الدال في «القدس» في قوله تعالى: ﴿وأيدناه بروح القُدُس﴾(٥).

---

(١) الشورى ٣٥ـ٣٣.

(٢) التحرير والتنوير: ج٢٥، ص١٠٨.

(٣) آل عمران ١٤٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ج١٢، ص٣٣.

(٥) البقرة ٨٧، وسكن نافع الذال في كلمة «الأذْن»، وسكن نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف =

ب ـ تخفيف الفتحة:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(١).

قرأها ابن ذكوان عن ابن عامر بتسكين الهمزة «منسأْته» تخفيفاً لتوالي الفتحات.

وأما فتح ياء الإضافة وتسكينها، فقد اختلف القراء فيها اختلافاً كبيراً، فمنهم من فتحها، ومنهم من أسكنها، ومنهم فتحها في حالات وأسكنها في أخرى(٢).

ج ـ تخفيف الكسرة:

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾(٣).

قرأ «نحْسات» بتسكين الحاء، نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وحمزة وخلف العشر، وقرأها الباقون بكسر الحاء «نَحِسات»(٤).

= العاشر في كلمة «السحْت»، وضمها الباقون.

وسكن أبو عمرو الأسماء التالية: «رسلهم، سبلنا».

وسكن الفاء في كلمة «كفْواً» حمزة ويعقوب وخلف العاشر.

وخفف الضمة إلى سكون «الرعْب، عرْباً، أكْلها، خشْب، نكْراً، خطْوات، بشْراً نشْراً» ابن كثير، أبوعمرو، هشام، حفص، حمزة، الكسائي، وخلف العاشر.

(١) سبأ ١٤.

(٢) ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ نوح ٥، قرأها جميع القراء بإسكان الياء.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ نوح ٦، قرأها بفتح الياء نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر، وأسكنها الباقون.

(٣) فصلت ١٦.

(٤) قرأ «بورْقِكُمْ» بتسكين الراء في قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أبو عمرو وشعبة وحمزة وخلف العاشر ورَوْح، وقرأها الباقون بكسر الراء.

وانفرد حفص بضم ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عاهَدَ عليهُ اللهَ ﴾[١]، وقوله تعالى ﴿وَما أَنْسانيهُ إلا الشَّيْطان﴾[٢]، وقرأ بقية القراء بكسرهاء الضمير إتباعاً لحركة ما بعده[٣].

د ـ تخفيف السكون:

وهذه المسألة تتعلق بالتقاء الساكنين، وذلك بتخفيف حركة الساكن الأول، وما يعني

الباحث هو التقاء الساكنين في كلمتين، وهو على أنواع:

١ـ تخفيف سكون الأول بالكسر

قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[٤].

٢ـ تخفيف حركة الأول بالفتحة:

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾[٥].

وفتح الميم وصلاً في قوله تعالى: ﴿ألم * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٦].

٣ـ حذف الساكن الأول:

قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[٧].

---

(١) الفتح ١٠.

(٢) الكهف ٦٣.

(٣) حرز الأماني ووجه التهاني، ص١١٤.

(٤) فاطر ٢.

(٥) الرعد ٣٤.

(٦) آل عمران ٢،١

(٧) الذاريات ٢٠.

٤ ـ تخفيف حركة الأول بالضم، وذلك في الحالات التالية:

أ ـ إذا كان الأول واو لين، قبلها مفتوح، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾(١).

ب ـ إتْباعاً لحركة المضموم بعد الساكن في الكلمة الثانية، وكانت فعل أمرمضموم الثالث، وللقراء مذاهب في هذه المسألة(٢).

المسألة الثانية:

الحمل على الجوارفي الإعراب:

أجمع القراء العشرة على قراءة «قتالٍ» بالخفض(٣) في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾(٤).

---

(١) البقرة ١٦.

(٢) ضم الساكن الأول، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ﴾ ضم النون في «أنْ» إتـباعاً لحركة الكاف كل من نافع و ابن كثيروابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر، وكسرالنون الباقون.

إذا كان الأول ميم جمع، وللقراء أيضاً مذاهب في ميم الجمع. على النحو التالي:

إذا لم يسبق ميم الجمع هاء مكسورة، فجميع القراء يضمون ميم الجمع.

وإذا سبقت الميم بهاء مكسورة، وقبل الهاء كسر، كقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، فإن مذاهب القراء كالتالي:

أ ـ كسر الهاء وضم الهاء والميم حمزة والكسائي وخلف العاشر.

ب ـ كسر الميم والهاء أبو عمرو ويعقوب.

ج ـ ضمَّ الميمَ وكسرَ الهاءَ الباقون.

(٣) نقل النحاس توجيه العلماء في الخفض؛ قال أبو جعفر: الخفض عند البصريين على بدل الاشتمال، وقال الكسائي: هو مخفوض على التكرير أي عن قتال فيه، وقال الفراء: هو مخفوض على نيّة «عن»، وقال أبو عبيدة: هو مخفوض على الجوار، انظر: إعراب القرآن للنحاس، ج١، ص١٠٩.

(٤) البقرة ٢١٧.

وتعددت القراءات المتواترة في آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾(١).

قرأ برفع «زرعٌ، نخيلٌ، صنوانٌ، غيرُ» ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب، وقرأها الباقون بالخفض «زرعٍ نخيلٍ، صنوانٍ، غيرِ»(٢).

ب ـ قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَان﴾(٣).

اختلف القراء فيها على خمسة مذاهب، يتعلق اثنان منهما بالحرف الناسخ «إن» وكان الخلاف فيه حول التثقيل والتخفيف، وثلاثة تتعلق بـ«هذان» الأول على رفع «هذان» وتخفيف النون فيه، والثاني على رفع «هذانّ» مع تثقيل النون فيه، والثالث على نصب «هذين».

وتفصيل ذلك على النحو التالي:

«إنْ هذانِ لساحران» حفص(٤)، «إنْ هذانِّ لساحران» ابن كثير، «إنّ هذين لساحران» أبو عمرو، «إنّ هذانِ لساحران» الباقون.

وكان الخلاف منصباً على الحرف الناسخ «إنّ» وعمله، فتخفيفه ورفع ما بعده على أنه لا يعمل، وتشديده مع نصب اسمه «إنّ هذين» لا إشكال فيه، وإنما الإشكال هل لفظ «هذين» خالف رسم المصحف أم لا؟

---

(١) الرعد ٤.

(٢) فالرفع محمول على العطف، أي عطف» زرع ونخيل على جنات، فيكون الزرع والنخيل من الجنات وأما الخفض فمحمول على العطف، أي عطف زرع ونخيل على جنات.

(٣) طه ٦٣.

(٤) ذكر المثنى بالألف في جميع أحواله هي لغة بني سعد وبنينصر وبني الحارث وبني كعب.

هذا مما لا يخالف الرسم؛ لأن ابن الجزري يقول: ووافق الرسم ولو احتمالاً، وإنما الإشكال كان في تشديد الحرف الناسخ ورفع ما بعده(١).

وعد سيد طنطاوي هذه القراءة تخالف الرسم والإعراب(٢). فهذا قول لا يُعبَأُ به؛ لأن هذه القراءة متواترة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ج ـ قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾(٣).

---

(١) وكان للعلماء توجيهات في ذلك، منها

أولاً: «إنّ» حرف جواب مثل نعم أو أجل «إنّ» بمعنى نعم هي لغة قريش.

ودليل ذلك أن الرسول ـ عليه السلام ـ استعمل هذه اللغة، «فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الْوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ فَقَالَ إِنَّ الْحَمْدُ للهَّ وَسُبْحَانَ الله وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ الْعَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»ـ سنن الترمذي: كتاب الدعوات، باب٩٨ ـ رقم الحديث ٣٥٣٣ـ ص٨٠٢ «حسنه الألباني»، وجاء رجل إلى ابن الزبير يطلب مساعدة فلم يعطه، فقال الرجل: لعنَ اللّـهُ ناقةً حملتني إليك، فقال إبن الزبير إنّ وراكبها، واستعملها الشاعرعبيد الله بن الرقيات « ت ٨٥ هـ»، ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت: إنه.

ثانياً: إنّ: حرف توكيد، وإعراب اسمها المثنى جرى لغة كنانة وبني الحارث بن كعب الذين يجعلون علامة إعراب المثنى الألف في أحوال الإعراب كلها.

ثالثاً: جرت التثنية مجرى الواحد، إذا التثنية يجب ألا تتغير ـ التحرير والتنوير: ١٦، ص٢٥٢.

رابعاً: «قيل إن الهاء مقدرة»:

قاله بعض الكوفيين قال الألف في «هذان» مشبهة بالألف في يفعلان فلم تغير.

القول الخامس: قال أبو إسحق: النحويون القدماء يقولون الهاء هاهنا مضمرة، والمعنى إنه هذان لساحران، قال ابن الأنباري: فأضمرت الهاء التي هي منصوب «إن» و«هذان» خبر «إن» و«ساحران» يرفعها «هما» المضمر، والتقدير: إنه هذان لهما ساحران.

والأشبه عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم «إن» و«هذان» رفع بالابتداء وما بعده خبر الابتداء ـ الجامع لأحكام القرآن ـ: ج١١، ص١٣٦.

(٢) الوسيط: ج٩، ص١٢٢، ١٢٣.

(٣) البروج ١٥.

قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر «المجيدِ» بالخفض، على أنها نعت للعرش أو نعت لربك «إنْ بطشَ ربِّك لشديد»، وقرأها الباقون بالرفع(١)، حملًا على تعدد الخبر فيكون «المجيدُ» خبر رابع، والأخبار الثلاثة المتقدمة هي «وهو الغفورُ الودودُ ذو العرش».

المطلب الرابع: القراءات الشاذة وحجيتها

«الصحيح المشهورالذي عليه علماء القراءات والفقه أن القراءات الشاذة هي التي وراء العشرة»(٢).

أنواع القراءات الشاذة: (٣).

الأول: القراءة الشاذة المشهورة:

«وهي التي وافقت العربية والرسم وصح سندها، ولكنه لم يبلغ درجة التواتر كقوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ فقرئت «أنْـفَـسِكُمْ، بفتح الفاء»(٤).

الثاني: قراءة الآحاد:

وهي قسمان:

أ ـ كل قراءة وافقت العربية والرسم ولم يصح سندها.

ب ـ كل قراءة وافقت العربية وخالفت الرسم؛ سواء صح سندها أم لم يصح.

الثالث: القراءة المدرجة:

---

(١) التسهيل لقراءات التنزيل، ص٥٩٠.

(٢) البيلي، أحمد: الاختلاف بين القراءات، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص١٠٩.

(٣) سالم، رشاد محمد: القراءات القرآنية وصلتها باللهجات العربية، دارالمنار، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص١٤٣، ١٤٤.

(٤) اتحاف فضلاء البشر، ص٣٠٨.

وهو الذي زيد على الآية على وجه التفسير، كقراءة سعد «وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ»(١) من أمه.

حجية القراءات الشاذة «لغوياً».

قال عبد الصبور شاهين: «ومن العلوم التي ينبغي الاعتماد عليها في دراسة العربية الفصحى علم القراءات القرآنية، مشهورها وشاذّها؛ لأن رواياتها هي أوثق الشواهد على ما كانت عليه ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية واللغوية بعامة، في مختلف الألسنة واللهجات، بل إن من الممكن القول بأن القراءات الشاذّة هي أغنى مأثورات التراث بالمادة اللغوية التي تصلح أساساً للدراسة الحديثة، والتي يلمح المرء صورة تاريخ هذه اللغة الخالدة.....»، وقال: «فإذا علمنا أن قراءات القرآن هي الوثيقة التاريخية التي نطمئن إليها في فقه اللغة الفصحى من جميع نواحيها، الوثيقة التي تنتقل إلينا بالصورة والصوت معاً، يتوارثها القراء جيلاً عن جيل، أدركنا أهمية دراستها بطريقة علمية، إن هذه القراءات على اختلاف رواياتها سجل وثيق لما كان يجري في كلام العرب من تصرفات صوتية ولغوية، ولا فرق في ذلك بين قراءة من السبعة أو غيرها مما سمي «بالشواذ»، فهذه الشواذ لم توصف بالشذوذ لضعف روايتها، ولا لأنها تحتوي ظواهر لهجية غير شائعة في اللسان الفصيح، فمثل هذه القراءات مهجور، لا يحرص عليه أحد، وإنما سمي الشاذ شاذاً لأنه خارج عن سبعة ابن مجاهد»(٢).

تنبيه على مصطلح الشذوذ في القراءات:

أولاً: أحدثَ تسبيع ابن مجاهد القراءات إشكالاً في فهم الحديث النبوي الشريف

---

(١) النساء ١٢.

(٢) شاهين، عبد الصبور: أثر القراءات في الأصوات، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٩٧م، ص٧-٩.

«أنزل القرآن على سبعة أحرف» فظن البعض أن الحروف السبعة هي القراءات السبعة، وهذا ليس صحيحاً؛ لآن هناك القراءات الثلاث المتممة، هي قراءات متواترة.

ثانياً: قد يكون متن القراءة صحيحاً، ولكن سندها فيه علة، فيحكم على القراءة بالشذوذ، والأولى أن ينبه على صحة المتن، والإشارة إلى علة السند.

وليس الأمر كما قال عبد الصبور شاهين، أن القراءات الشاذة سميت شاذة لخروجها عن سبعية ابن مجاهد.

ومما لاشك فيه أن تفسيرات الصحابة القراءة المدرجة ـ مجازاً ـ كانت عوناً للفقهاء على فهم الآيات؛ كتفسير ابن مسعود «والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما».

وقد اقتصر الباحث في مبحث الحمل على الجوار على القراءات المتواترة فقط.

المبحث الخامس

ضابط النسق اللفظي

«النَّسَقُ من كل شيء ما كان على طريقة نِظامٍ واحد عامٌّ في الأشياء وقد نَسقْتُه تَنْسِيقاً»(١).

ولدراسة الظاهرة اللغوية في القرآن الكريم لا بد من مراعاة الأمور التالية:

أولاً: استقراء جميع الآيات التي اشتملت على اللفظ الْمُتَّخذ ظاهرة، فإذا تخلفت آية فيكون النسق قد اضطرب.

«ودراسة النص القرآني لا يجيز لنا أن نفسر حرفاً أو لفظاً قرآنياً دون استقراء لمواضع وروده في المصحف كله، ولا أن نتناول موضوعاً قرآنياً أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية دون استيعاب لنظائرها فيه، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة وسياقها العام في الكتاب المحكم»(٢)، ولم يعبأ بهذا الأمربعض الباحثين(٣).

ثانياً: دراسة السياق القرآني؛ لأن اللفظ الواحد معجمياً يتعدى معناه في السياق، فضابط المعنى هو السياق، فالألفاظ إذا ماأحسن نظمها في السياق، فإنها تكوّن عقداً كلامياً متناسقا، وتبلغ المعنى إلى المتلقي، والقرينة هي التي تضبط المعنى، وقد تنقله إلى الضد، خلافاً للمجرد من القرينة.

---

(١) لسان العرب: ج١٤، ٢٤٧.

(٢) عبد الرحمن، عائشة: من أسرارالعربية في البيان القرآني، دارالأحد، بيروت، ١٩٧٢م، ص١٠.

(٣) انظر عودة خليل عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، مكتبة المنار، الأردن، دون سنة الطبع ورقم الطبعة، ص٥٢٣، يقول: «وربما يرد المعنى المخالف للمعنى الاصطلاحي في آية أوآيتين، ولا يكون ذلك كافياً لنقض المعنى الاصطلاحي التي اتفقت الآيات الأخرى على بيانه».

ثالثاً: الاطلاع على جميع القراءات القرآنية ورواياتها المتواترة، وعدم الاكتفاء برواية واحدة واتخاذها أصلاً، وهذا ما أغفله كثير ممن بحث في الإعجاز القرآني.

رابعاً: هناك ألفاظ تنطبق عليها القاعدة القائلة «إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا» بمعنى إذا ورد اللفظان في سياق واحد، فإن فرقاً دلالياً بينهما، وإذا وردا في سياقين متفرقين فإن الدلالتين تتقاربان، كالإيمان والإسلام في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾(١).

فالضابط المعياري للنسق القرآني هو السياق، فالألفاظ خارج السياق حبات لؤلؤ متناثرة، فإذا ما أحسن نظمها في السياق، فإنها تكوّن عقداً كلامياً متناسقاً، وتبلغ المعنى إلى المتلقي.

المطلب الأول: تنوع الدلالة حسب السياق:

أ ـ رجل، رجال:

ارتبط في ذهن كثيرمن الناس أن لفظة «رجل» لها دلالة المهابة والاحترام، معتمدين في ذلك على بعض الآيات التي تشيرإلى ذلك، كقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾(٢).

واستوقفني قول للشعراوي يقول فيه: «وساعة تسمع كلمة «رجال» في القرآن الكريم، فاعلم أن المقام مقام جد وثبات على الحق، وفخر بعزائم صلبة، وقلوب رسخ فيها الإيمان رسوخ الجبال»(٣).

---

(١) الحجرات ١٤.

(٢) الأحزاب ٢٣.

(٣) الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، أخبار اليوم ج١٩، ص١١٩٨٣.

وقال محمود عمارة «وكذلك قول لمحمود عمارة يقول فيه: «غيرة محروسة بالرجولة، كان مؤمن =

فهل لفظا «رجل ورجال» في القرآن لها نفس الدلالة؟ أم أن الدلالة يحددها السياق؟

«رجل ورجال» وردا في سياق مواقف البطولة والشهامة، وفي غيرذلك، وباستقراء الآيات التي اشتملت على اللفظين، وقف الباحث على الدلالات التالية التي صاحبت لفظي «رجل ورجال» في القرآ، ؛ وهي:

* الحُـر:

قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾[1].

يقول القرطبي: وظاهر الخطاب يتناول الذين يتداينون، والعبيد لا يملكون ذلك دون إذن السادة[2].

* الضعف والإعياء

﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ و﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ و﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[3].

= آل فرعون رجلاً، وكان على الحق غيوراً، غيرة محكومة بهذه الرجولة المؤمنة، فمن بركات الرجولة الانضباط، فعقل الرجل يمضي أمامه، يسعى نوره بين يديه، ومن ورائه بقية ملكاته، فلا يضل بعون الله ولا يزل، بعدما ملك بالتفكير هياج العواطف في اللحظات الحرجة».

عمارة، محمود: غيرة محروسة بالرجولة، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط١، ١٤١٧هـ١٩٩٧م، ص٣٦.

(١) البقرة ٢٨٢.

(٢) الجامع لآحكام القرآن: ج٣ ـ ص٣٥٣، ٣٥٤ «وقال مجاهد: المراد الأحرار، واختاره القاضي أبو اسحاق، وقال مالك وأبو حنيفة والشافعي وجمهور العلماء: لاتجوز شهادة العبد، وغلبوا نقص الرق، وأجازها الشعبي والنخعي في الشيء اليسير، والصحيح ـ الكلام لازال موصولاً بالقرطبي ـ قول الجمهور».

(٣) النساء ١٢، ٧٥، الجن٦.

الكلالة: من مات وليس له ولد؛ لأن الأب والابن طرفان للرجل، فإن ذهبا تكلله النسب، والكلالة: الإعياء.

*الصغير والكبير:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾(١).

* من جنس البشر:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

* الصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾(٣).

* موصوف بالجنون والسحر والافتراء:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

* ظالم ومظلوم، قوي وضعيف:

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾(٥).

---

(١) النساء٧.

(٢) الأعراف ٦٣.

(٣) هود ٧٨، انظر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ غافر ٢٨.

(٤) المؤمنون ٣٨، انظر «إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً».

(٥) القصص ١٥.

*الدهاء:

﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾(١).

* خادم ومخدوم:

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾(٢).

*الوجاهة:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٣).

* النخبة:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾(٤).

*الذكورة والاستواء:

﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾(٥).

*الثقة بالله:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٦).

* درجة تفضيل في البدن والإنفاق والدية والميراث:

---

(١) الأحزاب ٤.

(٢) الزمر ٢٩.

(٣) الزخرف ٣١.

(٤) الأعراف ١٥٥.

(٥) الكهف٣٧.

(٦) المائدة ٢٣.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ و﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾(١).

*غني وفقر:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا... إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾(٢).

* الطهارة والمخاطبة بالجمعة والجماعات:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ و﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾(٣).

الثامن عشر: الصدق مع الله في الجهاد:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾(٤).

* البلوغ والمعاصرة:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾(٥).

* المشي على الأرجل «راجلين»:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ و﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ

---

(١) البقرة ٢٢٨.

(٢) الكهف ٣٢ـ٣٩.

(٣) التوبة ١٠٨، النور ٣٧.

(٤) الأحزاب ٢٣.

(٥) الأحزاب ٤٠.

ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(١).

الحادي والعشرون: عدم الرغبة في النساء «عِنِّين»:

﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾(٢).

* الشذوذ والانحراف الجنسي:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾(٣).

وكفى بالدلالة الأخيرة «الشذوذ والانحراف الجنسي» دليلاً على قلب كل الموازين.

* العجز:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾(٤).

ب ـ الماء والمطر والغيث:

«الشعر الجاهلي والمعاجم وبعض المفسرين لم يلحظوا الفرق بين المطر والغيث في القرآن، أما القرآن، فقد جعل بينهما فرقاً واضحاً، وأعطى كلاً منهما دلالة مميزة، وجعل كلاً منهما مصطلحاً قائماً بذاته عند كل من يتحرى الدقة في فهم آيات الله ومعانيه، ... وأما المطر فهو في القرآن عكس ذلك كله، وقد وردت الكلمة خمس عشرة مرة، وهو نقمة الله على

(١) البقرة ٢٣٩.

(٢) النور ٣١.

(٣) الأعراف ٨١.

(٤) النساء ٧٥.

الكافرين والمعرضين.. وآيات القرآن تقرر ذلك بوضوح، بطريقة تشعر أن المطر صار علماً على وسيلة العقاب والعذاب، فهو يذكر في الآية الكريمة مفرداً دون أن تتبعه صفة محددة؛ لأنه أصبح محدداً معروفاً»(١).

«قال سفيان بن عيينة: ما سمى الله المطر في القرآن إلا عذاباً وتسميه العرب الغيث».

قال السيوطي: «استثني من ذلك ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ﴾(٢) إن كان بكم أذى من مطر ـ فلأن المراد به الغيث قطعاً»(٣).

وبناءعلى ماتقدم فإن المطر دال على العذاب، وإن الغيث والماء دالان على الرحمة، فهل هذا مطلق أم مقيد؟

ورد لفظ «أمطرنا» ست مرات، و«أُمْطِر» مرة واحدة ﴿وَإِذْ قَالُوا اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٤)، وأمطرت مرة واحدة ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾(٥).

ومطر ومطراً وممطرنا ثماني مرات، قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾(٦).

---

(١) عودة، خليل عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، مكتبة المنار، الأردن ص٥٠٦، ٥٠٧.

(٢) النساء ١٠٢.

(٣) الثعالبي: فقه اللغة وأسرارالعربية، مكتبة الخانجي ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص٥٢٤، الإتقان ج١ ص٥٢٤، وقال الجاحظ: «المطر لا يلفظ به إلا في مواقع الانتقام» انظر: التبيان والتبيين ج١، ص٢٠ وانظر: التفسيرأساسياته واتجاهاته ص٤٢١، وقال أبو عبيدة: «إذا كان في العذاب فهو أمطرت، وإذا كان في الرحمة فهو مطرت» انظر: مجاز القرآن: ج١، ٢٤٥.

(٤) الأنفال ٣٢.

(٥) الفرقان ٤٠.

(٦) النمل ٥٨.

وأما الماء «معرّفة ومنكّرة» فقد ورد لفظه في القرآن الكريم ثلاثاً وستين مرة(١).

منها قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾(٢).

وأما الغيث فقد ورد على صيغة الفعل بمعنى طلب المساعدة والنجدة خمس مرات «يغاث، فاستغاثه، يستغيثان، تستغيثون، يستغيث» منها قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(٣).

وللوقوف على دلالات هذه الألفاظ «المطر والماء والغيث» لابد من دراسة الآيات القرآنية دراسة مستفيضة، وتعزيزالدراسة بجملة من الأحاديث النبوية الشريفة، وطائفة من الشعر العربي.

ومن الأمثلة على ورود لفظ المطر في سياق العذاب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾(٤).

ومن الأمثلة التي لا دلالة فيها على أن لفظ المطر للعذاب قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ﴾ وقال: مطر وأمطر بمعنى واحد، وهذا ما استثناه السيوطي.

وأما الأحاديث النبوية الشريفة، فمنها:

«قَالَ أَنَسُ: وَلَا وَاللهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةً وَلَا شَيْئًا، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ

---

(١) عبد الباقي، محمد: معجم ألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت ص٦٨٤.

(٢) البقرة٢٢.

(٣) الأنفال٩.

(٤) هود٨٢.

انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا»(١).

وعلى هذا فإن القرآن استخدم لفظ مطر في العذاب وفي غيره.

واستعمل الرسول لفظ المطر في الرحمة، فعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ـ عليه السلام ـ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ فَأَصَابَنَا مَطَرٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّبْحَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ قَالَ اللهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللهِ وَبِرِزْقِ اللهِ وَبِفَضْلِ اللهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَجْمِ كَذَا فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ كَافِرٌ بِي»(٢).

ويرى الباحث أن الفعل «مطر» يحمل الخير و الشر، كما ورد في الحديث الآنف الذكر، والسياق كبرى القرائن، وأما الفعل «أمطر» فيحمل السلبية؛ لأن الهمزة الزائدة على الفعل أعطته معنى السلب والإزالة، كقوله تعالى: ﴿القرية التي أمطرت مطر السوء﴾(٣).

وأما الماء، فقد وقع في القرآن للرحمة والعذاب، ومن الآيات الدالة على الرحمة في الماء قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾(٤).

ومن الآيات الدالة على العذاب في الماء ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾(٥).

ولو تُدّبرتِ الآياتُ التي يُرى في ظاهرها العذاب ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ والتي ظاهرها الرحمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم الحديث ٢٠٧٨، ص٣٥٩.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحيبية، رقم الحديث: ٤١٤٧، ص٧٠٥.

(٣) الفرقان ٤٠.

(٤) سورة «ق» ٩.

(٥) القمر ١١.

بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾(١)، فلو تدبرت حق التدبر لوجِد أن لفظ الماء حمل الإيجابية والسلبية في آنٍ واحد، ففي قصة طوفان نوح ـ عليه السلام ـ يلحظ فيها أن الماء كان إيجابياً لنوح ـ عليه السلام ـ ومن معه، حيث كان سبباً في جري السفينة، وكان سلبياً على الكفار، فكان سبباً في إغراقهم.

وكذلك الماء في غزوة بدر أيضاً حمل الايجابية للمسلمين فطهرهم وأذهب عنهم رجز الشيطان وربط على قلوبهم وثبت به الأقدام، وتماسكت الأرض تحت أرجلهم، في حين وحلت الأرض تحت أقدام المشركين فغاصت أرجل خيولهم وأعاقت حركتهم.

وأما الغيث فأيضاً ورد في سياق الرحمة والعذاب، ومن الآيات الدالة على الرحمة في الغيث قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(٢).

وأما الآيات الدالة على العذاب في الغيث ففي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(٣).

المطلب الثاني: الجمع والإفراد:

ريح ورياح:

﴿لم يأت لفظ الريح في القرآن إلا في الشر، والرياح إلا في الخير﴾(٤).

أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أبيّ بن كعب قال: «كل شيء في القرآن من الرياح

---

(١) الأنفال ١١.

(٢) انظر ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ـ لقمان ٣٤.

(٣) الكهف ٢٩.

(٤) فقه اللغة: ج٢، ص٦٥٢.

فهي رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب»[١].

وقال ابن عطية[٢]: «والرِّياحِ جمع ريح، وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب، إلا في يونس في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[٣].

وللوقوف على دلالة هذين اللفظين «ريح ورياح» لا بد من الانتباه إلى نقطتين أساسيتين؛ هما:

القرينة والقراءات المتواترة، فكلا اللفظين ورد موصوفاً ومجرداً عن الوصف، فالريح وصفت بالصرصر والعاتية والعقيم، والطيبة والرخاء، والرياح وصفت بالمبشرات واللواقح، ووردا بلاوصف «يسكن الريح، تصريف الرياح، تذروه الرياح»، وأما القراءات فإن حمزة والكسائي يوحدان الرياح في جميع القرآن[٤].

وقال امرؤ القيس:

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه:

---

(١) ابن أبي حاتم: تفسيرالقرآن العظيم، تحقيق: أسعد الطيب، المكتبة العصرية، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م، ج١، ص٢٧٥، انظر: الإتقان، ج١، ٥٢٤، و التطور الدلالي: ص٥١٠.

(٢) ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز ج١، ص١٣٣.

(٣) يونس٢٢.

(٤) وابن كثير وحد الرياح في الأعراف والنمل والروم وفاطر والشورى ولقمان، وجميع القراء باستثناء نافع بالجمع (رياح) في ابراهيم والشورى.
واما أبو جعفر فكل ريح معرفة بالألف قرأها بالجمع «الرياح».

إن الذين بنـوا فطـال بناؤهم واستمتـعوا بالأهل والأولاد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على مـيعاد

والمتأمل في هذين القولين يجد أن الأمر ليس كما قيل بأن الريح للعذاب، والرياح للرحمة، فهذا امرؤالقيس يستخدم «الريح» في الخير، وعلي بن أبي طالب يستخدم «الرياح» في الشر.

واستدلال مَن فرّق بين الدلالتين لم يقم على استقراء تام، واعتمدوا على أحاديث منها:

أن عائشة رضي الله عنهما قالت: «ما رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضاحكاً أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم، قالت: وكان إذ رأى غيماً أو ريحاً عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله: إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: يا عائشة ما يؤمني أن يكون فيه عذاب، عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾(١).

وعَنْها ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى الرِّيحَ قَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»(٢).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب: قوله تعالى ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل...﴾ رقم الحديث: ٨٢٩، ص٨٥٤.

(٢) سنن الترمذي: كتاب الدعوات، باب مايقول إذا هاجت الريح، رقم الحديث: ٣٤٤٩ ـ ص٧٨٤ ـ صحيح، ورواه ابن السني في أعمال اليوم والليلة، باب ما يقول إذا هبت الريح، دار البيان، دمشق، ط٣ ـ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، رقم الحديث ٢٩٨، ص١٤٦، وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم- يقول «الريح من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب، فلا تسبوها، ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها» انظر: البخاري، محمد بن إسماعيل: الأدب =

فالمتأمل في هذا الحديث يدرك أن لفظ «الريح» حَمَل دلالتين متضادتين، فالرسول ـ عليه السلام ـ يسأل اللهَمن خيرهذه الريح ويستعيذ من شرها.

وذكر الطبري تصريف الرياح إياها أن يرسلها مرة لواقح، ومرة يجعلها عقيماً، ويبعثها عذاباً تدمر كل شيء بأمر ربها.

وعن قتادة قوله: «وتصريف الرياح والسحاب المسخر» قال: «قادر والله ربنا على ذلك، إذا شاء جعلها ريحاً عذاباً، ريحاً عقيماً لاتلقح، إنما هي عذاب على من أرسلت عليه»(١).

الدلالات التي تضمنها لفظ «ريح»:

* البرد الشديد، صوت لهب النار:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾(٢)، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(٣).

* السكون و التوسط والشدة في السرعة:

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ و﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾(٤).

* الإرسال إلى مكان بعيد «كناية عن العذاب»:

= المفرد، مراجعة محمد هشام البرهاني، المطبعة العصرية، الإمارات العربية المتحدة ١٤٠٢هـ ١٩٨١م، ص٣١٤.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٢، ص٧٨ ـ البقرة ١٦٤.

(٢) آل عمران ١١٧، الحاقة ٦.

(٣) الحاقة ٦.

(٤) الشورى ٣٣، يونس٢٢.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(١).

❋التسخير والاستقرار:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾(٢).

❋البركة:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾(٣).

❋ العذاب الأليم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

❋ لا خير فيها ولا تلقيح:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾(٥).

❋الرائحة:

﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾(٦).

❋السحاب المسبب للإنبات:

---

(١) الحج ٣١.

(٢) سبأ ١٢.

(٣) سورة «ص» ٣٦.

(٤) الأحقاف ٢٤.

(٥) الذاريات ٤١.

(٦) يوسف ٩٤.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾(١).

الضمير عائد على محذوف، تقديره هو: «الزرع».

* القوة:

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢).

* النصر والهزيمة:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾(٣).

فالريح في غزوة الأحزاب حملت بين جنبيها النصر للمسلمين والهزيمة للكافرين.

المعاني التي تضمنها لفظ «الرياح»:

وأما الرياح فجاءت موصوفة وغير موصوفة، فأما الموصوفة فهي:

*مقدمات الغيث:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾(٤).

* التلقيح، للسحاب والنبات

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾(٥).

---

(١) الروم ٥١.

(٢) الأنفال ٤٦.

(٣) الأحزاب ٩.

(٤) الفرقان ٤٨.

(٥) الحجر ٢٢.

وأما غير الموصوفة، فحملت الدلالات التالية:

*عقيماً، وملقحة، وصرّاً، ونصراً، وهلاكاً، وحارة، وباردة، ولينة، وعاصفة(١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ.... وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

و﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾(٣).

*الذم والسلبية:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾(٤).

وبعد الاطلاع على هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر العربيّ يخلص الباحث إلى أن الريح مفردة جاءت في مواطن دالة على العذاب «صرصر، وعاتية.......» وجاءت في مواطن أخرى دالة على الرحمة والخير «طيبة، رخاء..... الخ».

وكذلك الرياح وردت للمدح والبشرى «لواقح، بشراً، بشرى، وجاءت للذم تذروه الرياح».

ثالثاً: وردت كلمة «الريح» تحمل الإيجابية والسلبية في آن واحد، في قوله تعالى: ﴿إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره﴾ فلم يقل إن يشأ يسكن الرياح، فهي ريح وهي متحركة «إيجابية» وريح ساكنة «سلبية».

---

(١) فتح القدير: ج١، ص١٦٤.

(٢) البقرة ١٦٤.

(٣) البقرة ١٦٤، فاطر٩.

(٤) الكهف ٤٥.

رابعاً: الاستدلال بأحاديث ضعيفة لا تنهض بها حجة ولا تقوم عليها دعامة، لاسيما إذا وردت روايات صحيحة تخالفها.

خامساً: كما أشار الباحث في صدرهذا المبحث، فإن الاعتماد على بعض القراءات المتواترة، وإغفال غيرها من المتواترة، يرد الاستدلال بالتفريق بين اللفظين «الريح والرياح»، فإعجاز القرآن الكريم في القراءات كلها، وإن كان يمكن توجيه قراءة غيرتوجيه أختها

المبحث السادس

خروج بعض الألفاظ عن النسق

المطلب الأول: التغاير بين لفظين

أ ـ أجراً، مالاً:

ورد لفظ «أجر» على لسان الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم تسع مرات.

قال تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ و﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾.

وورد لفظ «مال» مرة واحدة ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾[١]، فما سر هذا التغاير في إيراد اللفظين؟

أشار البقاعي[٢] إلى المسألة، فقال: فيه تلقين للجواب عن قريش في قولهم ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾[٣]، فناسب الكنز أن يقابله مالًا.

وهذا توجيه يبدو مقبولاً، ولكن المسألة متعلقة بعناصر أربعة اجتمعت في سورة هود، هي:

أ ـ الكنز في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلّكّتارِكٌ بَعْضَ ما يوحى إلَيْكَ وضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أنْ يَقولوا لَولا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾[٤].

---

(١) هود ٢٩.

(٢) نظم الدرر: ج٩، ٢٧٤.

(٣) هود ١٢.

(٤) هود ١٢.

ب ـ المال في قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾.

ج ـ الملأ: في قوله تعالى: ﴿ فَقالَ المَلأُ الّذينَ كَفَروا مِنْ قَوْمِهِ﴾(١).

د ـ الخزائن: في قوله تعالى: ﴿وَلا أقولُ لَكُمْ عِنْدي خَزائنُ الله﴾(٢).

ولم تجتمع هذه العناصر الأربعة إلا في سورة هود، ولم يرد لفظ الملأ مع الأجر في القرآن كله، بينما ذكر «الملأ» في سورة هود، فناسب الملأ المال ولم يناسبهم الأجر؛ لأن الملأ أهل الدثور، والمال يناسبه الكنز، وكذلك المال يناسبه الخزائن؛ لأن الأجر قد يكون معنوياً، فلا يلزمه خزائن، وبالتالي فإن العناصر الأربعة تبدو متوازية «المال والكنز والخزائن والملأ».

ب ـ ربِّ، يا ربِّ، اللهم ربنا.

وقع لفظ «ربِّ» منادى في مقام الدعاء، محذوفاً منه حرف النداء «يا» في القرآن كله إلا في موضعين اقترن بهما حرف النداء «يا»؛ وهما:

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

واقترن «اللهم» و«ربنا» في آية واحدة هي قوله تعالى ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾(٥).

بينما ورد لفظ «اللهم» أربع مرات منها قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَـذَا هُـوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٦)،

---

(١) هود ٢٧.

(٢) هود ٣١.

(٣) الفرقان ٣٠.

(٤) الزخرف ٨٨.

(٥) المائدة ١١٤.

(٦)

وقوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٣).

لا شك أن حذف حرف النداء دال على قرب المنادى من المنادي، ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «يا رب» في الفرقان والزمر هضماً لنفسه ومبالغاً في التضرع(٤).

وأما «اللهم» فهو الاسم العلم المتضمن لجميع أوصاف الذات، وذكر ابن الخشان الموصليّ أن «اللهم» تستخدم لتمكين الجواب في نفس السائل كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لضمام بن ثعلبة رضي الله عنه حيث قَالَ: «أَنْشُدُكَ بِالله أَاللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ قَالَ: اللهُمَّ نَعَمْ»(٥).

وقال الحرالي: لعلو منزلة هذه السورة كثرالإقبال فيها بالخطاب على النبي ـ عليه السلام ـ(٦).

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤) نظم الدرر: ج١٧ ـ ص٥٠٠ أما اقتران «اللهم» بفعل الأمر «قل» في سورة آل عمران، فإن سبب النزول بيّن ذلك، قال ابن عباس وأنس بن مالك ـ رضي الله عنهم ـ لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ فأنزل الله « قل اللهم» انظر التفسير الكبير: ج٨، ص٢، روح المعاني: ج٣، ص١٨١.

(٥) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب: القراءة والعرض على المحدث، رقم الحديث ٢٩٨، ص١٤٦٠.

(٦) نظم الدرر: ج٣، ص٣٠٩.

وأما دعاء الكفار ـ المستهزأ به ـ «وَإِذْ قَالُوا اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» ولم يستعملوا كلمة «ربنا» إظهاراً منهم لتحدي ذي الجبروت؛ لأن «الله» اسم جامع لكل صفات الجمال والكمال والجبروت، بينما «ربنا» فيه اللطف والربوبية والتربية والرعاية.

وأخيراً نداء عيسى عليه السلام «اللهم ربنا» ابتدأ بـ«اللهم» رداً على تحدي الحواريين بقولهم ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾(١).

وقرأ الكسائي «هل تستطيع ربك»؛ أي هل تستطيع أن تسأل ربك فقول عيسى ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ثم تهديد الله ـ عزوجل ـ بقوله: ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأن القوم إذا طلبوا من نبيهم معجزة، وأيده الله بها ثم كفروا بها، فإن عذاباً يحل بهم، فكل ذلك يدل على التحدي، ومع هذا فإن عيسى ـ عليه السلام ـ يبقى شفوقاً على أتباعه، فأردف نداءه «اللهم» الدال على الجبروت بقوله «ربنا» مستشعراً ربوبية خالقه ولطفه وكرمه، وكرر عيسى النداء مبالغة في التضرع والله تعالى أعلم.

ج ـ أكله الذئب:

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾(٢).

والمراد: قتله الذئب، ثم أكله دون أن يبقى منه شيئا ندفنه(٣).

فأما قوله ﴿فأكله الذئب﴾ فإن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب،

---

(١) المائدة ١١٢.

(٢) يوسف ١٧.

(٣) الوسيط: ج٧، ص٣٢٩.

وأصل الفرْس: دق العنق، والقوم إنما ادعو على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولاعظماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باقٍ منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرْس لايعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبرعنه إلا بالأكل، على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وفي غيره من السباع(١).

وحكى ابن السكيت قولهم: «أكل الذئب الشاة فما ترك منها تاموراً؛ أي شيئاً»(٢).

وقالت زينب بنت سلمة الطثرية «ت ١٣٥هـ».

فتى ليس لابن العم كالذئب إن رأى بصاحبه يوماً دماً فهو آكله(٣).

وبعد هذه الأقوال في دلالة «أكل» أنها تعني الإتيان على الشيء بالكامل، وهذا المعنى يجري على هذه الآية، ولايجري على غيرها، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ... وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾

فإذا أتى السبع على الشاة كلها ولم يبق شيئاً، ماذا عسانا أن نأكل بعده؟

ومن هنا كان ابن عاشور دقيقاً في استنباط دلالة «أكله» فقال: «قتله وأكل منه»، والمراد بالذئب جمع من الذئاب على ما عرفت آنفاً عند قوله «وأخاف أن يأكله الذئب» بحيث لم يترك الذئاب منه، ولذلك لم يقولوا: فدفنّاه(٤).

---

(١) الخطابي، حمد بن محمد: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: الرسالة الأولى، تحقيق محمد خلف الله ورفيقه، دار المعارف، ط٤، دون سنة الطبع، ص٤١.

(٢) ابن السكيت، يعقوب، إصلاح المنطق، تحقيق: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ج١، ص٢٧٣.

(٣) القالي، إسماعيل، الأمالي، وضع وترتيب: محمد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٤٤هـ، ١٩٢٦م، ج٢، ص٨٥.

(٤) التحرير والتنوير: ج١٢، ص٢٣٧.

د ـ المرأة والزوج:

تقول عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»:

«في آية الزوجية يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) و﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٢)، فإذا تعطلت آيتها من الوحدة النفسية والسكن والمودة والرحمة بخيانة أو تباين في العقيدة؛ فامرأة لازوج ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾(٣)، وحكمة الزوجية في الإنسان وسائرالكائنات الحية من حيوان ونبات هي اتصال الحياة بالتوالد، وفي هذا السياق يكون المقام لكلمة زوج وزوجين وأزواج من ذكر وأنثى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(٤)، فإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر بعقم أو ترمل فامرأة لازوج، كالآيات في امرأة إبراهيم وعمران، وتضرع زكريا ـ عليه السلام ـ إلى الله ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾(٥)، ثم لما استجاب له ربه وحققت الزوجية حكمتها، كانت آية الأنبياء، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾(٦)، وفي آيات التشريع تتعلق الأحكام بالزوج والأزواج، حين تكون الزوجية منظوراً إليها في الحكم، كأحكام المواريث، ويأتي حكم العدة متعلقاً بالنساء لا بالأزواج،

---

(١) الروم ٢١.

(٢) الفرقان ٧٤.

(٣) يوسف٣٠، وانظر التحريم ١٠ ـ١١.

(٤) النساء ١، انظر: هود٧١، ، يس ٣٦، الذاريات ٤٩، النبأ٨، المؤمنون ٢٧، الأنعام ١٣٩، الزمر ٦.

(٥) مريم ٥، انظر آل عمران ٤٠.

(٦) الأنبياء ٩٠.

وفي الطلاق من حيث إنهاء لعلاقة زوجية غير صالحة ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[(١)] ومثله الإيلاء ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[(٢)]، أما عدة الوفاة، فيتعلق حكمها بالأزواج، إذ ليس الانفصال بالموت كالانفصال بالطلاق أو الإيلاء»[(٣)].

يكاد يشكل هذا الاستنباط ظاهرة مطردة، لولا بعض الآيات التي كسرت هذا النسق، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبيناً﴾[(٥)].

تفوح من هذه الآية رائحة اضطراب العلاقة الزوجية، ونهي الأزواج عن عضل زوجاتهم وأخذ شيء منهن ليطلبن الطلاق.

فالقرآن استخدم لفظ «زوج» ولم يقل «امرأة» حال نشوب اضطراب العلاقة الزوجية، كما استنبطت عائشة عبد الرحمن.

---

(١) البقرة ٢٣٦.

(٢) البقرة ٢٢٦.

(٣) من أسرار العربية في البيان القرآني، ص٤٦، ٤٧، انظر: المطعني، عبد العظيم: خصائص التعبير القرآني، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ص٢٩١.

(٤) الأحزاب ٢٨، وسبب نزول هذه الآية أن بعض نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سألنه شيئاًمن النفقة، فاعتزل الرسول ـ عليه السلام ـ نساءه شهراً، ونزلت الآية لتخييرهن إما الطلاق وإما الإمساك، فهذا يعني أن العلاقة الزوجية اضطربت، ومع ذلك عبرالقرآن الكريم عن هذه العلاقة بـ«أزواجك»، في حين عبرعن علاقة مشابهة بـ«امرأة»، وذلك في قوله تعالى ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

(٥) النساء ٢٠.

وقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[(١)].

فهذه امرأة أبي لهب على دين بعلها، ولم تتعطل الحكمة الزوجية بعقم، فكيف استخدم القرآن لفظ «امرأة»، ولم يستخدم لفظ «زوج» مع أنها على دين زوجها أبي لهب؟

وجاء لفظ «امرأة» في معرض المدح قوله تعالى ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾[(٢)].

وفي معرض الذم قوله تعالى ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط﴾[(٣)].

وضابط ذلك كله السياق.

هـ: النسق العددي:

يوم، يومان، أيام، شهر

ذكر بعض الباحثين[(٤)] في الإعجاز العددي أو الحسابي أن كلمة «يوم» وردت في القرآن ثلاث مئة وخمساً وستين مرة، وهذا يشكل نسقاً عددياً في القرآن، حيث يتطابق مع عدد أيام السنة،

وكذلك وردت كلمة «يومين والأيام»، جمعاً ومثنى، ثلاثين مرة، بعدد أيام الشهر[(٥)].

يتعامل النظم القرآني مع السنة القمرية في الحساب، وليس مع السنة الشمسية،

---

(١) المسد ٤.

(٢) الأحزاب ٥٠.

(٣) التحريم ١٠.

(٤) الخالدي، صلاح: البيان في إعجاز القرآن، دار عمار، ١٩٨٩م، ص٣٦٤.

(٥) الكهف ٢٥.

لقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(١).

والسنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية أحد عشر يوماً تقريباً.

وأما عدد أيام الشهر، فهي بين التسعة والعشرين والثلاثين، وأشار إلى ذلك ـ صلى الله عليه وسلم بقوله «الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَخَنَسَ الْإِبْهَامَ فِي الثَّالِثَةِ(٢).

وكأن الأصلَ في عدد أيام الشهرتسع وعشرون، وأن الثلاثين حالة استثنائية، فعن ابن الزبيرأنه سمع جابراً يقول: «هجر رسول الله نساءه شهراً، فكان يكون في العلو، ويكنّ في السفل، فنزل النبيّ إليهنّ في تسع وعشرين ليلة، فقال رجل: يارسول الله إنك مكثت تسعاً وعشرين ليلة، فقال رسول الله: إن الشهر هكذا وهكذا بأصابع يديه مرتين، وقبض في الثالثة إبهامه»(٣).

فدلالة اللفظة القرآنية لايسد مسدها لفظ آخر، ولو كان من القرآن نفسه، وكذلك الدلالة المعجمية لا تفي المعنى حقه.

* * *

---

(١) يونس ٥.

(٢) متفق عليه. ولفظ مسلم «هكذا وهكذا وهكذا وقبض إبهامه في الثالثة».

(٣) مسند أحمد، رقم الحديث ١٤٥٨١، ص١٠١٦.

الفصل الثالث:

مجالات الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة

المبحث الأول

الاشتراك اللفظي

يعتبر الاشتراك اللفظي من القضايا اللغوية التي شغلت العلماء ـ القدماء والمحْدَثين ـ وتباينت آراؤهم حول أهمية وجوده أو غزارته في اللغة، وهو من العلاقات الدلالية كما قال الجرجاني: «ليس الغرض بنظم الكلمة إن توالت ألفاظها في النطق، بل إن تناسقت دلالاتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»(١).

وظاهرة الاشتراك اللفظي تشكل جزءاً مهماً من تراثنا اللغويّ والأدبيّ، ذلك أن مواقف العلماء منه متباينة، والخلاف بينهم ماثل، فمنهم من يعتبره دليل ضعف عن عرض المعاني وأغراضها، ومنهم من ينظر إليه على أنه عنصرأساسي وعامل خطيرمن عوامل الغموض، فيعد وجوده ظاهرة سلبية؛ لأنه يسلب النص عامل الوضوح والجلاء، ذلك لأن أبلغ الكلام ما أميط اللثام عن معناه، بينما يعده آخرون دليلاًعلى ثراء اللغة واتساعها في التعبير.

وهذا ما جعل من الاشتراك اللفظي موضع اهتمام الفقهاء والأصوليين والمفسرين والباحثين في بلاغة القرآن وإعجازه، وشحذ هممهم، وإعمال فكرهم، وحفزهم على البحث من أجل الوصول إلى نتائج متوازية، والتحقق مما يرتبط بهذه الظاهرة من شبهات وملابسات.

تعريف الاشتراك اللفظي عند القدماء:

*سيبويه «ت١٨٠هـ»: ذكرالاشتراك في تقسيمات الكلام، فقال: «اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق

---

(١) دلائل الإعجاز: ص٤١.

اللفظين والمعنى مختلف»[١].

وأما تعريف الاشتراك اللفظي عند المحْدثين فإنه لايختلف عنه عند المتقدمين، فقالوا: «هو أن يدل اللفظ الواحد على أكثر من معنى»[٢].

ولو ألقيت نظرة تأملية على ما ذكره سيبويه في تعريفه المشترك لتبين أن سيبويه لم يضع الأسس والقواعد لهذه الظاهرة اللغوية، أوهذا المصطلح، فهو لم يُقعّـدِ لها، وهذا شأن كل العلوم في بواكيرها، وإنما كانت إشارات غير واضحة المعالم.

وقد ضمّن بعض القدماء الاشتراك اللفظي في ثنايا مصنفاتهم، ولم يفردوا له كتبا مستقلة، وهذا حال كثيرمن العلوم في بداية نشأتها، مثل «الملاحن» لابن دريد، وكتب إعجاز القرآن وعلومه.

ثم أفرِدتْ كتب في الاشتراك اللفظي، ومن الذين صنفوا في الاشتراك اللفظي:

عكرمة بن عبد الله المدني، مولى ابن عباس «ت ١٠٥هـ» و علي بن أبي طلحة «ت١٤٣هـ» ومقاتل بن سليمان «ت ١٥٠هـ» و يحيى بن سلام «ت ٢٠٠هـ» و أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي «ت٢٢٤هـ» وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بن المبارك اليزيدي «ت ٢٢٥هـ» و أبو العميثل، عبد الله بن خليد الأعرابي «ت٢٤٠هـ» أبو الحسن، علي بن الحسن بن الحسين الهنائي الأزدي «كراع النمل ت٣٢٠هـ» أبو علي، الحسن بن أحمد بن عبدالله البغدادي ـ ابن البناء ـ «ت ٤٧١هـ» وابن الجوزي «ت ٥٩٧هـ» و السيوطي «ت ٩١١هـ» وغيرهم.

ومما يلاحظ على عناوين كتب الاشتراك اللفظي تشابهها في العناوين.

---

(١) الكتاب: ص٢٤، وعرفه ابن فارس «ت٣٩٥ هـ» بقوله «أن تكون اللفظة المحتملة لمعنيين أو أكثر، كقوله تعالى: ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾، فقوله «فليلقه» مشترك بين الخبر والأمر، كأنه قال: فاقذفيه في اليم يلقه اليم، ومحتمل أن يكون اليم أمر بإلقائه»ـ الصاحبي: ص٢٦١.

وقال السيوطي «ت٩١١هـ»: وهواللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السواء عند أهل اللغة». ـ المزهر: ج١، ص٣٦٩.

(٢) علم الدلالة: ص١٦٣، انظر: دراسات في فقه اللغة، ص٣٠٤.

المطلب الأول: مواقف العلماء من الاشتراك اللفظي:

أولاً: الاشتراك اللفظي عند القدماء:

تباينت مواقف العلماء القدماء من الاشتراك اللفظي، وهذا شأن كثيرمن القضايا اللغوية وتراوحت مواقفهم بين منكر ومثبت متوسع، وبينهما فريق ثالث لم يستطع إنكاره بوضوح وجلاء؛ لأنه اصطدم بنصوص صريحة الدلالة، فضيّق دائرته.

أ ـ المثبتون:

ذهب الخليل إلى وقوع الاشتراك في اللغة، ونص على أنه كثير شائع، وتوسع في تناول هذه الظاهرة اللغوية، وتابعه في مذهبه طائفة من العلماء الأكابر من أمثال سيبويه وأبي عبيدة والمبرد وابن جني وابن فارس والثعالبي والسيوطي، وغيرهم.

وتوسعت بعض المعاجم في الاشتراك اللفظي، فقد وجد الباحث أن الفيروزأبادي في «القاموس» يذكر ما يقرب من مئة معنى لكلمة «عجوز» مثلاً، وكذا فعل صاحب «تاج العروس»، وفي هذا دلالة على ولع بعض اللغويين بالاشتراك اللفظي، والاحتفاء به وإبرازه.

ب ـ المنكرون:

ذهب بعض العلماء إلى إنكار هذه الظاهرة اللغوية وردها، منهم ثعلب والبلخي وأبو هلال العسكري، وتردد في ذلك ابن درستويه.

وسبب إنكارهم للاشتراك أن مرده إلى المجاز، بمعنى أن لكل كلمة معنى يحمل على الحقيقة، ومعانٍ أُخَر تحمل على المجاز، وكذلك فإن ابن درستويه يعتبر كثيراً من المعاني مردها إلى معنى عام يجمع كل تلك المعاني، وأن اللغة موضوعه للإبانة.

وقد نقل السيوطي كلاماً لابن درستويه يقول فيه ـ وقد ذكر لفظة «وجد» واختلاف

معانيها، هذه اللفظة من أقوى حجج من يزعم أن من كلام العرب ما يتفق لفظه ويختلف معناه؛ لأن سيبويه ذكره في أول كتابه، وجعله من الأصول المتقدمة، فظن من لم يتامل المعاني ولم يتحقق الحقائق، أن هذا لفظ واحد، وقد جاء لمعان مختلفه، وإنما هذه المعاني كلها شيء واحد، وهي إصابة الشيء خيراً أو شراً، ولكن فرقوا بين المصادر؛ لان المفعولات كانت مختلفة.

أما أبوهلال العسكري، فإن الناظر في كتابه «الفروق اللغوية» يدرك قصده من تأليفه، ذلك أنه معنيٌّ بإثبات الفروق اللغوية بين الألفاظ؛ لأنه يعتبراللغة توقيفية، والاشتراك يتعارض مع حكمة الوضع، فيقول: «وقال بعض النحويين: لايجوز أن يدل اللفظ الواحد على معنيين مختلفين حتى تضاف علامة لكل واحد منهما، فإن لم يكن فيه لذلك علامة، أشكل وألبس على المخاطب، وليس من الحكمة وضع الأدلة المشكلة، إلا أن يدفع ذلك إلى ضرورة وعلة، ولا يجيء في الكلام غير ذلك، إلا ما شذَّ وقلّ، فقوله: إلاما شذّ وقلّ، يشيرإلى وقوع الاشتراك، وهذا ما يوجد في ثنايا كتابه المذكور، عند تناوله كلمة «النفس» فيقول: ولفظ النفس مشترك يقع على الروح وعلى الذات، ويكون توكيداً، يقال: خرجت نفسه أي روحه»(١).

ووقف ابن درستويه موقف المتردد من هذه الظاهرة الماثلة في اللغة، فأنكر وجود الاشتراك في ألفاظ كثيرة، وفعل مثل ذلك ثعلب والبلخي وأبو هلال العسكري، وذهبوا إلى أن هذا الاشتراك يقع على سبيل المجاز، ولا نصيب له في الحقيقة.

فابن درستويه وأبو هلال العسكري يعترفان بالقليل النادر من الاشتراك اللفظي، ويشتركان في سبب إنكارهما للاشتراك اللفظي أنهما يعتبران اللغة توقيفية؛ استناداً لتفسير

---

(١) أبو هلال العسكري، الحسين بن عبد الله بن سهل: الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، ١٩٩٨م، ص١٠٣.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[(١)]، وهذا فهم لا إجماع عليه بين العلماء خصوصاً المفسرين منهم.

ج- المعتدلون:

يمثل هذا الفريق أبوعليّ الفارسي، فأقر بوقوعه في اللغة، ولكن ليس بالكثرة التي ذهب إليها الخليل وسيبويه، وإنما اعتدل في الرأي وضيـّق دائرة الاشتراك، فيعترف بوقوعه، ولكن ليس بالكثرة التي أوردها المغالون كالخليل وسيبويه، ولابالمنع كابن درستويه وثعلب، واعتبر أن الاشتراك مرتبط بتداخل اللغات، أو استعارة الألفاظ لمعان فرعية تصير بمنزلة معانيها الأصلية، فيقول: «اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ينبغي ألا يكون قصداً في الوضع ولا أصلاً، ولكنه من لغات تداخلت، أو تكون كل لفظة تستعمل بمعنى، ثم تستعار لشيء، فتكثر وتغلب، فتصير بمنزلة الأصل»[(٢)].

وعند إعادة النظر فيما قاله أبوعليّ الفارسيّ يتبين أنه يشارك ابن درستويه وأباهلال العسكري رأيهما في الإنكار، وجعل مرد ذلك إلى تداخل اللغات، ولم ينكر الأمر كلياً، ولكنه ضيق دائرته.

وبعد الوقوف على أراء العلماء القدامى، ومعرفة مواقفهم من الاشتراك اللفظي، فإن الباحث لم يجد أحداً من العلماء الذين وقف على آرائهم قد صرح بإنكار الاشتراك اللفظي، ولكنه يقع بشروط منها؛ عدم اختلاف اللهجات والبيئات «توافق الزمان والمكان»، وعدم ارتباط تلك المعاني برابط بلاغي أو لغوي.

---

(١) البقرة ٣١.

(٢) ابن سيده، علي بن إسماعيل: المخصص، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، دون رقم الطبعة، ج٤، ٤٢٩٥.

ثانياً: الاشتراك اللفظي عند المحْدَثين:

ولم تختلف مواقف المحْدثين عن سابقيهم، وتراوحت مواقفهم بين موسع ومضيق دون أن ينكروه، واتخذوا من دلالة السياق وسيلة تكشف عن المعنى المقصود، ومن هؤلاء العلماء:

محمد المبارك «أكثرالأصول التي تشتق منها الألفاظ للدلالة على معان جديدة ذات معان عامة، لذلك فقد تستعمل للدلالة على مسميات مختلفه تشترك في تلك الصفة أو ذلك المعنى العام»(١).

وأنكرعبد الحميد وافي أن تكون العوارض التصريفية سبباً من أسباب نشوء الاشتراك اللفظي.

---

(١) المبارك، محمد: فقه اللغة وخصائص العربية، دارالفكر، بيروت، ط٥، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ص١٩٨.

المطلب الثاني: مفردات الاشتراك اللفظي:

أ ـ معنى المفردات

الصرف:

«هو رد الشيءعن وجهه»[١] يعني إبعاده عما يكون عليه عادة، وتصريف الأمور: هو الانتقال بها من حالة إلى أخرى، والابتعاد بهاعن الاستقرار، وتصريف الآيات يعني تبيينها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾[٢].

الوجوه:

وجه الكلام: «سبيل الكلام»[٣]، «صرفتُ الشيءَ عن وجهه: أي عن سنته، وكساء موجّه: له وجهان، ويجمع وجه على أوجه ووجوه وأجوه «أجوه حسان»[٤].

الأشباه:

الشَّبه، والشِّبه بفتح الشين وكسرها، والشبيه المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله، وفي المَثَل: «من شابه أمه فما ظلم»، أي ماظلم أمه، يعني أنه ابن أبيه وأمه.

النظائر:

جمع نظير، والأنثى نظيرة، وهي المثل في الكلام والأشياء كلها، وفي حديث ابن مسعود «لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرن بينهن، قال

---

(١) لسان العرب: ج٨، ص٢٢٨.

(٢) الكهف ٥٤.

(٣) لسان العرب / ج٥ ـ ص١٦١.

(٤) المصدر السابق: ج٢، ص١٠٧، وروي موقوفاً عن أبي الدرداء»لايفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة ـ الإتقان في علوم القرآن: ج١، ص٥٠٧.

فذكر عشرين من المفصل، يعني سور المفصل، سميت نظائر لاشتباه بعضها ببعض في الطول»[١].

الغريب:

يشير مدلول لفظه إلى الغموض والإبهام وعدم الوضوح.

قال الزمخشري: «تكلم فأغرب، إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره، وقد غربت هذه الكلمة أي غمضت، فهي غريبة»، والغربة إنما تكون في المعنى[٢].

ولابد من توضيح معنى الغريب، وماهي الغرابة فيه؟

الغريب في اللغة والقرآن: ما يجد الإنسان صعوبة في فهم معناه، ويحتاج إلى من يساعده في كشف غموض المعنى.

تناول مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ الغريب في القرآن ومعناه، فقال: «في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة العربية هاهنا هي التي تكون خشنة مستغربة في التأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها وسائر الناس»[٣].

فالغرابة في المعنى وليست في اللفظ[٤]، «ولاشك أن الغريب كان قليلًا في أول

---

(١) متفق عليه.

(٢) الزمخشري، محمود بن عمر: أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، مطبعة أولاد أورفاند ط١، ص٣٢٢، قال ابن منظور: «الغريب الغامض من الكلام، وكلمة غريبة، وقد غربت، وهومن ذلك. انظر: لسان العرب: ج١١، ص٢٤.

(٣) الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن، مطبعة الاستقامة، مصر، ص٧٤.

(٤) ولعل كلمة «غراباً» التي ذكرت في قوله تعالى ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ تحمل في ثناياها الغربة في عدم تكرارها، وفي غرابة الجريمة لأن قتل قابيل أخاه هابيل تعد سابقة خطيرة لم يسبق إليها، فكان مستغرباً، ثم اختيارالغراب من بين الطيوركلها يحمل أيضاً معاني الغربة، فالغراب غريب في =

الأمر، ثم اتسعت دائرته باتساع رقعة الدولة الإسلامية، واختلاط العرب بغيرهم من الأمم، وتماشى مع اللحن، فكلما تقدم الزمان أصبح الناس أشد حاجة من قبل لتفسير الغريب»(١).

التصنيف في غريب القرآن:

واشتهر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من بين الصحابة في تفسيره الغريب، ومسائله مع ابن الأزرق(٢) التي قامت بنت الشاطئ بجمع المشهور منها شاهدة على ذلك، مدعمًا تفسيره بشواهد شعرية؛ لأن الشعر ديوان العرب.

ومن الذين صنفوا في الغريب أبو عبيدة «مجاز القرآن» والسجستاني «غريب القرآن».

= لونه وطبعه، فلا يستأنس بغيره من الطيور، ولانجد غراباً إلا أسود، خلاف غيره من الطيور، فإن فيها تنوعاً في الألوان، ولذلك فإن أبوي الغراب حين تفقس البيضة ويطل فرخهما أبيض اللون، وهو ما يسمى «البغاث»، يستنكره أبواه، ظناً منهما أنه ليس بولدهم، فيتركاه وهو في غاية الضعف، ومن هنا جاء في المثل «إن البغاث بأرضنا يستنسر، ولعل الارتباط الذهني أو التلازمي بين الغراب والشؤم عند العرب مرده إلى هذه المسألة.

(١) قال ابن الأثير: « واستمر عصره ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حين وفاته على هذا السنن المستقيم، وجاء العصر الثاني، وهو عصر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على هذا النمط، سالكاً هذا المنهج، فكان اللسان العربي عندهم صحيحاً محروساً لايتداخله الخلل، ولا يتطرق إليه الزلل، إلى أن فتحت الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم من الروم والفرس والحبش والنبط وغيرهم من أنواع الأمم الذين فتح الله على المسلمين بلادهم، فاختلطت الفرق، وامتزجت الألسن، وتداخلت اللغات، ونشأ بينهم الأولاد الذين ولدوا من غير العرب، فتعلموا من اللسان العربي مالابد لهم في الخطاب منه، وحفظوا من اللغة مالاغنى لهم في المحاورة عنه، وتركوا ما عداه لعدم الحاجة إليه...، ابن الأثير، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: ظاهر الزاوي ورفيقه، المكتبة الإسلامية، دون سنة النشر ورقم الطبعة، ج١، ص٥.

(٢) مسائل ابن الأزرق مائتان وست وخمسون مسألة محققة على مخطوطات، قام بإخراجها محمد الدالي، وشكك مصطفى عليان بهذه المسائل والشعر الملحق بها، انظر «ص ١٠١».

ولعل المطالع لكتاب أبي عبيدة يجده يستخدم كلمات مترادفة لمعنى الغريب مثل المجاز والمعنى والتفسيروالتأويل والتخريج والتقدير»(١).

الأضداد:

من الضد، «وهوكل شيء ضاد شيئاً ليغلبه، والسواد ضد البياض، والموت ضد الحياة»(٢).

وفي الاصطلاح: «هو دلالة اللفظ على معنيين متنافيين ـ متضادين ـ وذلك كدلالة لفظ الجون على الأسود والأبيض»(٣).

وهي الألفاظ التي تقع على الشيء وضده في المعنى، قال تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾(٤).

ب ـ الفرق بين مفردات الاشتراك اللفظي:

الوجوه متعلقة بالمعاني، والنظائر متعلقة بالألفاظ المشتركة في القرآن الكريم، وقيل: «الوجوه في اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان كلفظ «الأمة» والنظائر كالألفاظ المتواطئة»(٥).

وتشترك تلك الكتب في كثيرمن المفردات، وأجتزئ كلمة واحدة على سبيل المثال لاالحصر وهي كلمة «الحميم»:

تذكر مصادر الوجوه والنظائر للحميم وجهين هما: «الماء الحار والقريب

---

(١) عبد الحميد سيد طلب: غريب القرآن، رجاله ومناهجهم، جامعة الكويت، ١٩٨٦م، ص٢٩.

(٢) لسان العرب: ج٩، ص٢٥.

(٣) جبل، محمد حسن: في علم الدلالة دار المعرفة الجامعية، مصر، ٩٩٧١ م، ص٤١.

(٤) مريم ٨٢.

(٥) البرهان في علوم القرآن: ج١، ص١٣٤.

النسب»(١)، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾(٢)، أي قريب، والحميم أيضاً الخاص، يقال: «دعينا في الحامة لا العامة»(٣).

وأما كتب الغريب، فذكرت أن الحميم هو الماء الحار، والحميم أيضاً القريب في النسبة، كقوله تعالى: ﴿ولايسأل حميم حميماً﴾ أي قريب قريباً، والحميم أيضاً الخاص(٤)، يقال: «دعينا في الحامة لافي العامة»، ويقال: «ما له من حامة ولا سامة»، الحامة: الأقرباء، والسامة: الأصدقاء.

وورد في كتاب «العباب الزاخر» أن الحميم يعني الماء الحار والماء البارد، قال:

فساغ لي الشراب وكنت قدماً ... أكـاد أغص بـالماء الحـميم

قال ثعلب: سألت ابن الأعرابي عن معنى الحميم في هذا البيت، فقال: الحميم الماء البارد، قال ثعلب: فالحميم عند ابن الأعرابي من الأضداد(٥).

واما الأضداد فهي قليلة في القران الكريم، وهي من الاشتراك اللفظي، حيث إن اللفظ الواحد له معنيان اثنان فقط، خلاف الاشتراك اللفظي والغريب.

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمن: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م ص٢٣٦.

(٢) المعارج ١٠.

(٣) فقه اللغة وسر العربية، ج١، ص٢٦٢.

(٤) السجستاني، أبوبكر محمد بن عزيز: غريب القرآن، ط١، دار طلاس للدراسات للترجمة والنشر، ١٩٩٣ ص١٧٥.

(٥) الصغاني، الحسن بن محمد بن الحسن: العباب الزاخر، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مجلد حرف الغين، ص٤٩، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م

* ذكر محقق العباب أن البيت لم ينسب في كتاب التاج، و الشاعرهو عمر بن مظفربن عمر بن محمد بن الوردي المعري الأزدي، من العصر المملوكي (ت٧٤٩هـ ـ ١٢٤٩م) ولكن هناك اختلاف في الرواية، أكاد أغص بالماء القراح.

ومن الأمثلة على الأضداد في القرآن الكريم «عسعس»

«كَانَ أَبُو حَاتِم وقطرب يذهبان إِلَى أنَّ هَذَا الْحَرْف من الأضداد. وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَة يَقُول ذَلِك أَيْضا: عسعس الليلُ أَي أقبل، وعسعسَ إِذا أدبر. وَأنْشد:

مُدرَّعاتُ الليل لما عسعسا   وادَّرعتْ منه بهيماً حندسا

قال: زعموا أن ابن عباس رحمه الله، قال: (عَسْعَسَ)، أدبر.

وقال الزبرقان فى الإدبار:

ومــاءٍ قديم عـهـدُه مـا يـرى به   سوى الطيرُ قد باكرتْ ورد المغلسِ

وردتُ بـأفـراس عِـتَـاقٍ وفية   فوارط فى أعجاز ليل معسعس

أَي مُدبر(١).

ج ـ العلاقة بين مفردات الاشتراك اللفظي:

١ ـ الاشتراك اللفظي والغريب:

تتبع الباحث كتاب «غريب القرآن» لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني «ت ٣٣٠هـ» فعثر على ما يقارب خمساً وثمانين كلمة، هي من الوجوه، حيث ذكر أن لها أكثر من وجه، منها:

يظنون: أي يوقنون، أيضا يشكون، والظن من الأضداد

مُخَلّدون: مبقون ولداناً لا يهرمون ولا يتغيرون، ويقال: مسوّرون، مقرّطون، محلون.

---

(١) الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ج١، ص٦٢، دار إحياء التراث العربي، ط١ ــ ٢٠٠١.

محصنات: ذوات الأزواج، وبكسر الصاد وفتحها الحرائر وإن لم يكنّ متزوجات والعفائف.

مثُلات: عقوبات، واحدها مثلة، ويقال الأشباه والأمثال ما يعتبر به.

اليسير: سهل لا يصعب، واليسير: القليل(١).

٢ ـ الاشتراك اللفظي والأضداد:

وأما الأضداد(٢) فشأنها شأن كثير من القضايا اللغوية التي لم يجمع اللغويون عليها، ووقع الخلاف بينهم، فقد أنكر بعض العلماء مسألة الأضداد في اللغة العربية، ومن هؤلاء ابن درستويه، ولكن ابن فارس رد على منكري الأضداد، لا سيما ابن درستويه، فقال: «وأنكر ناس هذا المذهب، وأن العرب تأتي باسم واحد لشيء واحد وضده، وهذا ليس بشيء، وذلك أن الذين رووا أن العرب تسمي المتضادين باسم واحد، وقد جردنا في هذا كتابا، وذكرنا فيه ما احتجوا به، وذكرنا رد ذلك ونقضه»(٣).

وأما ابن الأنباري فقد طرح رأيين في الأضداد:

الأول: إذا وقع الحرف على معنيين متضادين، فالأصل لمعنى واحد، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع، فمن ذلك الصريم، يقال لليل صريم؛ لأن الليل يصرم من النهار، ويقال للنهار صريم؛ لأنه يصرم من الليل، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع»(٤).

---

(١) انظر: غريب القرآن: ص٣٦٩، ٣٦٢، ٣٣١، ٣٢٣، ٣١٤.

(٢) هناك فرق بين الأضداد والتضاد، أما الأضداد فهو أن يحمل اللفظ الواحد معنيين متعاكسين، وأما التضاد «التقابل» فهو لفظان يحملان معنيين متعاكسين، مثل كبير وصغير.

(٣) ابن فارس، أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ط١ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، مكتبة المعارف ـ بيروت تحقيق عمر فاروق الطباع، ص٩٩.

(٤) الأنباري، محمد بن القاسم: الأضداد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المطبعة العصرية، ص٨.

والثاني إذا وقع الحرف على معنيين متضادين، فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه، ولكن أحد المعنيين لحيّ من العرب، والمعنى الآخر لحيّ غيره، ثم سمع بعضهم لغة بعض، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء، وهؤلاء عن هؤلاء»(١).

وكما أشار الباحث سابقاً، فإن كلمة «الحميم» وردت في كتب الوجوه والنظائر والغريب والأضداد، ودلالة الكلمة المفردة يحددها السياق.

ومن الأضداد كلمة «اللحن» قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾(٢)، معناه صواب القول وصحته. قال ابن الأعرابي: لحن الرجل يلحَن بفتح الحاء: إذا أخطأ، ولحِن بكسر الحاء: إذا أصاب.

قال البغوي: «واللحن وجهان: صواب وخطأ، فالفعل من الصواب لحِن يلحَن، ولحن إذا فطن للشيء»، ومنه قول النبي ـ عليه السلام ـ «لعل بعضَكم أن يكونَ ألحنَ بحجته من بعض»(٣).

والفعل من الخطأ لحَن يلحَن لحناً فهو لاحن.

٣ ـ الاشتراك اللفظي والحذف:

الحذف لغة: الإسقاط والقطع.

واصطلاحاً: إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل، والحذف يجعل للكلمة احتمالات في المعنى، ويقع الحذف في الحرف وفي غيره، كقوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾(٤)، فحذف حرف الجر من النص، فوقع فيها غموض، حيث إن الفعل «رغب» إما أن يتعدى بحرف «عن» أو «إلى» أو «في».

---

(١) المصدر السابق: ص١١.

(٢) محمد ٣٠.

(٣) متفق عليه.

(٤) النساء ١٢٧.

قال الراغب: رغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾(١)، وإذا قيل: رغب عنه: اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾(٢).

وأما التعدية بحرف «في» وهي بمعنى التحبب، فكما قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَغِّبُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ فِيهِ بِعَزِيمَةٍ، فَيَقُولُ: مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٣).

وأشار إلى التعدية بالحروف مشهور موسى مشاهرة بقوله: «ولا يخفى أن في العربية كلمات تتعدى بحروف، فتكتسب دلالة جديدة مع كل حرف تتعدى به، وربما ينقلب المعنى إلى الضد نتيجة للتعدي بحرف دون حرف، ففرْقٌ شاسع بين «وترغبون أن تنكحوهن» و«وترغبون عن أن تنكحوهن»، فإذا تعدى بنفسه أفاد معنى الإدراك، وإذا تعدى بغير ذلك من الحروف فإنه يتسع لمعان وأغراض تتلافى وتتباين طبقاً للحرف المتعدى به»(٤).

ولكن تعدية الفعل «ترغبون» بنفسه، بمعنى حذف حرف التعدية يجعل الفعل من المشترك، بينما ذكر حرف التعدية يحدد المعنى خلافاً لما قاله مشهور.

والمتدبر الآية ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ يجد أن الفعل «ترغبون» من المشترك اللفظي، فإن كان المحذوف «في» دل على الإقبال لجمالهن ووفرة ميراثهن، وإن كان المحذوف «عن» دل على الترك وعدم الرغبة لدمامتهن أو زهداً في يسر ـ قلة ـ ميراثهن.

---

(١) التوبة ٥٩.

(٢) البقرة ١٣٠.

(٣) صحيح مسلم ج١، ص٥٢٣.

(٤) مشاهرة، مشهور: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: دراسة نحوية بلاغية، رسالة دكتوراة، غير مطبوعة، الجامعة الأردنية، أيار ٢٠٠٤م، ص١٨ و١٩.

المطلب الثالث: أسباب وأهمية الاشتراك اللفظي:

يرجع نشوء الاشتراك اللفظي إلى أسباب منها:

أولها: اختلاف اللهجات واختلاف استخدامها للكلمات، فكلمة «القرء» تعني الطهر عند أهل الحجاز، و تعني الحيض عند أهل العراق، في حين تدل هذه الكلمة على الزمان الذي يحدث فيها الطهر أو الحيض.

وثانيها: الاستخدام المجازي: نتيجة استعمالها في معنى، ثم استعارتها لمعنى أو معان أخرى يكثر استعمالها، حتى تصير بمنزلة المعنى الأصلي.

وثالثها: ينشأ الاشتراك اللفظي أحياناً في ظروف لغوية معينة، يتحول فيها المعنى الأصليّ للفظ إلى معنى آخرمباين أومضاد لمعنى اللفظ الشائع، «بهدف التفاؤل أوالتأدب أوالتهكم أوالتهويل أو التعظيم، وقد تصبح هذه المعاني لكثرة التناوب والتبادل في مستوى واحد من الاستعمال والدوران»(١).

ورابعها: المجاورة والسببية، كتسمية السحاب ماءً للمجاورة، وتسمية الماء رزقاً للسببية؛ وذلك لاعتبار أن الماء سبب الرزق.

وخامسها: استخدام اللفظ اللغوي استخداماً مزدوجاً، إذ يكون له معنى حقيقي في اللغة، ويستعار هذا المعنى إلى معنى اصطلاحي في العلوم الشرعية وغيرها، فألفاظ الزكاة والصلاة والحج وغيرها، كان لها معانٍ لغوية قبل الإسلام، واستعيرت هذه المعاني إلى دلالات شرعية، فالصلاة في اللغة تعني الدعاء، وفي اصطلاح الشرع: الشعيرة الدينية المنصوص عليها في القرآن.

وبعد هذا التطواف بين حدائق القدماء وبساتين المحدثين، يفاجئنا ابن الجوزي ـ

---

(١) أنيس، إبراهيم: اللهجات العربية، المطبعة الفنية الحديثة، ط٣، ١٩٦٥م، ص١٩٣.

رحمه الله تعالى ـ مفاجأة تكاد تعصف بكل ما كتبَ في الاشتراك اللفظي، عندما صرح بعد فراغه من كتابه «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» بقوله: وقد تساهلت في ذكر كلمات نقلتها عن المفسرين، لو ناقش قائلَها محقق لجمع بين كثير من الوجوه في وجه واحد، ولو فعلنا ذلك لتعطل أكثر الوجوه، ولكننا تساهلنا في ذكر ما لا بأس بذكره من أقوال المتقدمين، فليعذرنا المدقق في البحث، وبعد، فلا يغرنك ما ترى من جنس هذا الكتاب من كثرة الوجوه والأبواب، وبهذا القول

وبعد جمع أقوال بعض القدماء والمحْدَثين، نجد أن الاشتراك يتأرجح بين الإفراط والتفريط[(١)].

وينبغي للباحث أن يشير هنا إلى أهمية الاشتراك اللفظي، ذلك أنه ظاهرة لغوية أثيرت حولها آراء متناقضة، فهو من القضايا التي يصعب جمع الآراء عليها وتوحيدها، ومن هنا تبرز مزايا لغتنا الجميلة، التي تكاد تكون انفردت من بين اللغات كلها بمزايا وخصائص تزهو بها على غيرها منها أن ألفاظ اللغة متناهية، وأما معانيها فغير متناهية، فلو استقل كل لفظ بمعنى لصعب الأمر على الذاكرة، ولأتخمت بكَمٍّ هائل من المفردات، ففي الاشتراك اللفظي يجد الإنسان ضالته ويخفف عن الذاكرة أعباءً، ويجد متسعاً للتعبير مما يجول في خاطره، وإن قلّتِ الألفاظ لديه، وتتجدد المعاني من غير أن تفقد قدمها، وتصبح الألفاظ أكثر مرونة واستجابة لحاجة العربي.

ووجد البلاغيون بغيتهم في الاشتراك اللفظي، لاسيما المحسنات اللفظية، فأضْفتْ على الألفاظ ألواناً من البيان، وأطيافاً من البديع؛ كالجناس والاستعارة والتشابه والمشاكلة والتورية والترصيع.

---

(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ص٦٩.

ويعدّ الاشتراك اللفظيّ أحد أسباب الاختلاف بين اللغويين والمفسرين والفقهاء والأصوليين في تأويل كثير من الآيات القرآنية، التي تمخضت عن قضايا عقدية أوفقهية، وقد ذكرالباحث مسألة «القـُرْء» وآراء الأصوليين والفقهاء واللغويين فيها.

ومن القضايا العقدية التي تمخضت عن الاشتراك اللفظي مسألة رؤية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربَّه ـ عزّ وجلّ ـ ليلة المعراج، وسبب ذلك فهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ للآية الكريمة ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾(١)، وهل كانت رؤية قلبية أم بصرية بالعين؟ ولا مجال هنا إلى بسط هذه المسألة؛ لأنها تخرج عن جادة البحث الذي بصدده الباحث.

وصفوة القول؛ فإن العلماء قد اختلفوا في واقع الاشتراك اللفظي، فذهب الأكثرون إلى أنه ممكن الوقوع، لجواز أن يقع إما من واضعَين، بأن يضع أحدهما لفظاً لمعنى، ثم يضعه الآخرلمعنى آخر، ويشتهرذلك اللفظ بين الطائفتين في أنه يفيد كلا المعنيين، وفي هذا دلالة ظاهرة على أن اللغة ليست توقيفية، وإما من واضع واحد على الإبهام على السامع، حتى لايكون التصريح سبباً للمفسدة، كما روي عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو في طريقه إلى الغار، عندما سئل عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال أبو بكر: «رجل يهديني السبيل» وهذه تورية؛ يفهم من هذا الكلام أنه يدله على الطريق، وكذلك يفهم منه أنه يهديه إلى الطريق المستقيم.

وذهب نفر منهم إلى أن وقوعه أمر لازم؛ لأن المعاني غير متناهية والألفاظ متناهية.

وذهب آخرون إلى أن الاشتراك يقع غالباً؛ لأن الحروف بأسرها مشتركة، والأفعال الماضية مشتركة بين الخبر والدعاء، و المضارع كذلك، وهو أيضاً مشترك بين الحال والاستقبال، والأسماء كثير فيها الاشتراك، فإذا ضمت إلى قسمي الحروف والأفعال كان الاشتراك أغلب.

---

(١) النجم ١١.

المبحث الثاني

الترادف

الترادف ظاهرة لغوية شدت اهتمام اللغويين ـ قدماء ومحْدثين ـ دون أن يجزموا أمرهم على رأي حاسم بشأنها، إذ اختلفوا ووسعوا نطاق الخلاف فيها، شأنها في هذا الخلاف شأن كثير من الظواهر اللغوية التي شهدت مذاهب شتى.

الترادف في اللغة:

الـرِّدْف: «ما تبع الشيءَ، وكل شيء تبع شيئا فهو ردفه، وإذا تتابع شيءٌ خلف شيءٍ فهو الترادف[(١)]، قال تعالى: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾[(٢)]، وقرأها الأعرج رَدَ ف لكم ـ بفتح الراء والدال ـ، وهي ليست من القراءات المتواترة[(٣)].

«ردف»: في حديث وائل بن حُجر «أنَّ معاوية سأله أن يُرْدِفه وقد صَحِبه في طريق فقال: لَسْتَ من أرْداف المُلوك» هم الذين يَخْلُفونهم في القِيامة بأمْر المَمْلَكة بمنزلة الوُزَراء في الإسلام، واحِدهم رِدْف والاسم الرِّدافة كالوِزارة.

وفي حديث بَدْر «فأمدّهم الله بألف من الملائكة مُرْدِفين» أي: مُتَتابِعين يَرْدِف بعضهم بعضا[(٤)].

---

(١) لسان العرب: ج٦، ص١٣٦، القاموس المحيط، ج٣، ص١٤٨.

(٢) النمل ٧٢.

(٣) معجم القراءات القرآنية: ج٤، ص٣٦٨، ومعنى ردف في الآية الكريمة: القرب والدنو واللحق والتبع، انظر: البغوي: تحقيق: محمد النمر، دار طيبة، ك٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ج٦، ص١٧٥، البيضاوي، عبدالله بن عمر، تفسير البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ١٩٨٨م، ج، ص١٨٢.

(٤) النهاية في غريب الأثر: ص٣٥٢.

الترادف في الاصطلاح:

دلالة طائفة من ألفاظ اللغة على معنى واحد، أو «هوالألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة»[(١)] وقد نقل السيوطي عن غيره بأنه «توالي الأ لفاظ المفردة الدالة على معنى واحد، باعتبار واحد» وقد احترز بالإفراد عن الاسم والحد، فليسا مترادفين، وبوحدة الاعتبار كالسيف والصارم، فإنهما دلا على شيء واحد، لكن اعتبارين: أحدهماعلى الذات، والآخر على الصفة[(٢)].

المطلب الأول: موقف العلماء من الترادف:

اختلف العلماء في وقوع الترادف في القرآن الكريم واللغة العربية، فمنهم من أنكر وقوعه في القرآن واللغة العربية، ومنهم من نفاه عن القرآن وأثبته في اللغة، ومنهم من قال بوقوعه في القرآن واللغة.

وحجة مثبتي الترادف؛ أن أصحاب المعاجم اللغوية وأهل اللغة إذا أرادوا أن يفسروا كلمة ما، أوردوا ما يقابلها، فمثلا كلمة «اللب» قالوا العقل [(٣)]، وكلمة البعل قالوا الزوج [(٤)]، وهذا يدل على أن العقل واللب عندهم سواء، وكذلك البعل والزوج، فلو كان لكل كلمة معنى مختلف عن معنى الأخرى، لتعذر التعبير عن شيء بغير عبارته.

رووا أن هارون الرشيد قال: «يا أصمعي، إن الغريب عندك لغير غريب، فقال الأصمعي: يا أمير المؤمنين، ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً.... ولئن

---

(١) الجياني، ابن مالك: الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، تحقيق د. محمد حسن عواد، دار عمار، ط١ ١٩٩١م، أخذ التعريف من العنوان.

(٢) المزهر: ج١ ـ ص٤٠٢.

(٣) لسان العرب: ج١٣، ص١٥٥، مفردات ألفاظ القرآن: ص٧٣٣.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ص١٣٥.

صحت الرواية، فإنها تدل على أن الرشيد يقول بثبات الترادف في اللسان العربي»[(١)].

وذكروا أن ابن خالويه كان يفتخر بأنه يحفظ للسيف خمسين اسماً، وقد قيل أنه صنع كتابا.

مصنفاً في أسماء الأسد، وآخر في أسماء الحية[(٢)].

أولاً: المثبتون:

أ ـ مثبتو الترادف من القدماء:

العلماء الذين ذهبوا إلى وقوع الترادف كانوا يومئذ كثيرين، ومن أبرزهم:

سيبويه «ت ١٨٨هـ»: «اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللـفظين والمعنى واحد، واتفاق اللـفظين واختلاف المعنيين»[(٣)].

قطرب «ت٢٠٦هـ»: «يثبت الترادف، ويعلل وقوعه، فيقول: إنما أوقعت العرب اللفظين على معنى واحد، ليدلوا على اتساعهم في الكلام»[(٤)].

ابن الأثير «ت ٦٣٧هـ» يضرب مثلاً على الترادف قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[(٥)] فجميع هذه الألفاظ «العفو والصفح والمغفرة» بمعنى واحد، وأنها تكررت للزيادة في تحسين عفو الوالد عن ولده، والزوج عن زوجته[(٦)].

تاج الدين السبكي «ت ٦٦١هـ»، يقول: «ذهب بعض الناس إلى إنكار المترادف في

---

(١) المزهر: ج١: ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) السابق: ج١، ص٤٠٧.

(٣) الكتاب: ج١، ص٢٤.

(٤) المزهر: ج١، ص٤٠٠.

(٥) التغابن١٤.

(٦) المثل السائر، ج٢، ص١٦٢.

اللغة العربية، وزعم أن كل من يظن من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات، كما «الإنسان والبشر» فإن الأول موضوع له باعتبار أنه «مؤنس»، والثاني باعتبار أنه بادي «البشرة»، وكذلك الخندريس والعقار، فإن الأول من «العتق» والثاني باعتبار عقر الدَّنِّ لِشدَّتها»(١).

ابن جني «ت٧٩٢هـ»، يقول «باب تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني، باب من العربية حسن، كثيـر المنعة، قوي الدلالة على شرف اللغة، وذلك أن للمعنى الواحد أسماء كثيرة وإذا ما بحث المرء عن أصل منها، فإنه سيجده مفضي المعنى إلى صاحبه»(٢).

والفيروزأبادي «ت ٨١٧هـ»: له كتاب «الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف».

ومن مثبتي الترادف القدماء: ابن خالويه «ت ٣٧٠» ألف كتاباً في أسماء الأسد، وكتاباً في أسماء الحية، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني في «ت ٣٨٤» له كتاب «الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى».

ويقول الآمدي «ت ٦٣١ هـ»: «ذهب شذوذ من الناس إلى امتناع وقوع الترادف في اللغة، مصيراً منهم إلى أن الأصل عند تعدد الأسماء تعدد المسميات، واختصاص كل اسم بمسمى غير مسمى الآخر»(٣).

ويستدل مثبتو الترادف بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقعت من يده السكين، فقال لأبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ناولني السكين، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد بهذا اللفظ، فكرر الرسول ـ عليه السلام ـ القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك، ثم قال: آلمدية تريد؟

---

(١) المزهر في علوم اللغة، ج١، ص٣١٧.

(٢) الخصائص، ج٢، ص٢١٥.

(٣) إحكام الأحكام في أصول الأحكام، ج١، ص٢٣ .

فقيل له نعم، فقال: أو تسمى عندكم سكيناً؟ ثم قال: والله لم أكن سمعتها ألا يومئذ[١].

ويتردد إبراهيم أنيس في قبول هذه الرواية؛ لأن كلمة «السكين» وردت في قوله تعالى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾[٢]، في سورة يوسف، وهي مكية، ثم يقول: ولا نستطيع أن نتصور رجلاً مثل أبي هريرة، وهو من هو في رواية الحديث، والاتصال بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الاتصال الوثيق، لم يكن على علم بما أنزل من سور مكية كانت تدرس وتحفظ ويتعبد بها المسلمون في المدينة، إضافة إلى أن أبا هريرة كان من «دوس» وهي بطن من قبيلة بالحارث التي عاشت على مسافة غير بعيدة من مكة، وكان أهله على اتصال بالبيئة الحجازية قبل الإسلام، فكيف غاب عنه مثل هذا اللفظ الشائع هناك؟[٣]

وما كان لإبراهيم أنيس ـ مع تقديرالباحث له ـ أن يتردد في قبول هذه الرواية للأسباب المذكورة، وإن كانت للوهلة الأولى قد تبدو مقنعة، قبل أن يطلع على الرواية التالية:

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن، حدثه أنه سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول ـ الله صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ تَقَعُ فِي النَّارِ وَقَالَ: كَانَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ وَقَالَتْ الْأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتْ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ ـ يَرْحَمُكَ اللهُ

---

(١) متفق عليه.

(٢) يوسف ٣١.

(٣) أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية: المطبعة الفنية الحديثة، ط٣، ١٩٦٥م ص١٦٤و١٦٥.

ـ هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاللهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ إِلَّا يَوْمَئِذٍ وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا الْمُدْيَةَ»(١).

ب ـ مثبتو الترادف من المحدثين:

يكاد يجمع علماء اللغة المحْدثون على إمكان وقوع الترادف، ومن أبرزهم:

أحمد أمين الذي يعد اختلاف القبائل ولهجاتها أهم الأسباب في كثرة المترادفات في اللغة العربية، فإحدى القبائل تضع اسماَ لشيء، وتضع قبيلة أخرى اسماً آخر، وقد وردت أدلة على ذلك فقالوا ـ مثلا ـ إن السَّـكر اسمه «المِبْـرَت» بلغة اليمن(٢).

وروي أن زيد بن عبد الله بن دارم وقد وفد على ملوك حمير، فألفاه في متصيّدٍ له على جبل مشرف، سلم عليه وانتسب له، فقال له الملك: ثِبْ، أي اجلس، وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل، فقال: «لتجدني أَيُّها الملك مِطْواعاً» ثُمَّ وثب من الجبل فهلك، فقال الملك: مَا شأنه؟ فخبّروه قصته وغلطه فِي الكلمة، فقال: «أما أنه ليست عندنا عربيّت: من دخل ظَفارِ حَمّر»(٣).

ويقول رمضان عبد التواب: «ورغم ما يوجد بين لفظة مترادفة وأخرى من فروق أحياناً، فإننا لا يصح أن ننكر الترادف مع من أنكره جملة، فإن إحساس الناطقين باللغة كان يعامل هذه الألفاظ معاملة المترادف، فنراهم يفسرون اللفظة بالأخرى»(٤).

ويعيب إبراهيم أنيس على منكري الترادف؛ لأنهم كانوا من الاشتقاقيين الذين بالغوا في إرجاع كل كلمة إلى أصلها، ويُحمّل المسؤولية لابن دريد الذي أرجع حتى أسماء

---

(١) متفق عليه.

(٢) أمين، أحمد: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط٦، ١٩٦١م، ج٢، ص٢٤٥.

(٣) الصاحبي: ص٢٧و٢٨.

(٤) فصول في فقه اللغة العربية: ص٣١٥.

القبائل والأمكنة إلى أصل اشتقت منه أو سميت لأجله، وتابعه في ذلك ابن فارس «زد على ذلك أن الأدباء يتخيلون معاني سحرية مستشفة من الكلمات، ويبحثون عما وراء المدلولات ويتصورون دقائق المعاني، ويشير إلى أسباب نشوء الترادف[١].

ومثال ذلك اسم قبيلة «قضاعة» فيفترض ابن دريد أن قضاعة مشتقة من أحد اثنين: إما من قولهم انقضع الرجل عن أهله إذا بعد عنهم، أومن قولهم تقضع بطنه: إذا أوجعه، أو وجد في جوفه وجعاً.

وذكرإبراهيم أنيس أيضاً أن أبا عمرو بن العلاء سأل أعرابياً مم اشتق منه اسم الخيل؟ فأجابه الأعرابي بما يفيد أن الخيل قد اتخذت لفظها من الخيلاء[٢].

ثانياً: المنكرون:

أ ـ منكرو الترادف من القدماء:

وذهب نفر من العلماء إلى منع الترادف في اللسان العربي، وسبب ذلك وجود فروق دلالية في الكلمات التي يعتقد الترادف فيها، كالمعاداة والمخاصمة، فالمعاداة من أفعال القلوب، والمخاصمة من قبيل القول، ويجوز ان يخاصم الإنسان غيره من غير أن يعاديه، ويجوز أن يعاديه من غير أن يخاصمه[٣].

وممن ذهب هذا المذهب من القدماء:

ابن الأعرابي «ت ٢٣٠ هـ» يرى أن كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض فلم نلزم العرب جهله[٤].

---

(١) فصول في فقه اللغة العربية، ص١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

(٢) في اللهجات العربية، ، ص١٨١.

(٣) الفروق اللغوية، ص١٣١.

(٤) الأضداد: ص٧.

وزعم ابن فارس «ت٢٩١ هـ» أن ثعلباً قد أنكر الترادف في اللغة، فذكر أنه كان يرى أن الشيء يسمى بالأسماء المختلفة، نحو السيف والمهند والحسام، ولكن الاسم واحد وهو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، وأشار إلى أن هذا مذهب ثعلب(١).

وكان أبو علي الفارسي «ت ٣٧٧هـ» يفرق بين الاسم والصفة.

وأما أبوهلال العسكري «ت ٣٩٥هـ» فإن كتابه «الفروق اللغوية» خير دليل على موقفه من الترادف، الذي بذل فيه جهداً لإيجاد فروق لغوية بين الألفاظ، وقد ذكر في كتابه اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني، وأن الاسم كلمة تدل على معنى دلالة الإشارة، وإذا أشير، فالإشارة إليه ثانية وثالثة غيرمفيدة؛ لأن واضع اللغة حكيم، لايأتي منها ما ليس منها مفيد(٢).

وقد ذكرأبوعلي الفارسي واقعة ينضوي تحتها الاعتراف بوقوع الترادف وإنكاره، وهي «أنه كان في مجلس سيف الدولة بحلب أبوعلي الفارسي ومجموعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسم أبوعلي وقال: ما أحفظ إلا اسماً واحداً، وهو السيف، فقال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا وكذا؟ وقال أبو علي: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة»(٣).

ونقل السيوطي: «قال ابن فارس: وأخبرني عليُّ بن أحمد بن الصبّاح قال: حدثنا أبو بكر بنُ دُريد قال: حدثنا ابن أخي الأصمعي عن عمِّه أن الرشيد سألَه عن شعر لابن حزام العُكْلي، ففسَّره فقال: يا أصمعي؛ إن الغريب عندك لغيرُ غريب. قال: يا أمير المؤمنين، ألا أكون كذلك وقد حفِظت للحَجَر سبعين اسماً؟ قال ابن فارس: فأين لسائر الأُمم ما

---

(١) الصاحبي: ص٩٨.
(٢) الفروق اللغوية: ص٢٢.
(٣) المزهر: ج١، ص٤٠٥.

للعرب؟ ومن ذا يُمكنُه أن يُعبّر عن قولهم: ذَات الزُّمَين، وكثرة ذات اليد، ويد الدّهر، وتخَاوَصَت النجوم...»[١].

وأشار الراغب الأصفهاني «ت ٥٠٠هـ» في مقدمة مفردات ألفاظ القرآن أنه سيتبع هذا الكتاب كتاباً آخر ينبىءعن تحقيق «الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، وما بينهما من الفروق الغامضة»، لمعرفة اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته، نحو ذكرالقلب مرّة، والفؤاد مّرة، والصدر مّرة، ثم يقول: ونحو ذلك مما يعده من لا يحق الحق ويبطل الباطل أنه باب واحد[٢].

ويرى ابن تيمية «ت ٧٢٨هـ»، «أن الترادف إما نادراً وإما معدوماً، وقلّ أن يعبر بلفظ واحد عن لفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجازالقرآن، فإذا قال القائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾[٣]، إن المورهو الحركة، كان تقريباً، إذ المور حركة خفيفة سريعة»[٤].

ب ـ منكرو الترادف من المحدثين:

من أبرز منكري الترادف من المحْدثين عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء» التي قالت: «من قديم شغلتْ قضية الترادف علماء العربية، واختلفت مذاهبهم فيها، والبيان القرآني يجب أن يكون له القول الفصل فيما اختلفوا فيه حين يهدي إلى سر الكلمة، لاتقوم مقامها كلمة سواها من الألفاظ المقول بترادفها»[٥].

---

(١) المزهر: ج١، ص٣٢٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ص٥٥.

(٣) الطور ٩.

(٤) ابن تيمية، أحمد: مقدمة في أصول التفسير، اعتنى به فواز أزمرلي، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٤هـ١٩٩٤م، ص٤٢.

(٥) عبد الرحمن، عائشة: الإعجاز البياني، دار المعارف، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، ص٢٠٩.

وتقول: «وأكتفي بما قدمت من شواهدَ قرآنيةٍ تؤيد ما ذهب إليه المحققون من أهل العربية في إنكار الترادف، إلا أن يجيء في لغتين من لغات العرب، فأما أن يجيء في لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد..... ولم يعرف السامعون ـ المتأخرون ـ تلك العلل والفروق، فظنوا ما ظنوه من الترادف، وتأولوا على العرب مالايجوز في الحكم»[١].

ويثبت أحمد مختار الترادف بشروط «إذا أردنا بالترادف التطابق التام الذي يسمح بالتبادل بين اللفظين في جميع السياقات دون أن يوجد فرق بين اللفظين في جميع أشكال المعنى «الأساسي والإضافي والأسلوبي والنفسي والإيحائي» ونظرنا إلى اللفظين في داخل اللغة الواحدة، وفي مستوى لغوي واحد، وخلال فترة زمنية واحدة، وبين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة، فالترادف غير موجود»[٢]، ولهذا فإنه ينفي الترادف بين الحامل والحبلى، لرقي الأولى وابتذال الثانية.

ثم يقول «أما إذا أردنا بالترادف التطابق في المعنى الأساسي دون سائر المعاني، واكتفينا بإمكانية التبادل بين اللفظين في بعض السياقات، أو نظرنا إلى اللفظين في لغتين مختلفتين، أو في أكثر من فترة زمنية واحدة، أو أكثر من بيئة لغوية، فالترادف موجود لا محالة... ويمثل لذلك بكلمتي: وصل وجاء، كما أن الترادف يمكن أن يتحقق بالنسبة للكلمات التي تبدو متقاربة جداً ويعجز الشخص عن تحديد الفروق بينها، مثل يثب ويقفز»[٣].

ثالثاً: المترددون:

يتبين مما سبق أن للعلماء موقفين من الترادف، هما القبول والرد، وهذا أمر طبيعي في

---

(١) عبد الرحمن، عائشة: من أسرار العربية في البيان القرآني، منشورات جامعة بيروت العربية، ص٥٠.

(٢) علم الدلالة: ص٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) السابق ٢٣٠.

أية قضية، إما إقرار وإما إنكار، ولكن المتتبع لأقوال المنكرين والقارىء لما بين السطور من آرائهم، يلحظ قبولاً مصرحاً به ـ كأبي هلال العسكري ـ أو تناقضاً في الأقوال ـ كأبي علي الفارسي ـ والبعض يقرّ به على نطاق ضيق وفي النادر، وضمن شروط ـ كابن تيمية ـ وهذا مما يعطي مؤشراً بوجود هذه الظاهرة، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

أ ـ المترددون من القدماء:

بدا التكلف المُبالَغ به عند أبي هلال العسكري في إيجاد فروق دلالية بين بعض الألفاظ كالحلم والوقار، فقال: «الوقار هو الهدوء، وسكون الأطراف، وقلة الحركة في المجلس، وأيضا يقع على مفارقة الطيش عند الغضب، مأخوذ من الوقر، وهو الحمل، ولا يجوز الصفة به على الله ـ سبحانه وتعالى ـ(١)».

وهذا الرأي مردود من عدة وجوه:

أـ الوقار: السكون والحلم(٢) قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِّ وَقَارًا﴾(٣)، والوقار التعظيم.

ب ـ الوقار: التعظيم الذي محله القلب.

ج ـ الاستقرار: روى معمر عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه قال: «سمعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر من الايمان في قلبي»(٤).

---

(١) الفروق اللغوية، ص٢٠٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، ص٨٨٠.

(٣) نوح ١٣.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب القراءة في المغرب، رقم الحديث ٧٦٥، ص١٢٤.

وخير دليل على عدم ثبات أبي هلال العسكري على موقفه من نفي الترادف كتابه الموسوم بـ «التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» وهو معجم ذكر فيه بعض المترادفات، منها، يقال للنوم: الهجود والهجوع والرقاد والتهويم، وقال: السهر: السُّهاد والسُهد، سَهِر يَسهَر، وسَهِد يَسْهَد، وتهجد يتهجد تهجداً، والتهجد السهر(١).

وأنكر ابن درستويه الترادف، ولكنه يقرّ به إقراراً غير مباشر، وإنما يعلل وقوعه بسبب اختلاف اللهجات، فأشار إلى أنه «لا يكون فعل أو أفعل بمعنى واحد، كما لم يكونوا على بناء واحد، إلا أن يجيء ذلك في لغتين مختلفتين، فأما في لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد»(٢).

وسبق أن أشار الباحث إلى أن ابن تيمية يرى أن الترادف إما نادراً وإما معدوماً، وقلّ أن يعبر بلفظ واحد عن لفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن.

واعتنى الأصفهاني بالألفاظ وأعطى أهمية تحديد المعنى قدراً لا يستهان به، وأقام فروقاً دلالية بين الألفاظ ومعانيها، وخصوصاً في كتابه مفردات ألفاظ القرآن، فنفى القول بالترادف بين ألفاظ القرآن، ولكنه مع حرصه على نفي الترادف في القرآن تجده مضطراً للقول بالترادف تلميحاً، فمثلاً كلمة «هلك» فانه يقول: «الهلاك على ثلاثة أوجه، وعددها أربعة»(٣).

*افتقاد الشيء عنك وهو عند غيرك موجود ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾(٤).

---

(١) أبو هلال العسكري، الحسين بن عبد الله بن سهل: التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، تحقيق: عزة حسن، دار صادر، ط٢، ص١٣٣، ١٣٤.

(٢) المزهر، ج١، ص٣٨٤.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: ص٨٤٣ و٨٤٤.

(٤) الحاقة ٢٩.

*وهلاك الشيء باستحالة وفساد كقوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾[١].

*والموت كقوله تعالى: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾[٢].

*وبطلان الشيء من العالم وعدمه رأساً، وذلك المسمى فناء الشيء المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[٣].

ب ـ المترددون من المحدثين:

ينفي أحمد مختار نوعاً من الترادف ويعترف بنوع آخر، يعترف بالترادف إذا كان بسبب التقارب الدلالي، ويقول: قديماً كانوا يفرقون بين الصياح والصراخ، ثم أصبح الناس لايفرقون بينهما، فالتطور له أثره، والمعاجم لها أثرها، وينفي وجود الترادف التام، «إذا أردنا بالترادف التطابق التام الذي يسمح بالتبادل بين اللفظين في جميع السياقات دون أن يوجد بين اللفظين في جميع أشكال المعنى «الأساس والإضافي والأسلوبي والنفسي والإيحائي» ونظرنا إلى اللفظين في داخل اللغة الواحدة، وفي مستوى لغوي واحد، وخلال فترة زمنية واحدة، فالترادف موجود لامحالة، ويمثل لذلك بكلمتي «وصل وجاء» كما أن الترادف يمكن أن يتحقق بالنسبة للكلمات التي تبدو متقاربة جداً، ويعجز الشخص عن تحديد الفروق بينها، مثل يقفز ويثب، يجري ويعدو[٤].

وينكر إبراهيم أنيس الترادف التام بين اللهجات العربية القديمة، ويعترف به في القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر، ويشترط شروطاً لوقوعه في اللغة العربية «الاتحاد في البيئة اللغوية، والاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً، والاتحاد في العصر، وألا

---

(١) البقرة ٢٠٥.

(٢) النساء ١٧٦.

(٣) القصص ٨٨.

(٤) علم الدلالة: ص٢٣٠.

يكون أحد اللفظين نتيجة تطورصوتي للفظ الآخر، اتضح لنا أن الترادف لايكاد يوجد في اللهجات العربية القديمة، وإنما يمكن أن يلتمس في اللغة النموذجية الأدبية، فالقرآن الكريم الذي نزل بهذه اللغة والذي نطق به الرسول للمرة الأولى، ففي القرآن نرى الترادف في بعض ألفاظه، ولا معنى لمغالاة بعض المفسرين حين يلتمسون في كل لفظة من ألفاظه شيئاً لا يرونه في نظرائه من الألفاظ الأخرى»(١).

ولا ينكر رمضان عبد التواب الترادف، فقال: «ورغم ما يوجد بين لفظة مترادفة وأخرى من فروق أحياناً، فإننا لايصح أن ننكرالترادف مع من أنكره جملة، فإن إحساس الناطقين باللغة كان يعامل هذه الألفاظ معاملة المترادف، فنراهم يفسرون اللفظة بالأخرى»(٢).

وبعد هذا العرض لأقوال العلماء ـ القدامى والمحدثين ـ فإن الباحث يرى أن الترادف التام لايقع في اللغة العربية ـ على وجه العموم ـ وفي القرآن الكريم ـ على وجه الخصوص ـ وأن استعمال مصطلح «شبه الترادف» فيه خروج من الاختلاف، والله تعالى أعلم وأجل.

---

(١) في اللهجات العربية: ص١٦٨.

(٢) فصول في فقه اللغة: ص٣١٥.

المطلب الثاني: مراتب وأسباب وفوائد الترادف:

١ ـ مراتب الترادف:

أ: ترادف تام أو كامل:

إذا تطابق اللفظان تطابقاً تاماً، مع صعوبة التفريق بينهما من أبناء اللغة، بحيث يتبادلان السياق تبادلاً حراً، وكما يقال: فإن لكل مقام مقالاً، فما يناسب المدينة من الألفاظ لا يناسب القرية أو البادية، فالمرأة والحليلة والعقيلة بمعنى واحد، ولكن العقيلة تناسب المدينة، فعند توجيه بطاقات الدعوة لحضوراحتفال زواج، فإن الدعوة توجه إلى الزوج وعقيلته، وأما في القرية فيناسبها حليلتة أو امرأته. فالمقام الاجتماعي له أثره في الاستخدام.

ب: شبه ترادف:

عندما يتقارب اللفظان اقتراباً شديداً في الدلالة، حتى ليدق يصعب التفريق بين اللفظين أحياناً.

ج: التقارب الدلالي:

«إذا اقترب اللفظان في المعنى، مع وجود ملمح واحد بينهماعلى الأقل»[١].

وما يهم الباحث في هذا المبحث هو النوع الثاني «شبه الترادف» الذي سيتحدث عنه لاحقاً.

٢ ـ أسباب الترادف:

لعل من أسباب نشوء الترادف عقد أسواق الخطابة والشعر في المواسم العامة، كسوق عكاظ وذي المجاز والمجنة، فكانت تقام المبارزات والمباريات الشعرية والخطابية، وكل يطرح ما في جعبته اللغوية.

---

(١) المائدة ٦٨، النحل ١٢٨.

ومن خوف علماء اللغة في صدر الإسلام الأول على فساد أمرها، وخوفهم ذاك ناشئ عن اختلاط العرب بالعجم، فقاموا بجمعها وضبطها لتكون لغة مميزة عن لغات العجم، وقامت كل قبيلة منفردة بجمع اللغة، فكان هذا عاملاً هاماً في تكرار بعض الألفاظ، لاسيما وأن هناك ألفاظاً مشتركة بين القبائل، وما لم يتكرر فإن القبائل تفرقت فيه، ولم تنسبه لقائله.

ويجمل إبراهيم أنيس الأسباب التي ولدت الترادف فيما يلي:

«أ ـ إيثار بعض القبائل لكلمات خاصة تشيع بينها وتكاد تكون مجهولة في القبائل الأخرى، مثل إبل ضحضاح، بمعنى كثير عند قبيلة هذيل.

ب: استعارة كلمات من لهجة من اللهجات، أو لغة من اللغات بسبب الغزو والهجرات أوالاحتكاك بين القبائل، فيصبح للمعنى الواحد أكثرمن كلمة واحدة، مثل السندس والإستبرق.

ج: صفات تفقد عنصرالوصفية مع مرورالزمن وتصبح أسماء، ولا يلحظ الكاتب أو الشاعرما كانت عليه، فيؤدي ذلك إلى الترادف، مثل السيف والعسل.... الخ.

د: من الكلمات ما تشترك معانيها في بعض الأجزاء، وتختلف في البعض الآخر، فإذا مر عليها زمن طويل، ودعت عوامل تغيرالمعاني أن تنطبق الأجزاءعلى بعضها، أصبحت تلك الكلمات مترادفة.

هـ: المجازات السببية: قد تستعمل بعض الألفاظ استعمالاً مجازياً، وبطول العهد تصبح حقيقة؛ مثل الرحمة اشتقت من الرحم موضع الولد، والمكان الذي يلد الأبناء والأخوات، فينشأ بينهم الحب والعطف، ثم استعملت في قديم الزمان عن طريق المجاز في الصلة بين الذين يولدون من رحم واحد، حتى أصبح حقيقة، وبهذا نشأ الترادف بين الرحمة والرأفة(١).

---

(١) في اللهجات العربية: ص١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

٣ ـ فوائد الترادف:

«أ ـ إمكان تفسير مالم يفهم، وهو المعروف عند متأخري المناطقة بالتعريف اللفظي، كأن تقول: البر هو القمح، والعسجد هوالذهب.

ب ـ التقليب في أساليب إنشاء وإظهار المعنى الواحد في عدة صور.

ج ـ ستر العيوب اللسانية للألثغ، وذلك باختيار الألفاظ التي تخلو من حرف اللثغة.

د ـ اختياراللفظة بحسب حاجة الكاتب أوالشاعرأوالخطيب، بما يتفق وجرس الكلام أو القافية»(١).

---

(١) زيدان، جورجي اللغة العربية كائن حي، مراجعة كامل مراد، دار الهلال، دون سنة الطبع ورقم الطبعة، ص٥٩ و٦٠.

المطلب الثالث: القرآن والترادف:

كل ما تقدم من الكلام متعلق بوقوع الترادف أوعدمه في اللغة العربية، وأما الترادف في القرآن الكريم فهو أيضاً موضع اختلاف بين العلماء، ولم يجد الباحث مدخلاً إلى هذا الموضوع أجمل مما قاله ابن عطية الغرناطي «وكتاب الله تعالى لونزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد»(١).

وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان؛ لأن اللفظ القرآني قائم بنفسه لا يسد مكانه لفظ آخر ولوكان من القرآن نفسه، فإنه لا يؤدي معناه، وهذا من إعجاز القرآن بنظمه.

وقد استعمل بعض المفسرين مصطلح «الترادف» وبعضهم استعمل مصطلح «بمعنى واحد»، والنتيجة مآلها واحد، وكما يقولون لا مشاحة في الاصطلاح.

وقد تخيرت نماذج من التفسير لتكون شاهدة على من قال بهذين المصطلحين.

١ ـ الزمخشري: ٥٣٨هـ «الكشاف»

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾(٢).

يقول: وهذا الضميرهوالذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها، ويجوزأن يكون «ساءت» بمعنى أحزنت، وفيها ضميراسم إن، و«مستقراً» حال أوتمييز، والتعليلات يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين أن يكونا من كلام الله وحكاية لقولهم(٣).

٢ ـ الرازي «ت ٦٠٦هـ» «التفسيرالكبير ومفاتيح الغيب»

قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾(٤).

---

(١) المحرر الوجيز: ج١ ـ ص٦١.

(٢) الفرقان ٦٦.

(٣) الكشاف: ج٣، ص١٠٢، انظر: الأنبياء ٢، ٣ ج٣، ص١٠٢، الحج ٢٥، ج٣، ص١٣٢.

(٤) طه١٢١.

يقول: الغواية والضلال أسمان مترادفان(١).

٣ ـ القرطبي «ت ٦٧١ هـ» الجامع لأحكام القرآن(٢).

قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(٣).

قال القرطبي: الدين في هذه الآية الطاعة والملة والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات، قاله أبو العالية، وعليه جمهور المتكلمين، والأصل في مسمى الإيمان والإسلام التغاير لحديث جبريل، وقد يكون بمعنى المرادفة، فيسمى كل واحد منهما باسم الآخر، كما في حديث وفد عبد قيس(٤)، قال صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِالله وَحْدَهُ؟ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَتُعْطُوا الْخُمُسَ مِنْ الْمَغْنَمِ»(٥).

٤: البيضاوي «ت ٦٩١ هـ» أنوار التنزيل وأسرار التأويل

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(٦).

يقول: «جهنم علم لدار العقاب، وهو في الأصل مرادف للنار(٧).

٥: أبو السعود: «ت٩٨٢هـ» إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم:

﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾(٨).

---

(١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ج٢٢، ص١٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج٤، ص٤٢.

(٣) آل عمران ١٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ج٤، ص٤٢.

(٥) متفق عليه.

(٦) البقرة ٢٠٦.

(٧) تفسير البيضاوي: ج١، ص١١٤.

(٨) المائدة ١١٥.

يقول: وقيل: الإنزالُ والتنزيلُ بمعنى واحد»[١].

٦: ابن عاشور «ت١٢٨٤هـ» التحرير والتنوير:

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾[٢].

يقول: «والرشد بضم الراء وسكون الشين، وتفتح الراء، فتفتح الشين، وهما مترادفان»[٣].

٧: سيد قطب «في ظلال القرآن»

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٤].

ويقول: نعمة الله المشار إليها هي نعمة السلم أو نعمة الإيمان، فهما مترادفان[٥].

ومن المفسرين الذين استخدموا عبارة «بمعنى واحد»:

* أبو الفرج ابن الجوزي «ت ٢٨١هـ»:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٦].

يقول: والفظ: ماء الكرش والفرث، وإنما سمي فظاً لغلظ مشربه، فأما الغليظ القلب، فقيل: هو القاسي القلب، فيكون ذكر الفظاظة والغلظ وإن كانا بمعنى واحد توكيداً[٧].

(١) إرشاد العقل السليم: ج٥، ص٨٤، انظر سورة: يونس ٩٠، ج٤، ص١٧٢.

(٢) النساء٦.

(٣) التحرير والتنوير: ج٤، ص٢٤٢، وانظر سورة الأنعام ٩٩: ج٧، ص٤٠٢.

(٤) البقرة ٢١١.

(٥) في ظلال القرآن: ج٢ ص٢١٣ .

(٦) آل عمران ١٥٩.

(٧) زاد المسير: ج١، ص٤٨٦، انظر المائدة ٤٨، ج٢، ص٣٧٢

* الطبري: «ت٣١٠هـ» جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(١).

يقول: لقد اختلف القراء في قراءة «تظاهرون» فقرأها بعضهم على مثال تفاعلون، فحذف التاء الزائدة وهي التاء الآخرة، وقرأها الآخرون «تظاهرون» فشدد بتأويل تظاهرون، غيرأنهم أدغموا التاء الثانية في الظاء لتقارب مخرجيهما، فصيروها ظاء مشددة، وهاتان القراءتان وإن اختلفت في ألفاظهما فإنهما متفقتا المعنى؛ لأن جميعهما لغتان معروفتان، وقراءتان مستفيضتان في أمصارالإسلام بمعنى واحد(٢).

*البغوي: «ت٥١٦ هـ» معالم التنزيل

قال تعالى ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾(٣).

يقول قرأ أهل البصرة «فتذكر» مخففاً، وقرأ الباقون مشدداً، وذكر واذكر بمعنى واحد، وهما متعديان من الذكر الذي هو ضد النسيان(٤).

* الزمخشري «ت ٥٣٨هـ»:

قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾(٥).

---

(١) البقرة ٨٥

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج١، ص٤٥٨ وانظر سورة آل عمران ٩٧، ج٤، ص٢٧، ٢٨، والمائدة ٨٢: ج٧، ص٧

(٣) البقرة ٢٨٢

(٤) معالم التنزيل: ج١، ص٣٥١ وانظر سورة البقرة ٤٨، ج١، ص٩٠، البقرة ٢٥٥، ج١ ـ ص٢١٣

(٥) النساء ١٥.

يقول: والتوفي والموت بمعنى واحد[(١)].

* ابن عطية «ت ٥٤١هـ» المحرر الوجيز:

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[(٢)].

يقول: اشكروا لي واشكروني بمعنى واحد، و«لي» أشهر وأفصح مع الشكر[(٣)].

* الفخر الرازي «ت٦٠٦هـ» مفاتيح الغيب

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(٤)].

يقول: البديع والمبدع بمعنى واحد[(٥)].

*القرطبي «ت٦٧١هـ»

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[(٦)].

يقول: والإعراض والتولي بمعنى واحد، مخالف بينهما في اللفظ[(٧)].

*ابن تيمة «ت ٧٢٨هـ»

«إن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقلّ أن يعبرعن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا أحد أسباب اعجاز القرآن»[(٨)].

---

(١) الكشاف: ج١، ص٥١٨، انظر إبراهيم٢١: ج٢، ص٥١٦، وانظر الصافات: ١٠٣، ج٤ ـ ٥٦.

(٢) البقرة ١٥٢.

(٣) المحرر الوجيز: ج٢، ص٢٩، انظر النساء ١١٠، ج٤، ص٢٢ وانظر: «ص» ٣٠: ج١٢، ص٤٥٣.

(٤) البقرة ١١٧.

(٥) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ج٤، ص٢٧، انظر البقرة ١٨٢، ج٥، ص٧٠.

(٦) البقرة ٨٣.

(٧) الجامع لأحكام القرآن: ج٢، ص١٩، انظر الأنعام٥٤: ج٦، ص٣٤١ والمجادلة ١، ج١٧، ص٢٤٥.

(٨) مقدمة في أصول التفسير: ص٤٢.

* أبو حيان «ت ٧٤٥هـ» البحر المحيط:

يقول: «وجاء هنا انفجرت، وفي الأعراف انبجست، فقيل هما سواء، انفجر وانبجس وانشق مترادفات، وقيل بينهما فرق وهو أن الانبجاس هو أول خروج الماء والانفجاراتساعه وكثرته، وقيل الانبجاس خروجه من الصلب، والانفجار خروجه من اللين، وقيل الانبجاس هو الرشح والانفجار هو السيلان، وظاهر القرآن استعمالها بمعنى واحد؛ لأن الآيتين قصة واحدة»(١).

* ابن كثير «ت ٧٧٤هـ»

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾(٢).

يقول: وقال عطية العوفي: «فظن أن لن نقدر عليه» أي: نقضي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قد قدَر وقدّر بمعنى واحد(٣).

* السيوطي «ت ٩١١هـ» الجلالين

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾(٤).

يقول: رأى وعاين بمعنى واحد (٥).

* أبو السعود العمادي «ت ٩٨٢هـ» إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾(٦).

---

(١) البحر المحيط: ج١، ص٢٢٨، انظر الأنعام ٩٩ ج٤، ص١٩١، والأعراف ١٤٣، ج٤، ٣٨٤.

(٢) الأنبياء ٨٧.

(٣) «تفسير القرآن العظيم « ابن كثير: ج٣، ص٢٠١، وانظر النمل ٨٧ ج٣، ص٣٩٠، والصافات ج٤، ص٤، ونوح٢٢ ج٤ ص٤٥٤.

(٤) التكاثر٧.

(٥) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: تفسير الجلالين، دار المنار، ٢٠٠٠م، دون رقم الطبعة، ص٦٠٠.

(٦) المائدة ١١٥.

يقول: «وفي تفسير الجملة بكلمة التحقيق وجعل خبرها اسماً، تحقيق للوعد، وإيذان بأنه تعالى منجز له لا محالة من غير صارف يثنيه ولا مانع يلويه، وإشعار بالاستمرار، أي إني منزّل المائدة عليكم مرات كثيرة، وقريء بالتخفيف، وقيل الإنزال والتنزيل بمعنى واحد»(١).

* الشوكاني «ت ١٢٥٠هـ» فتح القدير

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

يقول: روي مخففاً ـ نُنْجِ ـ الكسائي وحفص، وقرأ الباقون بالتشديد ـ نُـنَجّ ـ وهما لغتان فصيحتان: أنجى ينجي إنجاء، ونجّى ينجّي تنجية بمعنى واحد(٣).

* الألوسي «ت١٢٧٠هـ» روح المعاني

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(٤).

يقول: «وجاءت هنا «انفجرت» وفي الأعراف «انبجست» فقيل هما سواء، وقيل بينهما فرق وهو أن الانبجاس أول خروج الماء، والانفجار هو اتساعه وكثرته، أوالانبجاس هو خروجه من الصلب، والآخر خروجه من اللين، والظاهر استعمالهما بمعنى واحد»(٥).

* ابن عاشور «ت ١٢٨٤»

قال تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٦).

---

(١) إرشاد العقل السليم ج٣، ص٩٩، انظر الزخرف ١٨، ج٥، ص٨٠.

(٢) يونس ١٠٣.

(٣) فتح القدير: ج٢، ص٤٧٧، انظر: الحشر ٢، ج٥، ص١٩٦.

(٤) البقرة ٦٠.

(٥) روح المعاني: ج١، ص٤٢٨، وانظر: الأنفال ٧٢، ج١٠، ص٥٥، الأنعام ١٥٢، ج٨، ص٥٦.

(٦) البقرة ١٨٦.

يقول: «واستجاب وأجاب بمعنى واحد، وأصل أجاب واستجاب أنه الإقبال على المنادي بالقدوم، أو قول يدل على الاستعداد للحضور نحو «لبيك» ثم أطلق مجازاً مشهوراً على تحقيق ما يطلبه الطالب»(١).

* الشنقيطي «ت ١٣٩٣هـ» أضواء البيان:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾(٢).

يقول: «والعرب تطلق نكر وأنكر بمعنى واحد»(٣).

* سيد طنطاوي: الوسيط

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(٤).

يقول: «السلم بكسرالسين وفتحها مع إسكان اللام بمعنى واحد ويطلقان على الإسلام»(٥).

ومن اللغويين إبراهيم أنيس، فإنه يذكر بعض الأمثله على الترادف في كلمات القرآن الكريم، منها:

﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ و﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير: ج٤، ٢٠٢ انظر: آل عمران ١٢٤، ج٣، ص٧٤، الكهف ٧٤، ج١٥، ص٣٧٨.

(٢) هود ٧٠.

(٣) الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان، ص٣٧٠، انظر الأعراف ١٨٠ ص٣٠٣، يس ٦٢، ص١٤٣٧، «ق»٦، ص١٦٥٢.

(٤) البقرة ٢٠٨.

(٥) الوسيط: ج١، ص٤٤٧، وانظر: الأعراف ٢٠٠، ج٥، ص٤٥٩، النساء ٨٨، ج٣، ص٢٤٩.

(٦) يوسف ٩١ والبقرة ٤٧.

المطلب الرابع: شبه الترادف:

وبعد استعراض آراء العلماء في الترادف، تبين للباحث أن هناك ألفاظاً دقت الفروق بينها، حتى إنه ليصعب التفريق بينها، وفي الوقت ذاته نجد ألفاظاً نابت عن بعضها، كقوله تعالى حكاية عن مريم ابنة عمران ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾(١) و﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾(٢)، وإن كان الباحث يذهب إلى أن اللفظ الواحد يناسب ماقبله وما بعده، واللفظ الواحد لايقع فيه إعجاز، وإنما الإعجاز في التأليف، وفي أسلوب التأليف، واللفظ معجز بموقعه وجرسه، وتأثيره في نفوس سامعيه، فلواستبدلت لفظة بلفظة أخرى وردت في آية مشابهة لها لاختل النظم، ولشعر القارىء والمستمع بذلك(٣).

وإجلالاً للقرآن وتعظيماً له، فإن الباحث ينزه القرآن العظيم عن الترادف، وإن دقت الفروق الدلالية بين الألفاظ التي رآها من قال بالترادف في القرآن ـ قياساً على وقوعه في اللغة ـ؛ لأن الوقوف على مراد الله في التفسير ضرب من المستحيل.

وكما قالت بنت الشاطئ «وقد ينبغي لي أن أعترف بقصوري عن لمح فروق الدلالة لألفاظ قرآنية، تبدو مترادفة، فليس لي إلا أن أقر بالجهل وأنا أتمثل بكلمة ابن الآعرابي» كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد في كل منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله»(٤).

---

(١) آل عمران ٤٧.

(٢) مريم٢٠.

(٣) في سورة مريم جاءت لفظة «غلام» للمشاكلة مع قول جبريل ـ عليه السلام ــ «لأهب للك غلاماً زكياً»، فردت مريم قائلة «أنى يكون لي غلام»، وأما في سورة آل عمران، فليس هناك مشاكلة، لأن الملائكة قالت «إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم....... قالت أنى يكون لي ولد...».

(٤) من أسراراللغة العربية في البيان القرآني: ص٥١.

ويحضر الباحث في هذا المقام الحديث النبوي الشريف التالي، لما فيه من لمحة دقيقة بين لفظين قد يبدو الترادف فيهما، فعن عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ؛ رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ، فَقُلْتُ: أَسْتَذْكِرُهُنَّ وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»(١).

انظر كيف أن الصحابي استبدل لفظ «نبيك» من الحديث بلفظ آخر «رسولك» وأنكر ذلك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، مع أن الرسالة يقابلها رسول، والنبوة يقابلها نبي(٢).

والترادف من معانيه التتابع واللحوق، والتابع لايمكن أن يبلغ مكانة المتبوع، فيبقى هناك درجة بين التابع والمتبوع، وبما أنه لا يمكن تمييز اللفظ السابق عن اللاحق ـ تاريخ الألفاظ ـ ولايمكن معرفة اللفظ الأصلي عن الفرع، فلهذا يصعب القول بالترادف.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الوضوء، باب: فضل من بات على وضوء، رقم الحديث ٢٤٧ ـ ص٤٥.

(٢) علق ابن حجر على الحديث فقال: فَإِنَّ لَفظ النُّبُوَّة وَالرِّسَالَة مُخْتَلِفَانِ فِي أَصْل الْوَضْع، فَإِنَّ النُّبُوَّة مِنْ النَّبَأ وَهُوَ الْخَبَر فَالنَّبِيّ فِي الْعُرْف هُوَ الْمُنَبَّأ مِنْ جِهَة الله بِأَمْر يَقْتَضِي تَكْلِيفًا، وَإِنْ أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ إِلَى غَيْره فَهُوَ رَسُول، وَإِلَّا فَهُوَ نَبِيّ غَيْر رَسُول، وَعَلَى هَذَا فَكُلّ رَسُول نَبِيّ بِلَا عَكْس، فَإِنَّ النَّبِيّ وَالرَّسُول اِشْتَرَكَا فِي أَمْر عَامّ وَهُوَ النَّبَأ وَافْتَرَقَا فِي الرِّسَالَة، فَإِذَا قُلْت: فُلَان رَسُول تَضَمَّنَ أَنَّهُ نَبِيّ رَسُول، وَإِذَا قُلْت: فُلَان نَبِيّ لَمْ يَسْتَلْزِم أَنَّهُ رَسُول، فَأَرَادَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَجْمَع بَيْنهمَا فِي اللَّفْظ لِاجْتِمَاعِهِمَا فِيهِ حَتَّى يُفْهَم مِنْ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا مِنْ حَيْثُ النُّطْق مَا وُضِعَ لَهُ وَلِيَخْرُج عَمَّا يَكُون شِبْه التَّكْرَار فِي اللَّفْظ مِنْ غَيْر فَائِدَة، فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ «وَرَسُولك» فَقَدْ فُهِمَ مِنْهُ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ، فَإِذَا قَالَ «الَّذِي أَرْسَلْت» صَارَ كَالْحَشْوِ الَّذِي لَا فَائِدَة فِيهِ، بِخِلَافِ قَوْله «وَنَبِيّك الَّذِي أَرْسَلْت» فَلَا تَكْرَار فِيهِ لَا مُتَحَقِّقًا وَلَا مُتَوَهَّمًا» فتح الباري ج١٤ ـ ص١٧٤.

ولعل مصطلح «شبه الترادف» هو من المصطلحات اللسانية الحديثة ـ أقرب إلى تنزيه القرآن الكريم من القول بالترادف؛ لأن كل كلمة في القرآن الكريم وضعت في مكانها، فهي كاللبنة في البناء لاتنوب عنها غيرها، ولا تتحرك عن موضعها، ولا يصلح مكانها سواها، وإن تقاربت المعاني، فلكل لفظة انسجامها الخاص وإيقاعها المميز، ولها دلالاتها المنتقاة، فهي تصور أجمل تصوير، وتعبر أدق تعبير، حتى لتشكل الكلمة مع الكلمة والحرف مع الحرف لُحْـمة شديدة التماسك، متينة البنيان، فالمفردات القرآنية تتميز بجمال وقعها في السمع، واتساقها الكامل مع المعنى واتساع دلالتها.

والقول بشبه الترادف مصطلح قد لايروق للبعض، ويعتبره منطقة ضبابية، ، أو محايدة، لاحزم ولاجزم في الأمر، ولكن استخدام هذا المصطلح هو من باب التقريب، لاستحالة أن يبلغ المشبه مكانة المشبه به.

ومن الأمثلة على شبه الترادف:

١ : الغلام والولد:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ... قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾(١).

فغالب كلمة «غلام» في القرآن جاءت للبشرى، إلا ما جاء في سورة الكهف، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾(٢)، ثم قال ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾(٣).

---

(١) آل عمران ٤٥ ـ ٤٧، وقال تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ مريم ١٩، وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ الصافات ١٠١.

(٢) الكهف ٧٤.

(٣) الكهف ٨٠، ٨١.

والمتأمل في الآيات المتعلقة بقتل الغلام ـ الكهف ـ يشم فيها عبق البشرى المصاحبة لقتل الغلام «لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم»(١)، وهي إبدال أبويه خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.

وجاء في لسان العرب: «غَلِمَ الرجل وغيره بالكسر يغلِم غلْماً واغتلم اغتلاماً: إذا هاج، وفي الحديث خير النساء الغَلِمة على زوجها»(٢) والغلمة: هيجان شهوة النكاح من المرأة والرجل وغيرهما»(٣).

وأما ما يتعلق ببشارة الملائكة لزكريا ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤).

وتستوقف الباحث لفظة «حصوراً»، فالحصور من الحصر وهو الحبس، والحصور الذي لا يأتي النساء وكأنه محجم عنهن.

«قال ابن مسعود وابن عباس وابن جبير وقتادة وعطاء أبو الشعثاء والحسن والسفري وابن زيد: هو الذي يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة، وقال القرطبي: وهذا أصح الأقوال لوجهين؛ أحدهما أنه مدح وثناء عليه، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسب دون الجبلة في الغالب، والثاني أن مفعولاً في اللغة من صيغ الفاعلين»(٥).

ومع تقدير الباحث وإجلاله للعلماء الأجلاء في تفسيرهم للفظة «حصوراً» فإنه يرى

---

(١) النور ١١.

(٢) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٣، ص٣٨٢، ولم أقف على تخريج الحديث.

(٣) لسان العرب: ج١٢، ص٤٣٩.

(٤) آل عمران ٣٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ج٤، ص٧٣.

أن امتناع يحيى ـ عليه السلام ـ عن غشيان النساء لا يعد منقبة ليحيى ـ عليه السلام ـ، وإنما ـ والله تعالى أعلم ـ أن نبوة بني إسرائيل الوراثية انحصرت في يحيى بعد دعاء زكريا ـ عليهما السلام ـ

«يرثني ويرث من آل يعقوب»، فكان ـ عليه السلام ـ آخر أنبياء بني إسرائيل؛ لأن عيسى ـ عليه السلام ـ كانت أمه من بني إسرائيل، ولا ينتسب إليهم؛ لأن خطاب عيسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل لم يتضمن لفظ «يا قوم» كبقية الأنبياء، فكان دائماً يقول: «يا بني إسرائيل».

والغلام يطلق في اللغة على العبد، وعلى الصغير الذي لم يبلغ وعلى الرجال، ومن إطلاقه على البالغ قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم النهروان:

أنا الغلام القرشي المؤتمن أبو حسين فاعلمن والحسن.

والغلام يطلق على البالغ ودونه، قال تعالى ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾(١)، «لا يتم بعد احتلام» وغلام وردت في موقع القوة، فيحيى قوي جاء بعد ضعف زكريا ـ عليهما السلام ـ، وعيسى ـ عليه السلام ـ قوي جاء بعد ضعف مريم(٢)، والغلام في غاية القوة التي ينشأ عنها الغلمة.

وفي قصة زكريا ـ عليه السلام ـ قضية أساسية؛ وهي كبر السن التي تقتضي ضعف الولد عند الإنجاب، ثم تعلق البشرى وارتباطها بالحصر الذي قد يعد عيباً؛ لأن الحصر يرتبط بالضعف والعنة، مع أن الحصر ذكر ضمن مجموعة من الصفات الحميدة، سيد، ونبي، وصالح،

ولكن السياق أبعد شبح النقيصة عن يحيى وذلك باستفسار زكريا، كما جاء في قوله

---

(١) الكهف ٨٢.

(٢) آل عمران ٤٥.

تعالى: ﴿أنى يكون لي غلام﴾ والغلام متعلق به الفحولة، فجاءه الإقرار الرباني «كذلك»

وكذلك وصف إسماعيل ـ عليه السلام ـ بأنه غلام ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾(١)، وكذلك إسحاق ـ عليه السلام ـ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾(٢)، وقد رُزِق بهما إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو كبير في السن وكذلك زوجتيه، فكانت البشرى بغلام؛ لنفي الضعف عن إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ.

أما مريم ـ ففي آل عمران ـ لم تُذكر في البشرى كلمة «غلام» قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾(٣). فكلمة غلام تحمل رقة ونعومة، والسياق لا يتوافق مع هذا، فالكهولة يناسبها «ولد»، وأما ما ورد في سورة مريم «غلام» فهو من باب المشاكلة، فمريم قابلت البشرى بلفظ «غلام» ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۞ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾.

٢: الإيمان والإسلام:

هناك ألفاظ إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت، ومن هذه الألفاظ «الإيمان والإسلام» فإذا وردا في سياق واحد، فإن لكل لفظ دلالته، وإذا ذكر واحد دون الآخر، فإنه يعطي دلالة غير المذكور، ومن هذه الألفاظ «الإيمان والإسلام» وخير شاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(٤)، فدلالتا الإيمان والإسلام في هذه الآية متغايرتان، وبينتْ أن الإيمان أرقى من الإسلام.

---

(١) الصافات ١٠١.

(٢) الذاريات ٢٨.

(٣) آل عمران ٤٥، ٤٦.

(٤) الحجرات ١٤.

وهذا ما بينه جبريل ـ عليه السلام ـ عندما سأل رسولـنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإسلام وعن الإيمان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ»(١)، فغاير ـ عليه السلام ـ بين دلالتي اللفظين.

وقال صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِالله وَحْدَهُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَتُعْطُوا الْخُمُسَ مِنْ الْمَغْنَمِ»(٢).

ومفهوم الإيمان في هذا الحديث يتوافق مع حديث: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾(٤) وسبب نزول هذه الآية ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه «أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوْ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، قَالَ: أَشْهَدُ بِالله لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ»(٥).

---

(١) صحيح البخاري، ج١، ص١٩.

(٢) صحيح البخاري، ج١، ص٢٩.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، رقم الحديث ٨ ـ ص٥.

(٤) البقرة ١٤٣.

(٥) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب قوله تعالى ﴿سيقول السفهاء﴾ رقم الحديث ٤٤٨٦ ـ ص٧٦٢

وانظر إلى دعاء يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿رَبِّ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(١)، فمما لا شك أن الوفاة على الإسلام هي وفاة على الإيمان.

وقد ورد لفظا الإسلام والإيمان في حديث دعاء الجنازة، فتارة قدم الإسلام على الإيمان، وتارة أخرى قدم الإيمان على الإسلام «اللهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ»(٢)، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإيمان، ومن توفيته منا فتوفه على الإسلام(٣).

ويرى الباحث أن تقديم الإيمان على الإسلام هو من باب قلب الرواية(٤)؛ لأن المريض على فراش الموت لا يستطيع أن يأتي بأفعال الإسلام، ؛ لأنها تحتاج إلى مجهود جسمي، بينما الإيمان قلبي يستطيع أن يستحضر الإيمان في قلبه، والله تعالى أعلم.

---

(١) يوسف ١٠١.

(٢) سنن الترمذي، ج٣، ص٣٣٤، النووي، خلاصة الأحكام، ج٢، ص٩٧٨، تحقيق: حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة – لبنان ـ بيروت، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م وَقَالَ: «صَحِيح عَلَى شَرط البُخَارِيّ وَمُسلم».

(٣) سنن أبي داود، ج٣، ص٢١١، ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ج٦، ص٢٢٣، مكتبة الحلواني – مطبعة الملاح – مكتبة دار البيان، ط١، وهو حديث حسن.

(٤) كما ورد في حديث أبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»، صحيح مسلم ج٢، ص٧١٥، وعلق ابن حجر على هذه الرواية فقال: وَوَقَعَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مَقْلُوبًا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاع عُلُوم الحَدِيث، فتح الباري ج٢، ص١٤٦.

٣: السنة والعام:

السنة والعام من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت.

«السنة والعام: بمعنى واحد فكلاهما يعني مدة اثني عشرشهراً، ولكن القرآن الكريم يورد لفظ السنة عند إرادة الشدة، ويوردالعام عند إرادة الرخاء»[١] ومن هنا يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[٢].. ويقول ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[٣].

وقال الراغب الأصفهاني «العام كالسنة، لكن كثيراً ماتستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الشدة والجدب، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة، والعام بما فيه الرخاء والخصب»[٤].

«عام وسنة وحول وحجة: كلها وردت في القرآن الكريم بمعنى واحد، وتخبط اللغويون والمفسرون في التماس الفروق بينها دون جدوى وجمع بينهما الفرزدق «ت ١١٠هـ» مفرقاً بين الدلالتين:

مضت سنةٌ لم تُـبق مالاً وإننا لننهضُ في عامٍ من المَحل رادف

واستقصاءً للفظين ـ السنة والعام ـ في القرآن الكريم، فقد ورد لفظ سنة سبع مرات ولفظ سنين اثنتي عشرة مرة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[٦].

---

(١) البيان في روائع القرآن: ص٣٢٥.

(٢) الأعراف ١٣٠.

(٣) يوسف ٤٩.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٥٩٨.

(٥) البقرة ٩٦.

(٦) الشعراء ١٨.

وأما لفظ «عام مفرد ومثنى» فقد ورد في القرآن الكريم تسع مرات.

وأما الأحاديث النبوية الشريفة، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»(٢).

قالَ ابْنُ إسْحَاقَ: «ثُمّ إنّ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ وَأَبَا طَالِبٍ هَلَكَا فِي عَامٍ وَاحِدٍ فَتَتَابَعَتْ عَلَى رَسُولِ الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْمَصَائِبُ»(٣).

وتحليلاً لما ورد من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال العلماء في كتب السيرة، يتبين للباحث أن السياق يحدد دلالة لفظي السنة والعام، فقد ورد كلاهما في الرخاء والعذاب، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾(٤) فهل كانت السنوات التي قضاها موسى ـ عليه السلام ـ عند فرعون قبل النبوة سنوات شدة؟

وينطبق على هذين اللفظين «إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا» بمعنى إذا ورد اللفظان في سياق واحد فإن دلالة السنة العذاب والجدب، ودلالة العام الرخاء، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، وعبر بلفظ «سنة» ذماً لأيام الكفر، وقال: «إلا خمسين» فحقق أن ذلك الزمان تسعمئة وخمسون من

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب « متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم الحديث: ٤٩٥، ص٨٢.

(٢) متفق عليه.

(٣) ابن هشام، عبد الملك: سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا ورفيقيه، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٥هـ١٩٩٥، ج٢، ص٣٠.

(٤) الشعراء ١٨.

غير زيادة ولا نقص مع الاختصار والعذوبة، وقال: «عاماً» إشارة إلى أن زمان حياته عليه الصلاة والسلام بعد إغراقهم كان رغداً واسعاً حسناً بإيمان المؤمنين وخصب الأرض»(١).

بينما اعتبر بعض المفسرين أن استعمال كلمتي سنة وعام من قبيل التمييز لئلا يكرر اللفظ؛ «لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل الغرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك(٢).

وأما إذا ورد اللفظان مفترقين، فإن الضابط للدلالة هو السياق.

وورد لفظ العام في سياق الحديث عن الموت، في قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾(٣) وعبرّ عن النوم بالسنة في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾(٤).

فأيهما أشد على الإنسان الموت أم النوم؟

وأما دعاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مضر بأن يجعل عليهم سنيهم كسنيّ يوسف ـ عليه السلام ـ فالمقام مقام دعاء بإنزال الشدة عليهم، وأما قوله عليه السلام «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين» فماذا كابد الطفل ابن سبع سنين في حياته حتى يوصف عمره بالسنة؟

وأما كتب السيرة فاعتمدت لفظ «عام» للعام الذي توفيت فيه خديجة ـ رضي الله

---

(١) نظم الدرر: ج١٤، ص٤٠٤

(٢) الكشاف: ج٣، ص٤٥٠، وكذلك قوله تعالى ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ « يوسف ٤٧ ـ٤٩

(٣) البقرة ٢٥٩

(٤) الكهف ٢٥

عنها ـ وأبو طالب، ولاتخفى شدته على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفقده نصيريه، خديجة وأبا طالب، فهل هناك من شدة بعد فقـْدِ النبي صلى الله عليه وسلم نصيريه ـ زوجه وعمه ـ؟، وكذلك عام الفيل، فلِمَ لم يعبر عن هذين العامين بالسنة؟(١)

إلا أن ينظر إلى أن عام الفيل فيه ولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ أي ما سيكون، ففيه بشرى وخير.

٤ : انفجرت وانبجست:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(٢) وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(٣).

الانفجار والانبجاس في اللغة:

جاء في لسان العرب «فجر الفَجْر ضوء الصباح، وانْفَجَر الماءُ والدمُ ونحوهما من السيّال وتَفَجَّرَ انبعث سائلاً وفَجَرَه هو يَفْجُره بالضم فَجْراً فانْفَجَرَ أَي بَجسه فانْبَجَس

(١) انظر الموطأ ـ ماجاء في الرجم ـ ص٧١٢ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ «أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَحَدُهُمَا يَا رَسُولَ الله اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ الله وَقَالَ الْآخَرُ وَهُوَ أَفْقَهُهُمَا أَجَلْ يَا رَسُولَ الله فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ الله وَأْذَنْ لِي فِي أَنْ أَتَكَلَّمَ قَالَ تَكَلَّمْ فَقَالَ إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَبِجَارِيَةٍ لِي ثُمَّ إِنِّي سَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّ مَا عَلَى ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ وَأَخْبَرُونِي أَنَّمَا الرَّجْمُ عَلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ الله أَمَّا غَنَمُكَ وَجَارِيَتُكَ فَرَدٌّ عَلَيْكَ وَجَلَدَ ابْنَهُ مِائَةً وَغَرَّبَهُ عَامًا وَأَمَرَ أُنَيْسًا الْأَسْلَمِيَّ أَنْ يَأْتِيَ امْرَأَةَ الْآخَرِ فَإِنْ اعْتَرَفَتْ رَجَمَهَا فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا».

(٢) البقرة ٦٠.

(٣) الأعراف ١٦٠.

وفَجَّره شُدّد للكثرة، وانْفَجَرَتْ عليهم الدواهي أَتتهم من كل وجه كثيرة بَغْتة، والفَاجرُ الكثير المالِ، وفَجَرَ الرجلُ بالمرأَة يَفْجُر فُجوراً زنا»(١).

الانبجاس في اللغة:

بجس: البَجْسُ انشقاق في قِرْبة أَو حجر أَو أَرض يَنْبُعُ منه الماءُ فإِن لم يَنْبُعْ فليس بانْبِجاسٍ(٢).

دارت محاولات العلماء لإيجاد فروقات دلالية بين اللفظين، فجاءت النتائج كما يلي:

«الانبجاس ابتداء الانفجار، والانفجار بعده غاية له»(٣).

وقيل: «هما بمعنى واحد فيكون من تنويع الالفاظ والفصاحة»(٤).

«الانفجار أبلغ من الانبجاس في كثرة الماء»(٥).

والعلاقة التي تربط بين «كُلُوا وَاشْرَبُوا» و«كُلُوا»(٦).

وحاول فاضل السامرائي استثمار السياق، فكان ملخص قوله:

أن الانفجار دالّ على الكثرة، ولكنه انبجس نتيجة للمعاصي، وأن الانفجار ـ الكثرة ـ مرتبط باستسقاء موسى ـ عليه السلام ـ والانبجاس مرتبط باستسقاء قومه، و القول «فَقُلْنَا» أبلغ من الوحي «وَأَوْحَيْنَا»، وإسناد الفعل «فَقُلْنَا» إلى الله ـ عز وجل ـ فيه تكريم، فناسبه الانفجار، بينما جاء الفعل «قيل» مبنياً للمجهول، والعلاقة بين «الأكل والشرب»

---

(١) لسان العرب: ج١١، ص١٣٠، ١٣١، انظر تاج العروس: ج٧، ص٣٣٨.

(٢) السابق: ج٨، ص١٩٧، تاج العروس: ج٢، ص٢٠.

(٣) ملاك التأويل: ج١، ص٢١٢.

(٤) ملاك التأويل: ج١، ص٢١٢.

(٥) ابن جماعة: كشف المعاني، ص١٠٤.

(٦) البرهان في متشابه القرآن، ص١٢٥.

والانفجار من ناحية، ومن ناحية أخرى العلاقة بين «الأكل» والانبجاس، و المقام مع الانفجار مقام تعداد نعم على بني إسرائيل، بينما مقام الانبجاس مقام تقريع(١).

ومع وجاهة هذا التوجيه، إلا أنه يحتاج إلى وقفات؛ وهي:

أولاً: وفرة النعم ليست دليلاً على التقوى وكذلك شح النعم ليس دليلاً على المعاصي، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٢) ففي سورة الفجر زجر سبحانه وتعالى من ظن هذا فقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾(٣).

ثانياً: إذا أخِذ بعين الاعتبار دلالة نزول القرآن المكي أولاً ثم المدني، فعلى هذا فإن الانبجاس يكون قبل الانفجار.

ثالثاً: يقول: إن المقام في سورة البقرة مقام تعداد النعم على بني اسرائيل، وفي الأعراف المقام مقام تقريع وتأنيب، ولكن المتأمل في سورة البقرة يستشف أن المقام مقام توبيخ وتقريع ابتداء من اتخاذ العجل وقولهم ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾(٤)، وضمير المخاطب الذي يحمل بين ثناياه التقريع ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾(٥)، ثم تتتابع النعم ترا ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٦).

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص١٢٤ ـ١٢٦.

(٢) الأنعام ٤٤.

(٣) الفجر ١٥ ـ ١٦.

(٤) البقرة ٥٥.

(٥) انظر إلى ضمائر المخاطب التالية: وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثم عفونا عنكم، انكم ظلمتم انفسكم، وانزلنا عليكم.

(٦) البقرة ٥٨.

وأما في الأعراف فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عدد نعمه على بني اسرا ئيل بعد الاستسقاء، والمقترنة بـ«كلوا من طيبات ما رزقناكم».

رابعاً: أشار السامرائي إلى أن إضافة الفعل إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ «قلنا» تشريف وتكريم، فناسبه الانفجار، وأما الفعل المبني للمجهول «قيل» فناسبه الانبجاس.

ليس شرطاً أن يكون «المبني للمجهول» دون المبني للمعلوم؛ لأن شأن المبني للمجهول شأن النكرة، قد تأتي للتعظيم، وقد تأتي للتحقير، وضابط ذلك كله السياق، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾(١)، فهذا فعل مبني للمجهول وفيه التشريف.

البقاعي:

تفحص البقاعي النص في سورة البقرة، وربط الانفجار بالفسق، فقال: «وما أنسب ذكر الانفجارهنا بعد ختم ما قبل بالفسق لاجتماعهما في الخروج عن محيط، هذا خروج يحيي وذاك خروج يميت»(٢)، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(٣).

فالبقاعي؛ كانت قراءته للنص في البقرة قراءة رأسية، ؛ أي ربط السياق «فانفجرت» بالسياق السابق «يفسقون»، فربط بين الفسق والانفجار، فاستفاد الباحث ـ ولله الحمد ـ من هذه المنهجية، وقرأ سورة الأعراف قراءة رأسية، فربط السياق بسابقه، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(٤).

---

(١) آل عمران ٩٦.

(٢) نظم الدرر ـ ج١ ـ ص٤٠٤، ٤٠٥.

(٣) البقرة ٥٩.

(٤) الأعراف ١٥٩.

فالهداة هادئ طبعهم، لين جانبهم، سمحة أخلاقهم، فهذه صفات تتناسب مع الانبجاس، الذي يحمل دلالة السيلان بهدوء.

ولاشك أن للدلالة الصوتية أثرها، فالانفجار ينتهي بالراء المفخمة، بينما الانبجاس ينتهي بحرف السين الذي يحمل بين جنبيه الهمس والصفير، اللذين ترتاح الأذن إلى سماعهما، انظر إلى التناغم الموسيقي الكامن في صوت «السين» في قوله تعالى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[١]، والله تعالى أجل وأعلم.

ويختتم الباحث هذا المبحث بقول بنت الشاطئ «فليس لي إلا أن أقر بالعجز والجهل وأنا أتمثل كلمة ابن الأعرابي» كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد في كل منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله فهاهي بنت الشاطئ تعجزعن إيجاد فروق دلالية بين بعض الألفاظ، وتقر بعجزها، وهذه جرأة في الحق تسجل لها.

---

(١) الكهف ٦٩.

المبحث الثالث

التماثل «التشابه اللفظي»

آثرالباحث أن يصنف هذا المبحث تحت عنوان «التماثل» ونأى عن تسميته بالمتشابه حتى لايلتبس الأمر على القارئ بين المتشابه الذي هوقسيم المحكم، والمتشابه اللفظي.

ورد في القرآن الكريم الفعل «تشابه» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾(١).

وعلى صيغة اسم فاعل «متشابه ومشتبه» قال تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾(٢).

ووردت كلمة «متشابهات» قسيمة المحكمات لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ.....﴾(٣)، فالمحكمات بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، والمتشابهات فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم.

تعريف التماثل اللفظي:

في اللغة:

مِثْـل: «كلمةُ تَسْوِيَةٍ يقال هذا مِثْله ومَثَله كما يقال شِبْهه وشَبَهُه بمعنى، قال ابن بري الفرق بين المُماثَلة والمُساواة أَن المُساواة تكون بين المختلِفين في الجِنْس والمتَّفقين، لأَن التَّساوِي هو التكافُؤُ في المِقْدار، لا يزيد ولا ينقُص، وأَما المُماثَلة فلا تكون إِلا في المتفقين،

(١) البقرة٧٠.

(٢) الأنعام ٩٩.

(٣) آل عمران ٧.

تقول: نحوُه كنحوِه، وفقهُه كفقهِه، ولونُه كلونِه، وطعمُه كطعمِه، فإذا قيل: هو مِثْلة على الإطلاق، فمعناه أنه يسدُّ مسدَّه، وإذا قيل: هو مِثْلُه في كذا فهو مُساوٍ له في جهةٍ دون جهةٍ»(١).

«الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ المِثْلُ، والجمع أَشْباهٌ، وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ ماثله وفي المثل مَنْ أَشْبَه أَباه فما ظَلَم، وأَشْبَه الرجلُ أُمَّه وذلك إذا عجز وضَعُفَ...... والمُشْتَبِهاتُ من الأُمور المُشْكِلاتُ والمُتَشابِهاتُ المُتَماثِلاتُ»(٢).

في الاصطلاح:

«هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة»(٣).

والتماثل لا يشترط أن يكون في الآية، بل قد يكون في جزء من الآية.

ودراسة التماثل تكشف الغموض في الآيات المتماثلة، فكشفه يعين على فهم النص القرآني، وربطه مع متماثله.

أهمية دراسة التماثل:

١ـ يشكل التماثل غموضاً يحتاج إلى إماطة اللثام عن وجهه لإزالة الإشكال.

٢ـ كثيراً ما يسبب التماثل صعوبة لدى من يحفظ القرآن، فتصنيف المتماثلات وتحليلها يعين الحفظة على فهم القرآن وحفظه.

٣ـ التماثل برهان على إعجاز القرآن في نظمه، فإن زيادة الحرف أو حذفه في موضع آخر يعطي معنى جديداً.

---

(١) لسان العرب: ج١٧، ص١٤.

(٢) المصدر السابق: ج١٤، ص١٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ج١، ص١٤٦.

٤ـ يظن البعض بما فيهم الملحدون الذين لم يستوعبوا أساليب النظم في القرآن أن التكرار أو التماثل منقصة في القرآن، وباباً يلجون خلاله إلى الطعن في القرآن الكريم.

٥ ـ دعوة يوجهها الباحث إلى المهتمين بالتماثل أن يستقرئوا الآيات المتماثلة، وأن يدرسوها دراسة صرفية، عسى الله أن يفتح لهم فتحاً جديداً.

٦ـ ومن العوامل المعينة على دراسة المتماثل، استقراء جميع النصوص للفظ الواحد، ودراسته دراسة نحويةً صرفية، ودراسة تعانق الآيات في السورة الواحدة، والتناسب بين السور، مستعيناً بترتيب المصحف، ولاغنى للباحث عن دراسة السياق دراسة مستفيضة.

المطلب الأول: التماثل والمفردة القرآنية:

بلغ العرب مرّف الراية ـ القمة ـ من الفصاحة والبلاغة، فكانت تعقد الندوات وتقام المساجلات في أسواقهم، وأسوقُ مثالاً على ذلك؛ أنشد حسان بن ثابت رضي الله عنه فقال:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى — وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق — فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء: ضعفت افتخارك في ثمانية مواضع.

قال كيف؟

قالت: قلت: لنا الجفنات، والجفنات ما دون العشر، فقللت العدد، ولو قلت: الجفان، لكان أكثر، وقلت: الغر، والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت: البيض، لكان أكثر اتساعاً، وقلت: يلمعن، واللمع شيء يأتي بعد شيء، ولو قلت: يشرقن، لكان أكثر؛ لأن الإشراق أدوم من اللمعان، وقلت: بالضحى، ولو قلت: بالعشية، لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف

بالليل أكثر طروقاً، وقلت: أسيافنا، والأسياف دون العشر، ولو قلت: سيوفنا، كان أكثر، وقلت: يقطرن، فدللت على قلة القتل، ولو قلت: يجرين، كان أكثر، وقلت: دماً «والدماء أكثر من الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك»(١).

أولاً: التنكير والتعريف:

التنكير أسلوب بلاغي يحدده السياق فقد يستعمل في التعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢)، وقد تستخدم للتحقير؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾(٣).

فلفظة واحدة استخدمت في تعظيم الحياة التي يحياها الناس بتطبيق القصاص، واستخدمت في تحقير حياة يطلبها يهود مهما كان شأنها وضيعاً، ومن الأمثلة على التنكير والتعريف:

أ: سلام، والسلام:

قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾(٤).

قال تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(٥).

وعلى ضوء استقراء الآيات السابقة يخلص الباحث إلى أن أصحاب الجنة تحيتهم سلام «التنكير» والرسل جميعاً ـ باستثناء عيسى ـ عليهم السلام- تحيتهم سلام «بالتنكير» ولم ينفرد بالسلام «بالتعريف» إلا عيسى ـ عليه السلام ـ.

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ص٢٣٦، والرواية منحولة لأنها تنسب لأكثر من قائل، كالنابغة.

(٢) البقرة ١٧٩.

(٣) البقرة ٩٦.

(٤) الأعراف ٤٦، يونس ١٠، النحل ٣٢، مريم ١٥، الصافات: ٧٩، ١٠٨: ١٠٩، ١١٨ ـ ١١٩، ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٨١.

(٥) مريم ٣٣.

وللعلماء رأي في هذا:

الكرماني: «سلام؛ لأن الأول من الله» في قصة يحيى فنَـكّر الأول وعرّف في الثاني؛ لأن الأول من الله، والقليل منه كثير، كما قال الشاعر جعفر الحيلي:

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

والثاني من عيسى ـ عليه السلام ـ والألف واللام لاستغراق الجنس، ولو أدخل عليه التسعة والعشرين والفروع المستحسنه والمستقبحة، لم تبلغ معشار سلام الله عليه، ويجوز أن يكون ذلك وحياً من عند الله، فيقرب من سلام يحيى، وقيل نكرة الجنس ومعرفته سواء، تقول: لا أشرب ماء، ولا أشرب الماء فهما سواء(١).

وقال الزمخشري: هذا التعريف تعريض بلعنة متهمي مريم وأعدائها من اليهود، وتحقيقه أن اللام للجنس، فإذا قال: وجنس السلام علي خاصة، فقد عرض بأن ضده عليكم، ونظيره ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾(٢)، «يعني أن العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام مناكرة وعناد، فهو مئنة لنحو هذا من التعريض»(٣).

ابن الانباري: «عيسى إنما يتعلم من ربه، فيجوز أن يكون سمع قول الله في يحيى، فبنى عليه وألصقه بنفسه، ويجوز أن يكون الله عز وجل عرف السلام الثاني؛ لأنه أتى بعد سلام قد ذكره، وأجراه عليه غير قاصد به اتباع اللفظ المحكي؛ لأن له أن يغير بعض الكلام الذي يحكيه، فيقول: قال عبد الله: أنا رجل منصف، يريد: قال لي عبد الله: أنت رجل منصف»(٤).

---

(١) الكرماني، محمود بن حمزة: البرهان في متشابه القرآن، دار الكتب العلمية، تحقيق: عبد القادر عطا، ط١، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م، ص٢٥٩.

(٢) طه ٤٧.

(٣) الكشاف: ج٣، ص١٦.

(٤) البحر المحيط: ج٧، ص٢٥٩، روح المعاني: ج١٦، ص٩٠.

مناقشة الأقوال:

يرى الباحث ـ والله تعالى أعلم ـ بأن السلامَـينِ من الله؛ لأن عيسى ـ عليه السلام ـ لا يسلم على نفسه من تلقاء نفسه، ولعل رأي الزمخشري «تعريض بمتهمي مريم وأعدائها» مقبول، ولكن وبالرجوع إلى آيات سورة الصافات، يتبين أن السلام على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ جاء منكراً بعد معاندة ومكابرة أقوامهم ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾(١).

وأما ذكر المعرفة بعد النكرة بقولهم: إذا تكررت النكرة عرفت، فله شاهد من القرآن قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾(٢).

والذي يبدو للباحث أن الإيجاز والإطناب هما سبب التنكير والتعريف، فقصة يحيى عليه السلام فيها إيجاز، فناسبها التنكير، وأما قصة عيسى عليه السلام ففيها الإطناب، فناسبها التعريف.

ب ـ بلداً، البلد:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾(٤).

---

(١) الصافات ٧٩.

(٢) النور ٣٥.

(٣) البقرة ١٢٦.

(٤) إبراهيم ٣٥.

اختلف العلماء في سبب التنكيروالتعريف في «بلداً، البلد»، فكانت آراؤهم تدور حول:

«الإعراب»[١]، و«التنكير والتعريف»[٢]، الحذف والإيجاز، فالحذف على تقدير كلمة محذوفة «البلد» أي اجعل هذا البلد آمناً، والإيجاز من قبيل «تعريف البيت تعريف البلد، واسم الإشارة غير مفتقر إلى التابع»[٣]، أي الدعوتين أسبق «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا» أم «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا»؟ والبعض يعتبر الدعوتين سواء.

ويرى البعض دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ في سورة البقرة ـ وإن كانت مدنية ـ سابق عن أختها في سورة إبراهيم، وذلك أن إبراهيم عندما ترك زوجته وابنه في وادٍ لازرع فيه ولا ضرع، لم يكن هناك بلد، فدعا ربه أن يجعل الوادي «بلداً»، أي طلب البلدية التي فيها الأنس، ثم الأمن، وبعدما تحققت البلدية للمكان دعا أن يجعل الله هذا المكان ـ البلد ـ آمناً[٤].

ويميل الباحث إلى هذا الرأي؛ نظراً لأن الله عزوجل عندما أمر آدم ـ عليه السلام ـ بالهبوط إلى الأرض، بيّـن له ضرورات الحياة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[٥]، ثم بين له أن مَنْ ينحرف عن الهدي الرباني، فإن له معيشة ضنكاً، يكتنفها القلق والخوف، خلاف من يلتزم شرع الله ومنهجه، فإن له عيشة راضية.

---

(١) انظر: البرهان في متشابه القرآن: ص٣٤، الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، ملاك التأويل، دار النهضة العربية، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م ص٢٣٤ـ، الإسكافي، محمد بن عبد الله، درة التنزيل وغرة التأويل، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ١٩٩٥م ـ ص٢٠.

(٢) البرهان في متشابه القرآن: ص٣٤، ٣٥، انظر درة التنزيل: ص٢٢.

(٣) ملاك التأويل: ج١، ص٢٣٤.

(٤) ملاك التأويل: ج١، ص٢١.

(٥) طه ١١٨، ١١٩.

ولهذا منّ الله ـ عز وجل ـ على قريش بنعمتين جليلتين، الشبع والأمن.

وكذلك وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالتمكين والاستخلاف في الآرض.

ويبدو للباحث ـ والله تعالى أعلم ـ أن التعريف والتنكير مرتبط بأمرين؛ هما:

١ـ السياق: فمن خصائص نظم القرآني في البقرة الإيجاز، فناسبها التنكير، وأما سورة إبراهيم، فكان من خصائص النظم فيها الإطناب ـ سياق آيات سورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ففيها إطناب، تعداد لنعم الله ـ عز وجل على الناس كافة، ثم تخصيص أهل مكة بتذكيرهم بنعم الله، فناسب هذا الإطناب التعريف

٢ـ التناغم والمشاكلة بين تعريف لفظ «البيت» في سورة البقرة، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾(١).

الذي تكرر معرفاً ثلاث مرات، فناسب هذا التعريف، تعريف «البلد»

ثانياً: صيغة اسم الفاعل في الإفراد والجمع:

«صابراً، من الصابرين، من الصالحين»:

قال تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾(٢).

﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصابرين﴾(٣).

ثلاث آيات تشابهت في جزء كبير في ألفاظها، وهي صادرة عن ثلاثة أنبياء، وهم إسماعيل وموسى ـ عليهما السلام ـ فما بال إسماعيل ـ عليه السلام ـ تحققت معه المشيئة

(١) «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ..... وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

(٢) الكهف ٦٩.

(٣) الصافات ١٠٢.

الإلهية؛ فكانت معينة له على الصبر، وتخلفت المشيئة الإلهية عن موسى ـ عليه السلام ـ، مع أن الاثنين عليهما السلام ـ أكدا الأمر بحرف السين الدال على قرب وقوع الفعل، ثم تقديم المشيئة الإلهية والتبرك بها.

والبداية مع قصة موسى ـ عليه السلام ـ حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا عمر قال: أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني اسرائيل، إنما هو موسى آخر، فقال: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ، فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَأَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ: يَارَبِّ وَكَيْفَ بِهِ فَقِيلَ لَهُ احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ»(١)، فانطلق موسى وفتاه حتى لقيا الخضر، فعرض موسى ـ عليه السلام ـ أن يعلمه، فقال له الخضر ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأجابه موسى بقوله ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾(٢).

ولفهم النص فهماً حقيقياً لابد من تحليل الألفاظ لمعرفة مدلولاتها بإذن الله.

أولاً: «إن شاء الله»:

هذا سبيل النبيين والمرسلين، تعليق الإنجاز على المشيئة الإلهية، والتبرؤ من الحول والقوة إلا بإذن الله.

ثانياً: «صابراً»

وهو من المشتقات «اسم فاعل» الدال على الثبوت والرسوخ في الصفة، صفة الصبر، ولم يَردِ لفظ «صابراً» في القرآن الكريم إلا مرتين: الأولى: في سورة الكهف، والثانية في

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب قوله تعالى ﴿قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة﴾ ـ ص٨٢١.
(٢) الكهف ٦٩.

سورة «ص» في قوله تعالى مثنياً على أيوب ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(١) فما ورد في سورة «ص» كان في معرض المدح والتزكية لأيوب ـ عليه السلام ـ من ربه، ولم يزك نفسه.

ثالثاً: «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا»

أما قوله صابراً، ففيها تصدر، وهي تختلف عن «من الصابرين» ولم يدرج نفسه في سلك الصابرين، بل أخرج الكلام على وجه لا يشعر بوجود صابراً سواه، ولم يتيسر له الصبر مع أنه لم يهمل أمر الاستثناء.

وأما قوله: «ولا أعصي لك أمراً» ففيه أنه حـُمِـلَ على التصبر إجابة لمقترح الخضر(٢).

ففي هذه القصة تظهر شخصية موسى ـ عليه السلام ـ المتصدرة، ولعل سبب ذلك الظروف التي أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم منذ ولادته، ثم هربه إلى مدين، ثم عودته إلى مصر لمواجهة فرعون وملئه.

ولعل من أسباب عدم صبر موسى ـ عليه السلام ـ أنه لا يصبر على الضيم، فعندما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، سارع ـ عليه السلام ـ لنجدته، وكذلك شهامته أبتْ أن يرى الامرأتين تذودان ماشيتهما، فسارع إلى سقايتهما، ولهذا عندما رأى تجاوزات الخضر؛ لم يصبر، واحتج عليه، ولم يصبر.

ولحكمة إلهية لم يصبر موسى ـ عليه السلام ـ ليرجع إلى قومه؛ لأن الحكمة من هذه الرحلة تحققت؛ وهي أن يعلم موسى ـ عليه السلام ـ أنّ ﴿فوق كل ذي علم عليم﴾(٣)،

---

(١) ص ٤٤.

(٢) التحرير والتنوير: ج١٥، ص٣٧٢.

(٣) يوسف ٧٦.

ولأن العلم غير متناهٍ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَفَعَهُ قَالَ: مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا»(١).

ويُثنّى بقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما رأى في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل، حقاً «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ»، ويمتثل لأمرالله ـ عز وجل ـ وتطفوعاطفة الأبوة فوق الحوار «يا بني» نداء للتحبب ممزوج بألم لايحتمله إلا نبي «إني أرى في المنام أني أذبحك» وكأنه يقدم اعتذاره بأن الأمر رباني، ثم يتجلى برالولد الصابرالمحتسب بقوله «يا أبت» حاملاً أسمى آيات البر، ثم استعان بالله ـ سبحانه ـ على هذا الابتلاء بقوله ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

وللباحث مع هذه القصة وقفتان من حيث الألفاظ:

الوقفة الأولى: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ علم إسماعيل ـ عليه السلام ـ منذ تلقيه النبأ أن الأمر رباني، فلا مناص لهما من الأمر إلا الامتثال، ولذلك قال «افعلْ ما تؤمر».

والوقفة الثانية: ﴿من الصابرين﴾ ولم يقل «صابراً»، أدخل نفسه ـ بكل تواضع ـ في زمرة الصابرين، فـوُفِّـقَ للصبرنتيجة الاستثناء.

وتكشف هذه القصة عن شخصية إسماعيل ـ عليه السلام ـ الموصوف من بارئه بالحلم وصدق الوعد ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾(٢) و﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾(٣).

---

(١) البزار، أحمد، مسند البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله ورفاقه، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، ط١، ٢٠٠٩م، ج١١، ص١٤٨.

(٢) الصافات ١٠١.

(٣) مريم ٥٤.

المطلب الثاني: الزيادة في البناء والتركيب:

حسناً وإحساناً:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾(٣).

جاءت الوصية بالوالدين مجملة ومفصلة، وعقد علماء التماثل والتفسير مقارنة بين ألفاظ السور الثلاث ـ العنكبوت، لقمان، الأحقاف ـ وتقاربت أقوالهم على النحو التالي:

قال الكرماني: «لم يُذكَر في لقمان «حسناً» ولا «إحساناً»؛ وتركت الوصية مجردة عن الوصف، وأردفت الوصية بقوله تعالى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ قام مقامه، ولم يُذكَر في لقمان حملته ولا وضعته موافقة لما قبله من الاختصار، وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤) فإنه ذكر جميع ما يقع بالمؤمنين بأوجزكلام، وأحسن نظم، ثم قال بعده: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي ألزمناه «حسناً» في حقهما، وقياماً بأمرهما، وإعراضاً عنهما، وخلافاً لقولهما إن أمراه بالشرك بالله»(٥).

ابن جماعة:

في سورة لقمان ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ولم يرد ذلك في العنكبوت ولا

---

(١) العنكبوت ٨.

(٢) الأحقاف ١٥.

(٣) لقمان ١٤.

(٤) العنكبوت٧.

(٥) البرهان في متشابه القرآن، ص٢٩٤، ٢٩٤.

في الأحقاف، وفي لقمان ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، وفي الأحقاف ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وفي لقمان والأحقاف ذكر الأم خصوصاً، وفي العنكبوت مجملاً، وفي العنكبوت ولقمان التعريف بالرجوع إليه، ولم يرد ذلك في الأحقاف.

ويبين ابن جماعة أن سورة العنكبوت تتحدث عن قصة سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ مع أمه، ولم يقصد غير هذا، فاكتفى بالتنبيه على الإحسان بهما ما لم يدعوا معاً أو أحدهما إلى الشرك، ولما كان حكماً لا يخص أباً من أم، لم يحتج إلى التنصيص على أحدهما، فوقع الاكتفاء هنا بقوله «حسناً»، وهو الوارد ذكرها في مطلع السورة، وورد في لقمان لما تقدم من قول لقمان لابنه «لاتشرك بالله» لم يرد في الأحقاف؛ لأن آية الأحقاف فيمن كان مؤمناً، ألاترى قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ وسورة العنكبوت مبنية على من طلب من الأبوين الشرك والرجوع إلى الكفر، لم يناسب ذلك أن يقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾(١).

وسبب عدم ذكر الإحسان والحسن في سورة لقمان أن التفصيل في السورة من حيث الحمل والوضع وشدة ما تقاسيه في حمله وتربيته، وحمل الوالد الأعباء «أن اشكر لي ولوالديك» أغنى عن ذكر حسناً وإحساناً(٢).

وأما ابن عاشور فقد وجه الآيات توجيهاً وجيهاً، فقال: «اختلاف الأسلوب بينها ـ العنكبوت ولقمان والأحقاف ـ؛ لأن ما هنا ـ لقمان ـ حكاية ما سبق في أمة أخرى، والأخريين خطاب آنف لهذه الأمة»(٣).

وحتى يتبين الفرق بين «حسناً و إحساناً» لابد من موازنة صرفية بين اللفظين، ثم

---

(١) كشف المعاني في المتشابه المثاني: ج٢، ص٩١٢، انظر ملاك التأويل: ج٢، ص٩١٣.

(٢) كشف المعاني في المتشابه المثاني: ج٢، ص٢٩٧.

(٣) التحرير والتنوير، ج٢١، ص١٥٧.

استقراء الآيات المتضمنة لهما، ثم الاستشهاد بأحاديث تضمنت اللفظين.

وقبل الشروع بالتفريق بين «حسناً و إحساناً» يعرض الباحث معنى الحسن معجمياً، فالحُسْن والحَسَن: لغتان كالبُخْل والبَخَل، وقد قرأ بفتح الباء والخاء حمزة والكسائي وخلف العاشر(١).

و«الحُسن ضد القبح، والجمع محاسن على غيرقياس، كأنه جمع محسن، وقد حَسُن الشيء بالضم حُسْناً، ورجل حسن وامرأة حسنة، وقالوا امرأة حسناء، ولم يقولوا: رجل أحسن، وحسّن الشيءَ تحسيناً: زينه، وأحسن إليه وبه، وهو يحسن الشيء: أي يعلمه، ويستحسنه: أي يعد حسناً، والحسنة ضد السيئة، والمحاسن ضد المساوئ، والحسنى ضد السوءى»(٢).

وأما من الناحية الصرفية: فمعلوم أن زيادة المبنى زيادة على المعنى وهي ليست على الإطلاق، فالفعل «أحسن» مزيد، فمما لاشك فيه أن في «الإحسان» زيادة في المعنى على «الحسن»، وأبتدئ بالحُسن، فأقول: الحُسن يتعلق بالأقوال والأفعال والصفات.

فأما تعلقه بالأقوال، فقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾(٣).

وأما تعلقه بالأفعال، فقوله تعالى: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾(٤).

وأما تعلقه بالصفات، فقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾(٥).

---

(١) حرز الأماني ووجه التهاني، ص٨٥.

(٢) محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، دار المنار، دون سنة الطبع ورقم الطبعة، ص٦٢.

(٣) البقرة ٨٣.

(٤) الكهف ٨٦.

(٥) الأحزاب٥٢.

وقد ورد الأمر بالقول بالحُسن والأحسن، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾(٢).

فلا بد من التوفيق بين الأمرين: القول الحسن والقول الأحسن، فالأمر الأول «وقولوا للناس حسناً» موجه إلى بني إسرائيل، وسياق الآيات السابقة لهذه الآية واللاحقة لها، كلها تبكيت لبني إسرائيل، فلم يطالبهم الله ـ عز وجل ـ بالإحسان، الذي هو أعلى المراتب؛ لأن من الطبيعي أنّ من كانت أخلاقهم نقض الميثاق والعصيانهم أن يطالبهم بدرجة الحسن في القول.

وأما الإحسان فإنه يسمو فوق الإيمان، استناداً للحديث الشريف التالي، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ، قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٣).

والحسن يتعلق بالزينة، بمعنى أنه ناحية جمالية، فقد ورد في الحديث التالي ما يبين أن الحسن مرتبط بالجمال، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ عليه السلام ـ

---

(١) البقرة ٨٣.

(٢) الإسراء ٥٣.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان، رقم الحديث ٥٠، ص١٢.

قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ؛ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»(١).

واقترن الإحسان بعبادة الله ـ عز وجل ـ ولم يقترن الحسن بتوحيد الله(٢)، وقد أمرنا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإحسان في كل شيء، فعن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ

قال: «ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»(٣).

وأما الشيخ شعراوي فإنه يعتبر الحُسن أعلى درجة من الإحسان، فيقول: أوصيك بأن تعمل لهم الحسن، كما تقول فلان عادل، وفلان عدل، فوصى بالحسن ذاته، أما في «إحساناً» فوصية الإحسان إليهما، قالوا: وصى بالحسن ذاته في الآية التي يذكراللدد الإيماني حيث قال: «وإن جاهداك لتشرك» والكفر يستوجب العداوة والقطيعة، ويدعو إلى الخصومة، فأكدعلى ضرورة تقديم الحسن إليهما، لامجرد الإحسان؛ لأن الأمر يحتاج إلى قوة تكليف، أما حين لايكون منهما كفر، فيكفي في برهما الإحسان إليهما، لذلك يقول سبحانه وتعالى ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾(٤).

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم، رقم الحديث ٧١٤٦، ص١٢٣٠.

(٢) انظر: البقرة ٨٣، النساء ٣٦، الأنعام ١٥١، الإسراء ٢٣.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، رقم ٥٠٥٥، ص٨٧٣.

(٤) تفسير الشعراوي ج١٦، ص١١٠٨٦.

والإحسان يسمو بصاحبه، فينقله من محيط الفرائض إلى محيط النوافل، التي هي مفتاح محبة الله ـ عزوجل ـ عبده، ولعل خير شاهد على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(١)، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله تعالى: «إن الله قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(٣).

فـ«المحسن» اسم فاعل مشتق من الفعل «أحسن» الدال على الثبوت، ومصدره إحسان.

وأما قوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾(٤)، فإن السياق يدل على اقتران الإحسان بتوحيد الله ـ عزوجل ـ وتتعانق هذه الآية مع سابقتها ولاحقتها ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٥)، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا

---

(١) الذاريات ١٥ ـ ١٩.

(٢) الأعراف ٥٦.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم الحديث ٦٥٠٢، ص١١٢٧.

(٤) الأحقاف ١٥.

(٥) الأحقاف ١٣، ١٤.

﴿وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾(١)، ويتناسب المصدر «إحسان» مع اسم التفضيل «أحسن» في تناغم رائع.

وطولب الإنسان ببر والديه الكافرين ضمن نطاق الحسن، ويثيبه الله ـ عز وجل ـ بالأحسن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢) وأردف بر الوالين الكافرين ـ بالحسن بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾(٣)، وحتى لا يظن ظانّ أن درجة الحسن مع الأبوين الكافرين فيها منقصة.

وفي لقمان لم يذكر «حسناً» ولا «إحساناً»، والناظر في وصية لقمان لابنه يجد أن التوحيد سبق الوصية بالوالدين ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ﴾(٤)، ثم اقترنت الوصية بالوالدين بشكر الله تعالى وشكر الوالدين ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾(٥)، فكلا الأمرين ـ التوحيد والشكر ـ تربطهما وشائج متينة أغنت عن ذكر الحسن أو الإحسان.

فحال الأبوين في الأحقاف مؤمنان، وبرهما يتطلب أسمى درجات البر، فناسبهما «إحساناً»، وحالهما في العنكبوت لكفرهما يناسبه درجة أقل من برهما لو كانا مؤمنين، فكان «الحسن»، وأما من حيث الأسلوب، ففي سورة الأحقاف كان فيها التفصيل، فناسبها الإطناب «إحساناً»، وأما العنكبوت ففيها إجمال، فناسبها الإيجاز «حسناً».

---

(١) الأحقاف ١٦.

(٢) العنكبوت ٧.

(٣) العنكبوت ٩.

(٤) لقمان ١٣.

(٥) لقمان ١٤.

المطلب الثالث: الحذف والزيادة:

ولا أعني به حذف حروف المعاني، فهذا الحذف سيبسط القول فيه في المبحث التالي «التضمين»، وما أعنيه بالحذف هو حذف تخفيف الحروف من وسط وآخر الألفاظ.

ولايزال الرسم القرآني مغبوناً، ولم يستوف حقه من الدراسات القرآنية؛ لأنه عندما يعجز البعض عن استبطان أسرارالرسم والقراءات فإنه يستتر وراء الجواب الذكي فيقول: الرسم توقيفي، والقراءات لغات عند العرب.

نعم؛ إن الرسم توقيفي، والقراءات لغات عند العرب، ولكن تكمن وراء الرسم والقراءات أسرار وثراء لغوي، ولاتقل الفاصلة القرآنية أهمية عن الرسم والقراءات، فهذه المسائل الثلاث بحاجة إلى المزيد من الدرس اللغوي لاستثارة المعاني المخبوءة فيها.

واتخذ بعض الباحثين من رواية حفص عن عاصم مرتكزاً لدراسة الإعجاز، ولم يربط دراسته ببقية القراءات المتواترة، فالقراءات المتواترة صدرت عن مشكاة واحدة.

ومن الذين تناولوا الحذف والزيادة من المحْدثين؛ الدكتور فاضل السامرائي، فأنكر قراءات متواترة فيها حذف وزيادة، فقال: «وكذلك ما ورد من توفاهم وتتوفاهم، فإن توفاهم تكتب بتاء واحدة، وتتوفاهم تكتب بتاءين، فلا تكون إحداهما مكان الأخرى؛ لأن ذلك مخالف للرسم القرآني»[(١)].

يناقش هذا الكلام في نقطتين؛ هما:

أولاً: أركان القراءة المتواترة: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لايجوز ردها، ولايحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس

---

(١) فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبيرالقرآني، دارعمار، عمان، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩، ص١٠.

قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم»(١).

ثانياً: لم يستوثق السامرائي ـ مع تقدير الباحث له ـ من بقية القراءات المتواترة عندما حكم على «توفاهم» بمخالفتها لرسم المصحف؛ لأنها رسمت بتاء.

قراءة «تّوفاهم» بتشديد التاء فقط، لم يتأثر الرسم بهذا التشديد، ولم ترسم بتاءين؛ لأن الحركات والتنقيط لم يُعْرفا في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ، وقول ابن الجزري «ولو احتمالاً» فيه احتراز واحتياط، إضافة إلى ذلك فإن قراءة «تّوفاهم» بالتشديد قراءة متواترة، انفرد بها البزي عن ابن كثير، وهي من السبع المتواترة.

وتشديد التاء وردت في واحد وثلاثين فعلاً مضارعاً تبدو وكأنها أفعالاً ماضية، فشددها البزي ليرفع اللَبْس عنها، وليظهرها على أنها مضارعة(٢).

فمن هنا يتضح للباحث أن فاضل لم يطلع على رواية البزي عن ابن كثير، ثم ينكر قراءة متواترة أخرى، فيقول: «ما كنا نبغ» فإنه ليست هناك قراءة معتمدة بإثبات الياء؛ لأنها رسمت في المصحف بلا ياء(٣).

وقبل تفنيد هذا الإنكار، لابد من بيان مصادر القراءات العشر المتواترة، حتى يتريث

---

(١) النشر في القراءات العشر: ج١، ص٩.

(٢) الأفعال هي: تّيمموا، تّوفاهم، تّفرقوا، فتّفرق، ولاتّعاونوا، ولاتّفرقوا، تّلقف ـ مكررة ثلاث مرات، «على من تّنزل الشياطين، تّنزل على كل، تّنزل الملائكة، لاتّناصرون، ناراً تّلظى، تّلقونه بألسنتكم، لاتّكلم، وإن تّولوا، فإن تّولوا، أن تولوهم ـ مرتان ـ ولاتّولوا عنه، ولا تّنازعوا، ولاتّبرجن، ولا أن تّبدل، هل تّربصون، تّميز، عنه تّلهى، لتّعارفوا، ولاتّنابزوا، ولاتّجسسوا»، ويقرأ البزي: تمنون وتفكهون بالتخفيف.

(٣) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص١٠.

المنكر قبل إصدارحكمه بالنفي، فمصادر القراءات المتواترة هي:

أولاً: من طريق الطيبة لابن الجزري، ذكر فيها القراءات العشر المتواترة، وتسمى العشر الكبرى، لكثرة طرقها.

ثانياً: من طريقحرز الأماني ووجه التهاني ـ المعروفة بالشاطبية ـ للشاطبي، ذكر فيها سبع قراءات متواترة، ثم أضاف ابن الجزري ثلاث قراءات متواترة أسماها الدرة المضية في قراءة الائمة الثلاث، فأتم بها العشر، وتسمى العشر الصغرى، لقلة طرقها.

وعوداً على نفي السامرائي لقراءة «نبغ» بإثبات الياء، ففي الطيبة والشاطبية باب يسمى

«ياءات الزوائد» يبين مذاهب القراء في إثبات الياء و حذفها، قال ابن الجزري وهي الزوائد التي زادوا على ما رسما تثبت في الحالين لي ظل دما[(١)].

ثم قال:

واتبعون اهد بي حقاً ثما ويأت هود نبغ كهف رم سما[(٢)].

فبعد هذا الشاهد من الطيبة، يتبين أن السامرائي لم يطلع على كل القراءات والروايات.

---

(١) «لي، ظل، دما» الحرف الأول من كل كلمة، يرمز إلى قارئ، فاللام رمز لهشام، والظاء رمز ليعقوب، والدال رمز لابن كثير، بين ابن الجزري في هذا البيت مذاهب القراء ورواتهم في إثبات وحذف ياء الزوائد، فهشام ويعقوب وابن كثير يثبتون الياء وقفاً ووصلاً، والباقون ـ الذين لم يذكروا في البيت ـ فإن مذهبهم الحذف، ثم يقول: الذين أثبتوا الياء في قوله «ماكنا نبغ» الكسائي «ر» ونافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب «سما»، أثبتها وصلاً: نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وأثبتها وقفاً ووصلاً: ابن كثير ويعقوب.

(٢) ابن الجزري: طيبة النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد تميم الزعبي، مكتبة الهدى، جدة، ط١ـ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، ص٦٠.

أولاً: الحذف:

أ ـ إثبات الياء وحذفها من الاسم المنقوص:

قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾(٢).

وردت كلمة «المهتدي» معرفة بأل التعريف ثلاث مرات، واحدة بإثبات الياء، وثنتان بحذفها، وأيضاً ورد ت كلمة «هادي» تسع مرات، ثنتان أثبتت فيها الياء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾(٣)، وحذفت في سبع آيات كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(٤).

ذكر بعض المفسرين واللغويين أن سبب حذف الياء في الاسم المنقوص المعرف هو مراعاة للفواصل الساكنة؛ لأن الأفصح في المنقوص غير المنون إثبات الياء في الوقف، إلا إذا وقعت في القافية أو في الفواصل(٥).

ولكن الناظر في الآيات المذكورة يتضح له أن الياء لم تقع موقع الفاصلة، فما السر إذن؟

المتدبر للآيتين المذكورتين في الأعراف المهتدي، هادي يجد توازناً رائعاً، إثبات يقابله إثبات، ولم يجتمعا في سورة واحدة إلا هنا !

---

(١) الأعراف ١٧٨.

(٢) الإسراء٩٧، الكهف ١٧.

(٣) النمل٨١.

(٤) الرعد ٧، الرعد ٣٣، الزمر٢٣ و٣٦، الحج ٥٤، غا فر٣٣، الروم٥٣.

(٥) التحرير والتنوير: ج١٣، ص٩٨، ٩٩.

ثم إثبات الياء في قوله تعالى ﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾[١] حتى يستوعب القراءات المتواترة الأخرى، فقرأها حمزة «وما أنت تهدي العمي عن ضلالتهم».

ب ـ حذف الياء أوالواو من الفعل:

للحذف تأثير وبعد نفسي، ويجسد الجو العام والحال القائمة الذي جاء به الحذف، وسينتقي الباحث كلمتين حـُذِف من آخرها حرف؛ هما:

١ ـ حذف الياء من الفعل «نبغ» في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[٢].

عندما طلب موسى ـ عليه السلام ـ من فتاه أن يضع الغداء بعد رحلة شاقة، عندئذ تذكرالفتى أنه نسي الحوت عند الصخرة التي ناما عندها، فانتبه موسى ـ عيه السلام ـ أن ذاك المكان هو المبتغى للقيا العبد الصالح ـ عند مجمع البحرين ـ فقال: «ذلك ماكنا نبغ» فحذف الياء، وكأن النّـفَــس من شدة التلهف لم يسعفه للتلفظ بالياء، أو أن الوقت لايسمح بإطالة الحرف، وهذا الاستنتاج على قراءة من حذف الياء وقفاُ ووصلا[٣].

وحذفَ نافع وأبو عمرو والكسائي ياء «نَبْغي» وقفاً، وأثبتوها وصلاً. وابن كثير أثبتها في الحالين. والباقون حَذَفوها في الحالين اتِّباعاً للرسم. وكان مِنْ حَقِّها الثبوتُ، وإنما حُذِفت تشبيهاً بالفواصلِ، أو لأنَّ الحَذْفَ يُؤْنِسُ بالحذفِ فإنَّ «ما» موصولةٌ حُذِفَ عائدُها»[٤].

وقد يكون لإثبات الياء ـ إشباع الحركة ـ دلالة على طول المسافة بين الصخرة وبين

---

(١) النمل ٨١.

(٢) الكهف ٦٤.

(٣) انظر ص٦٤.

(٤) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون، تحقيق: حمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج٧، ص٥٢٧.

مكان وضع الغداء، والله تعالى أعلم وأجل.

٢ ـ حذف الواو من الفعل «سندع» في قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[(١)].

هذا تهديد موجه إلى أبي جهل، واستخدام حرف «السين» فيه دلالة على قرب وقوع الحدث، فالأمر جد خطير، ولايحتمل طول انتظار، بعد أن هدد أبوجهل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه سيدعو ناديه ـ قبيلته ـ وجاء الانتقام الربانيّ سريعاً، وكان ذلك في غزوة بدر الكبرى، فحذفت الواو من الفعل المضارع المرفوع، دلالة على سرعة الانتقام.

٣ ـ حذف التاء ـ تاء الافتعال ـ من «تسطع، اسطاعوا».

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[(٢)]، بتخفيف التاء، مقارنة مع «تستطيع».

وقال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[(٣)]، بتخفيف التاء.

قال الكرماني: جاء الأول على الأصل «تستطيع»، وفي الثاني على التخفيف؛ لأنه الفرع، واختار التخفيف في الأول «اسطاعوا»؛ لأن مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول، فاختار فيه الحذف، والثاني «استطاعوا» مفعوله اسم واحد، وهو قوله «نقباً»[(٤)].

وأما ابن عاشور فإنه يرى أن الجمع بين التخفيف وعدمه هو «تفنن في فصاحة الكلام كراهة إعادة الكلمة، وابتُـدِئَ بالأخف منهما؛ لأنه وليه الهمز، وهو حرف ثـقيل،

(١) العلق ١٨ .

(٢) الكهف ٨٢.

(٣) الكهف ٩٧.

(٤) البرهان في متشابه القرآن: ص١١٠، وانظر كشف المعاني في المتشابه المثاني: ص٢٥٠، ودرة التنزيل وغرة التأويل: ص٢٠٧.

لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف»(١).

وأما الغرناطي فقال: «أستطاع واستاع واسطاع، والأول الأصل، ثم يحذفون أحد الحرفين تخفيفاً، فجيء أولاً بالفعل مخففاً عند إرادة نفي قدرتهم على الظهور على السدّ والصعود فوقه، ثم جيء بأصل الفعل مستوفى الحروف عند نفي قدرتهم على نقبه وخرقه، ولا شك أن الظهور أيسر من النقب، والنقب أشد عليهم وأثقل، فجيء بالفعل مخففاً مع الأخف، وجيء به تاماً مستوفى مع الأثقل، فتناسب»(٢).

وعدّ البعض أنّ التخفيف كان لقرب التاء من الطاء(٣).

وبعد الاطلاع على أقوال علماء التماثل والتفسير في الحذف «تسطع، اسطاعوا» يتبين للباحث مدى الثقل في الفعلين «تستطيع، استطاعوا» قبل أن يكشف النقاب عن الفعل الأول «تستطيع» حيث صعب الأمر على موسى ـ عليه السلام ـ؛ لأنه مخالف للظاهر، فأحس بثقل، ورغم وعده للخضر بالصبر، إلا أنه لم يتمكن من الصبر، وبعد أن وضح الأمر، وأسفرت الحقيقة، زال ذلك الثقل، وحل محله الخفة، فناسب الموقف الحذف والتخفيف.

وأما الفعل الثاني «استطاعوا»، فإن الظهور على السد أيسر من نقبه: فناسب العلو والصعود على السد التخفيف، وأما النقب، فإنه أثقل من العلو، فناسبه زيادة على حروف الفعل، فجاء الفعل «استطاعوا»، وكذلك زيادة تاء الافتعال «تستطيع» و«استطاعوا»

---

(١) التحرير والتنوير: ج١٦، ص١٥.

(٢) ملاك التأويل: ج٢، ص٣٢٣، ٣٢٤، وجاء في نظم الدرر في تنا سب الآيات والسور: «وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض» ولا يخفى أن نقب الجدار أصعب من ظهوره، ولعل ما جاء في نظم الدرر من قلب العليل سهو من الناسخ، ج١٢، ص١٣٨.

(٣) الكشاف: ج٢، ص٧٤٨، البحر المحيط: ج٧، ص٢٢٨، روح المعاني: ج١٦، ص٤١.

يوحي بطول المدة التي انتظرها موسى ـ عليه السلام ـ، وكذلك مدة نقب يأجوج ومأجوج للجدار، وحذف التاء في «اسطاعوا» يشعر بخفة الحركة في محاولة ظهور يأجوج ومأجوج السدّ، والله تعالى أجل وأعلم.

ومن هنا تظهر القيمة التعبيرية في الأفعال الأربعة المذكورة «تستطيع، تسطع، اسطاعوا، استطاعوا»، وراعى القرآن الكريم النسق، فغاير بين الأفعال.

ثانياً: الزيادة:

رسمت كلمة «الربا» في القرآن الكريم على صورتين؛ الأولى بواو «الربو» خمس مرات، والثانية؛ بالألف القائمة «ربا» مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ﴾(١).

وأصل المادة اللغوية للربا «ربا» ثلاثي مجرد، والألف منقلبة عن واو، ربا يربو، وأما الفعل «يربي» فهو مزيد بالهمزة، وماضيه أربى.

وردت الصيغتان في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ﴾، وفي وقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾(٢).

وقبل عقد مقارنة بين الرسمين، لابد من تعريف الربا لغة واصطلاحاً.

الربا لغة: يعني الزيادة.

الربا اصطلاحاً: هوفضل خال عن عوض شرط لأحد المتعاقدين.

فزيادة الواو في آيات الربا تدل على الزيادة الحقيقية، وتجسد الزيادة المحرمة.

وأما الربا المرسوم بالألف «الربا»، فإنه يختلف عن «الربو» المرسوم بالواو، والدلالتان تختلفان.

---

(١) الروم ٣٩.

(٢) البقرة ٢٧٦.

فـ«الربا» في قوله تعالى ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا﴾ ليس عين الربا المتعارف عليه؛ لأن الآية تحدثت عن صنف من المعاملات الربوية بين الناس لاتربو عند الله، فهل هناك رباً يربو عند الله، ورباً لايربو عند الله؟

الربا الذي يربو في أموال الناس هو الهدايا المرجو ردها بأكثرمنها؛ بمعنى: لو أن رجلاً أهدى رجلاً هدية، فلاينتظر ردها بأكثر من قيمتها، فهذه سلوكيات لاقيمة لها عند الله ـ عزوجل ـ.

قال عكرمة: «الربا ربوان: رباً حلال، ورباً حرام، فأما الربا الحلال فهوالذي يهدي، يلتمس ما هو أفضل منه، وعن الضحاك في هذه الآية هو الربا الحلال الذي يهدى ليثاب ما هو أفضل منه، لا له ولاعليه، ليس له أجر فيه، وليس عليه إثم»[١].

و«الربو» المرسوم بالواو جاء في القرآن معرّفاً بأل التعريف الذهنية أو العهدية؛ بمعنى المتعارف عليه، بينما جاء «ربا» نكرة، ثم اقترن الربا بالفعل «آتيتم» بمعنى دفعتم أوأعطيتم مما يُشعر بأنه ليس الربا المعهود لدى الناس.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج١٤، ص٣٤.

المطلب الرابع: التقديم والتأخير:

يكاد التقديم والـتأخير يشكل ظاهرة لولا خروج بعض الآيات عن النسق، وهي مسألة جديرة بالاهتمام، وسيكتفي الباحث بدراسة وتحليل سبب تقدم المغفرة والرحمة على العذاب في القرآن كله إلافي مواضع بعضها في المائدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١)، وقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَالَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَامِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُواعَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوامِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ*أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢)، وقوله تعالى:﴿أعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفوررحيم﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٤).

وبعضها في العنكبوت في قوله تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾(٥).

وأما تقدم المغفرة على العذاب، ففي قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾(٦).

وتقدم الرحمة على العذاب في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾(٧).

---

(١) المائدة ٤٠.

(٢) المائدة ٧٣.

(٣) المائدة ٩٨.

(٤) المائدة ١١٨.

(٥) العنكبوت ٢١.

(٦) البقرة ٢٨٤، آل عمران ١٢٩، المائدة ١٨، الفتح ١٤.

(٧) الإسراء ٥٤.

حاول بعض المفسرين التوفيق بين تقدم العذاب على الرحمة والحديث القدسي «إن رحمتي سبقت غضبي»(١)، فجاءت تعليلاتهم على النحو التالي:

أولاً: اعتبر بعضهم أن معنى كلمة «يعذب» في المائدة يفيد «القطع»، «فقدمت السرقة على التوبة، وأن المغفرة تعني التوبة؛ لأن القطع في الدنيا»(٢).

ثانياً: وصْف الله عزوجل ـ بالقدرة، والقدرة في التعذيب أظهرمن القدرة في المغفرة، وهي أدل على إيقاع النعمة.

ثالثاً: «تقرير بأن ملكوت السماوات والأرض لله سبحانه وتعالى، يتصرف بملكه كيفما شاء، فالأصل التعذيب، والمغفرة فضل منه سبحانه وتعالى»(٣).

رابعاً: إنذارالبشر فيه رحمة؛ لأنه لو لم يتضمن الإنذار لما أنذرهم، ولترك عزوجل البشر دون تحذير، ولكن رحمته سبقت غضبه(٤).

خامساً: البقاعي: «سياق الآيات تقدمت فيه خيانة أهل الكتاب وكفرهم، وقصة ابني آدم، والمحاربة والسرقة، وغير ذلك، قدم قوله معللاً لفعل ما يشاء بتمام الملك، لابغيره من رعاية لمصالح أو غيرها»(٥).

الأقوال المتقدمة مقبولة، وإن كان أظهرها ـ كما يراه الباحث ـ قول البقاعي لربطه بالسياق، وحاول الباحث جاهداً أن يستولد سبباً يخرج عن نطاق التقليد، فتوصل إلى نتائج

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب: قوله تعالى ﴿بل هوقرآن مجيد * في لوح محفوظ﴾، رقم الحديث ٧٥٥٤، ص١٣٠٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ج٢، ص١٢٦ ـ ج١، ص٦٣٢، روح المعاني: ج٦، ص١٣٤.

(٣) روح المعاني: ج٢، ص١٢٦.

(٤) تفسير الشعراوي: ج١٨، ص١١١٢١.

(٥) نظم الدرر، ج٦، ص١٣٧.

يحسبها جديدة بإذن الله تعالى، والأمر يحتاج إلى وقفات مع سورتي المائدة والعنكبوت، فـفيهما تقدم العذاب على المغفرة والعذاب على الرحمة.

يعرض الباحث آيات من سورة المائدة التي ارتأى أن لها ارتباطاً بالقضية، آيات قدم فيها العذاب على المغفرة تلميحاً، فسيطرهذا النسق القرآني على لقطات متفرقة من السورة، ومن تلك الآيات؛ قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(١).

ثم أردفها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إذن قدمت العقوبة على المغفرة، لتقدم الجرم «الحرابة»، فتقدمت العقوبة «يعذب»، ثم أخرت التوبة فأخرت المغفرة.

ثم في السرقة أيضاً قدمت الجريمة على التوبة في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيءقدير﴾(٢).

فذكرت الآية عقوبة السرقة، ثم أردفتها بالتوبة، فناسب ذلك تقديم العذاب على المغفرة.

وفي المائدة أيضاً بيّن الله ـ عز وجل ـ موقف بني إسرائيل من عيسى ـ عليه السلام ـ في عقيدة التثليث، ثم حثهم عل التوبة، فقدم العقوبة على المغفرة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ

---

(١) المائدة ٣٢.

(٢) المائدة ٣٨–٤٠.

كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

ثم جاء قوله تعالى ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾(٢)، وتقديم العذاب على المغفرة جاء متوافقاً مع النظم في السياق السابق؛ حيث قُدِّم النهي عن الصيد أثناء الإحرام، وتعد الله ـ عز وجل ـ من يقتل الصيد وهو حرم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾(٣)، ثم جاءت إباحة الصيد بعد التحلل، والإباحة فيها تخفيف ورحمة، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٤).

وفي نهاية سورة المائدة تقدمت جريمة بني إسرائيل بتأليههم عيسى وأمه ـ عليهما السلام ـ، فجاء قول عيسى بتقديم العذاب على المغفرة ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾(٥).

ولذا؛ فإن الباحث يرى أن تقدم العذاب على المغفرة في سورة المائدة لم يقتصر على آيتي السرقة والحرابة. ولعل قوله تعالى ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يشكل القضية المركزية في السورة، ولعلها تكون من أهم أسباب تقدم العذاب على المغفرة.

---

(١) المائدة ٧٣، ٧٤.

(٢) المائدة٩٨.

(٣) المائدة٩٥.

(٤) المائدة٩٦.

(٥) المائدة ١١٨.

وسورة العنكبوت هي السورة الثانية بعد المائدة التي يتقدم فيها العذاب على المغفرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾(١) .

وجُلُّ ما قاله المفسرون: سورة العنكبوت ابتدأت بذكر العقاب؛ لأن الخطاب جار مع منكري البعث الذين حظهم فيه هو التعذيب، وهذا توجيه طيب لكنه مبتور، توجيه تناول أول السورة في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٢)، وتجاهل خاتمتها في قوله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

تقابل «تضاد» رائع بين مقدمة السورة وخاتمتها، استهلت السورة بتهديد ووعيد للمشركين في افتتاحيتها، واختتمت بهداية ومعية ربانية للمحسنين، فلهذا تقدم العذاب في العنكبوت على الرحمة.

---

(١) العنكبوت ٢١ .

(٢) العنكبوت ٤ .

(٣) العنكبوت ٦٩.

المطلب الخامس: التكرار:

احتدم الخلاف حول التكرار الذي هو قسيم الحذف والزيادة، فمن أقر به إنما أقره لملمح بلاغي؛ لا حشواً ولا إقحاماً، و من أنكره فإنما أنكره تنزيهاً للقران عما لا فائدة فيه.

وظهر الاضطراب في مواقف علماء التماثل، فتارة يقرون به، وتارة ينفونه وينزهون القرآن الكريم عنه.

وأقـرّ به من البلاغيين ابن قتيبة والباقلاني وابن الأثير والخطابي وغيرهم(١).

وأقّـرّ به من المحْدثين مصطفى صادق الرافعي الذي يقول: «وههنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجباً، وهو التكرارالذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء، وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه، لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها، وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لايذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم للتهويل والتوكيد والتخويف والتفجع، وما يجري مجراها من الأمور العظيمة وكل ذلك ماثور عنهم منصوص عليه في كتبهم»(٢).

وقال به من المفسرين الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والألوسي، وأبو حيان، والرازي، والزمخشري، وأبو السعود، وابن عاشور وغيرهم(٣).

وأنكره من المحْدثين فضل عباس فكل كلمة جاءت في مكانها ينبغي ألا توصف بإقحام أو زيادة، كما أننا لن نجد فيه كلاماً مكرراً، بل كل كلمة، وكل جملة فيه جاءت في

---

(١) المثل السائر: ص٨.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ص١٥٣، ١٥٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج٢٠، ص٢٠١، انظر التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ج١٦، ص٢٢١، روح المعاني: ج١، ص١٥٠، التحرير والتنوير: ج٢، ص١٦٢.

مكانها ولا يستغنى بها عن غيرها، ولا يسد غيرها مسدها[١].

ويبين ابن الأثير سراً من أسرار تكرار حرف «أن» في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾[٢]، تكرير «أن» مرتين دليل على أن موسى ـ عليه السلام ـ لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني مسارعته إلى قتل الأول، بل كان عنه إبطاء في بسط يده إليه، فعبر القرآن عن ذلك، ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾[٣].

ومن صور التكرار في القرآن الكريم:

أولا: التكرار في الكلمة:

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٤].

ثانيا: التكرار في الحرف:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[٥].

ثالثا: الأوامر والنهي:

قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٦].

رابعاً: الفواصل:

قال تعالى: ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾[٧].

---

(١) عباس، فضل: لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن، دار النور بيروت، ص٨.

(٢) القصص ١٩.

(٣) المثل السائر: ج٣ ـ ١٣، ١٤.

(٤) الزمر ١٨، انظر: المؤمنون ٣٦، النمل ٥.

(٥) النساء٦٥.

(٦) هود١٢٣، مريم ٦٥، الحج٢٦.

(٧) الرعد ١٩، الزمر٩ .

خامساً: العبرة في القصص القرآني:

قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾(١).

أهمية التكرار:

للتكرار أثر نفسي وباعث جمالي، يوليه التربويون أهمية لما فيه من تأثير نفسي تربوي، ففيه تقرير للمعاني، وتثبيت للمعلومة، وكان لرسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم ـ قصب السبق في هذا الميدان وفي غيره، فكان إذا تكلم كرر كلامه ثلاثاً، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم– ﴿أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا﴾(٢).

والتكرار مطلب نفسي يُلجأ إليه حين تخشى النفس من وقوعها في الخطأ والنسيان، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية(٣) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾(٤).

وبعد هذه الوقفات مع تلك الأقوال، فإن الباحث يرى أن الخلاف ليس جوهرياً، وإنما ينصبّ على المسمى، فمن أنكره، إنما أنكره حتى لا يُظن أن في القرآن حشواً كما يسميه فضل عباس ـ، فلو كان أسلوب التكرار ركيكاً أو ممجوجاً، لاتخذه كفار العرب مدخلاً للطعن.

---

(١) الشعراء٦٧، ٦٨، انظر الشعراء: ١٠٣، ١٠٤، ١٢١، ١٢٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٤، ١٧٥، ١٩٠، ١٩١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، رقم الحديث ٩٥، ص٢٢ .

(٣) ثلاث رسائل في الإعجاز: ص٣٨، انظر سورة مريم ٤٢ ـ ٤٥.

(٤) القصص ١٩.

فالجاحظ مثلاً سماه الترداد، عندما نقل أن ابن السماك كان يوماً يتكلَّم، وجاريةٌ له حيثُ تسمع كلامَه، فلما انصَرفَ إليها قال لها: كيف سمِعتِ كلامي؟ قالت: ما أحسنَه، لولا أنَّك تكْثر تَرداده، قال: أردِّده حتّى يَفْهَمَه مَن لم يَفهمْه، قالت: إلى أن يَفْهَمَه مَن لا يفْهَمُه قد مَلّه من فَهِمَه(١).

ومن المحدثين؛ يرى عبدالله النقراط استبدال مصطلحي التكرار والترداد بمصطلح آخر وهو تصريف القول «وأنا لا أنكر أن بعض أنواع التكرار والترداد من الفصاحة، ولكن أرى استبدال مصطلح تصريف القول بهما»(٢).

ونهاية؛ فإنه لامشاحة في الاصطلاح.

---

(١) البيان والتبيين: ص١٠٤ .

(٢) النقراط، عبد الله: بلاغة تصريف القول في القرآن، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص٥١.

المبحث الرا بع

التضمين

التضمين في اللغة:

جاء في لسان العرب «ضمن» الضَّمِينُ الكفيل ضَمِنَ الشيءَ وبه ضَمْناً وضَماناً كَفَل به وضَمَّنَه إياه كَفَّلَه... وضَمَّنَ الشّيءَ الشيءَ أَوْدَعه إياه كما تُودِعُ الوعاءَ المتاعَ والميتَ القبرَ(١).

التضمين في الاصطلاح:

هو إشراب لفظ معنى لفظ آخر، وإعطاؤه حكمه في التعدية واللزوم، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾(٢)، حيث ضمن الفعل «تَعْزِمُوا» معنى الفعل «تنووا»، فعدي بنفسه،

وهو يتعدى بـ«على»(٣).

المطلب الأول: التضمين نظرياً:

اضطربت أقوال العلماء في التضمين، واختلفت فيه مذاهبهم، ويواجه الباحث الذي يخوض فيه صعوبة ظاهرة، ومن هنا يتبين أن اهتمام الباحثين مقتصر على أدوات المعاني، أو

---

(١) لسان العرب: ج٩، ص٦٤.

(٢) البقرة ٢٣٥.

(٣) التوتنجي، محمد ورفيقه: المعجم المفصل في علوم اللغة، مراجعة إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، ج١، ص١٨، ابن نباته المصري: ت ٧٦٨هـ، غريب غرام في غريب محاسن وكل غريب للغريب نسيب، وجميل صدقي الزهاوي: «ت ١٣٥٤هـ وقلت له إناغريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب.

حروف الصفات، أوعلى إنابة فعل أو تضمينه فعلاً آخر.

وقد تناول علماء البلاغة التضمين وقسموه قسمين؛ هما:

التضمين البديعي:

وهو مختص بأخذ شاعر من شاعر آخر بيتاً أو جزء بيت من شعر، ويضمنه شعره، فيبدو على أنه له، ومن إنشائه، نحو أخـْذ قيس بن الملوح «ت ٦٨ هـ» عجز بيته:

غريب غرام في غريب محاسن وكل غريب للغـريب نسـيب

ضمنه من شعر صخر بن عمرو السلمي «ت ١٠ ق. هـ»:

أجارتنا إنـا غريبـان هـهنـا وكل غريـب للغـريب نسيب

وفي علم العَروض: هو تعلق قافية بيت بالبيت الذي يليه، بحيث لا يستقل معنى القافية حتى تكون موصولة بها في أول البيت الثاني، نحو قول النابغة الذبياني:

وهـُمْ وَرَدوا الجـِفارَ على تـَميم وهْم أصْحابُ يـَوْمِ عـُكاظَ إني

شهـدتُ لهـم مواطـنَ صـادقاتٍ أتَـيـْنَهم بود الصدر مني

فقافية البيت الأول «إني» لاتستقل بمعنى، إلا إذا اتصلت بأول البيت التالي «إني شهدت».

والتضمين البديعي مذموم في الشعر، ولكنه غير قبيح في القرآن الكريم، فقد تعلقت اللام في

افتتاحية سورة قريش ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ تعلقت باللام في خاتمة سورة الفيل ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾(١).

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ج١، ص٨٩، انظر سورة العاديات ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾، فقد تعلقت «بهم» مع «ربهم».

التضمين البياني:

عني البلاغيون والنقاد بتلك العلاقة التي تربط التضمين البياني بكل من الحقيقة والمجاز والكناية، وأهتموا أيضاً بالكشف عن واقع هذا التضمين، أهو قائم على السماع أم على القياس؟

وقد عرّفه الزرَكـْشي بقوله «هو إعطاء الشئ معنى الشئ، وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف، فأما في الأسماء فهو أن تضمن اسماً معنى اسم؛ لإفادة معنى الاسمين جميعاً، كقوله تعالى ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ ضمن حقيق معنى حريص ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه.

وأما الأفعال فأنْ تُضمِّن فعلاً معنى فعل آخر ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً، وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف، فيأتي متعدياً بحرف آخر ليس من عادته التعدي به، فيحتاج إما إلى تأويله، أو تأويل الفعل ليصح تعديه به»(١).

وعلى ضوء هذا التعريف، فيمكن تحليل التعريف إلى:

أ ـ تعدية الفعل بغير حرفه:

نحو قوله تعالى ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾(٢)، فعدي الفعل بـ«على»؛ لأن الفعل «عمي» يتعدى بـ«عن».

ب ـ تضمين الفعل معنى فعل آخر:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(٣)، فتضمن الفعل «عمي» معنى «خفي».

---

(١) السابق: ج٣، ص٣٨٨.

(٢) القصص٦٦.

(٣) هود ٢٨.

ج ـ تضمين الاسم معنى اسم آخر لإفادة معنى الاسمين:

نحو قوله تعالى ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾(١).

فتضمن الاسم «حقيق» معنى «واجب»، والأصل في الفعل «حق» أن يتعدى بـ«على»، نحو قوله تعالى ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾(٢).

د ـ الحذف:

١ ـ كتقدير حال محذوفة حل محلها الجار والمجرور نحو قوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾(٣)، فالجار والمجرور «في زينته» إما أن يكون متعلقاً بالفعل «خرج» أو متعلقاً بحال محذوف تقديره «كائناً» أي فخرج عليهم كائناً في زينته.

٢ ـ حذف حرف الجر الذي من عادته أن يتعدى الفعل به، مما يُدخِل الفعلَ في دائرة الاشتراك اللفظي.

٣ ـ إيراد لفظتين متشابهتين في الوزن والروي نحو قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(٤)، ويسمى التضمين المزدوج، ويسمى تجنيس التصريف، وهو أن تنفرد كل من الكلمتين بحرف كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الارض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾(٥).

وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «الخيل معقود بنواصيها الخير»(٦).

---

(١) الأعراف ١٠٥.

(٢) الصافات ٣١.

(٣) القصص ٧٩.

(٤) النمل٢٢.

(٥) غافر٧٥.

(٦) متفق عليه.

واعتنت طائفة من النحويين بالتضمين، وتباينت مواقفهم متمثلة في المذهبين: الكوفي والبصري، وسيرجئ الباحث موقف المحْدثين إلى نهاية هذا المبحث بإذن الله تعالى.

أنكر البصريون القول بأن لحرف الجر أكثر من معنى، ومن ثَمّ فإنهم رفضوا تناوب الحروف قياسياً؛ لأن حروف الجزم لا تنوب عن حروف النصب، واعتماداً على هذا؛ فإنهم يقولون بتضمين فعل معنى فعل آخر، يتعدى بذلك الحروف أو على شذوذ النيابة.

وخالفهم الكوفيون، ورجح ابن هشام مذهب الكوفيين وقال: أقل تعسفاً، وقال ابن الأنباري في الإنصاف: وذهب الكوفيون إلى أن «مِنْ» الجارة يجوز استعمالها في الزمان والمكان، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز استعمال «مِن» في الزمان، أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا الدليل على أنه يجوز استعمال «من» في الزمان أنه قد جاء ذلك في كتاب الله تعالى، وفي الشعر العربي، قال تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾(١).

وقال زهير:

لِمَنِ الدِّيارُ بقُنَّـةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومن دَهْرِ

فدل على أنه جائز.

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: أجمعنا على أن «مِن» في المكان نظير «مذ» في الزمان؛ لأن «من» وضعت لتدل على ابتداء الغاية في الزمان(٢).

---

(١) التوبة ١٠٨.

(٢) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج١، ص٣٠٦.

المطلب الثاني: من صور التضمين القرآني:

يشيع التضمين في النص القرآني في مواضع كثيرة، وتطالعنا نصوص كثيرة يبدو فيها التضمين في أثناء التعدية بالحروف، فمن ذلك:

أ: الفعلان اللازم والمتعدي:

الأصل في الفعل المتعدي ينصب مفعولاً، دون الحاجة إلى حرف جر، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾[1]، فاعتبر فريق سبب نصب «قومَه» نزع الخافض، والتقدير «من قومِـه»؛ لأن الاختيار انتقاء من متعدد.

وذهب فريق آخر إلى أن استعمال الفعل مرة متعدياً بنفسه، ومرة متعدياً بحرف، ولم يكن أحد الاستعمالين مشهوراً، قيل فيه متعدياً بوجهين، ولم يحكم بتقدير الحرف عند سقوطه، ولا بزيادته عند ثبوته، كالفعل نصحته، ونصحت له.

ومن الأفعال التي وردت في القرآن الكريم متعدية بنفسها تارة، وبحرف جر تارة أخرى، الفعل «يهدي» كقوله تعالى ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[2]، وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

يرى ابن عطية أن حرف الجر محذوف من قوله تعالى ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ والتقدير: يهديك إلى صراط مستقيم[4]، ويعده فعلًا متردداً. يتعدى بنفسه وبحرف.

وقد تعرض ابن عطية لمسألة التضمين في الحروف، واضطربت مواقفه منها، فتارة

---

(١) الأعراف ١٥٥.

(٢) الفتح ٢.

(٣) البقرة ٢١٣.

(٤) المحرر الوجيز: ج١٣، ص٤٣٣.

ينفي تناوب الحروف، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ[(١)] فهو يضعف رأي من قال بأن «إلى» بمعنى «مع» أو «الباء» وحجته في ذلك أن الخليل وسيبويه وغيرهما يأبون ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[(٢)]، فيقول: «عن» بمعنى «من»[(٣)].

ب ـ: الحروف:

يرى البصريون أنه ليس لحرف الجر إلا معنى واحد أصلي، وإن أدى غيره معناه الأصلي فهو محمول على تضمين الفعل أو العامل معنى فعل أو عامل آخر يتعدى به.

ويرى الكوفيون خلاف ذلك، فلحرف الجر أكثر من معنى حقيقي، وفي قصره على معنى واحد فيه تعسف؛ لأن أقسام الكلمة ثلاثة: اسم وفعل وحرف، فالحرف كالأسماء والأفعال التي ثبت أنها تؤدي معاني حقيقية.

وقد عقد ابن جنيّ باباً في استعمال الحروف بعضها مكان بعض، وَوَفّق بين المذهبين، فقال: «هذا باب يتلقاه الناس مغسولاً ساذجاً من الصنعة، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه، وذلك أنهم يقولون إنّ «إلى» تكون بمعنى «مع»، ويحتجون لذلك بقول تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾[(٤)]؛ أي مع الله، ويقولون: إن «في» تكون بمعنى على، ويحتجون بقوله عز اسمه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها. ويقولون: تكون الباء بمعنى عن وعلى، ويحتجون بقولهم: رميت بالقوس أي عنها وعليها».

---

(١) البقرة ١٤.

(٢) الشورى٢٥.

(٣) المحرر الوجيز: ج١٣، ص١٦٧.

(٤) الصف ١٤.

ثم يقول «ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا؛ لكنا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوغة له، فأما في كل موضع وعلى كل حال فلا، ألا ترى أنك إن أخذت بظاهر هذا القول غفلاً هكذا، لا مقيداً لزمك عليه أن تقول: سرت إلى زيد، وأنت تريد: معه، وأن تقول: زيد في الفرس، وأنت تريد: عليه، وزِيدٌ في عمرو، وأنت تريد: عليه في العداوة، وأن تقول: رويت الحديث بزيد، وأنت تريد: عنه، ونحو ذلك، مما يطول ويتفاحش، ولكن سنضع في ذلك رسماً يعمل عليه، ويؤمن التزام الشناعة لمكانه»(٥).

ويضرب ابن جني مثلاً على تناوب الحروف قوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾(٦)، فيقول: والرفث يكون مع النساء.

ويدل هذا على أن ابن جني يعتمد قرينة السياق الدالة على تعدي الفعل بهذا الحرف أو ذاك.

ج ـ الحذف:

كان العرب ـ في جمهرتهم ـ أمة لاتقرأ ولا تكتب، وتعتمد في رؤية منجزاتها وأيامها وأعمالها وشعرها بالرواية الشفوية، وتستند هذه الرواية على الذاكرة التي تختزن المعلومة، ولعل هذا النهج هو الذي حمل العرب على الإيجاز والاختصار، ولهذا عدّ الرسول ـ عليه السلام ـ قِصَرَ الخطبة من علامات الفقه، فعن عمار ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: «إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: إِنَّ طولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ وَإِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لسِحْرًا»(٧)

---

(٥) الخصائص: ج٢، ص٣٠٧، ٣٠٨.

(٦) البقرة ١٨٧.

(٧) صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم ٢٠٠٩، ص٣٤٨.

مسوغات الحذف:

أ ـ الافتقار: إذا لم يُـذكر ما تفتقر اليه إلكلمة، فلا بد من القول بحذفه.

ب ـ الاختصاص: إذا كان اللفظ يدخل على غير ما يختص بالدخول عليه، قيل بالحذف.

ج ـ الرتبة: إذا وُجِد مثلاً دليلٌ على الجواب متقدماً، ولم يـَذكر الجواب متأخراً، قيل: إن الجواب محذوف، فسره ما تقدم.

د ـ الربط: إذا لم يذكر الرابط في أماكن وجوده، قيل بحذف الرابط.

هـ ـ المعنى المعجمي.

و ـ المعنى التركيبي للجملة، كأن يذكر المبتدأ ويحذف الخبر، أو العكس(١).

وثمة فروق بين الحذف والإيجاز:

فالحذف: إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل، وأما الحذف عند النحويين: فمنه الحذف لغير دليل، ويسمى اقتصاراً، وفي الحذف ثـَمّ مقدر، نحو قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا﴾(٢).

وأما الإيجاز فهو ألفاظ قليلة جامعة لمعاني جمة، نحو قوله تعالى ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾(٣).

والحذف يشمل: الجملة والمفردة والحرف والحركة.

ومن حذف الجملة صيغة القَـسَم، نحو «لَأَقْتُلَنَّكَ» والتقدير: أقسم بالله لأقـتلن.

---

(١) البيان في روائع القرآن: ص٢٠٦.

(٢) يوسف ٨٢.

(٣) الإحزاب ٧٣.

وأما حذف الفعل فهو قسمان؛ حذف خاص؛ يكون بإضمار فعل نحو: أخص، أو أعني، ويكون ذلك في المدح والذم والاستفهام والاستثناء والنداء والإغراء والتحذير، نحو قوله تعالى ﴿ فقال لهم رسول الله ناقةَ الله وسقياها﴾(١)، بمعنى «احذروا ناقة الله».

وحذف عام؛ يكون في:

أ ـ الفعل، في الحالات التالية:

١ـ أن يكون مفسراً نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾(٢).

٢ـ أن يكون فيه حرف جر، نحو قوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

٣ـ أن يكون جواباً لسؤال نحو قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(٣).

٤ـ أن يكون بدلاً من مصدره، نحو قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(٤).

٥ـ أن يدل عليه ذكره في موضع آخر، نحو قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾(٥)، أي سخرنا لسليمان الريح.

٦ـ المشاكلة، كحذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿بسم الله﴾ فلو ذكر الفعل لتقدم الفاعل على ذكر الله.

٧ ـ يدل عليه العقل، نحو قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ

---

(١) الشمس ١٣.

(٢) الانشقاق ١.

(٣) العنكبوت ٦١.

(٤) يوسف١٨.

(٥) الأنبياء٨١.

اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[١] أي فضرب فانفجرت.

٨ـ يدل عليه المعنى الظاهر للفعل، نحو قوله تعالى ﴿ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ﴾[٢]، النهي يقتضي أمراً تقديره: افعلوا.

ب ـ الاسم ويكون في:

١ـ حذف المبتدأ نحو قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغ [٣]﴾ والتقدير هذا بلاغ.

٢ـ حذف الخبر نحو قوله تعالى ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾[٤].

٣ـ حذف المضاف نحو قوله تعالى ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ بتقدير أهل القرية.

٤ـ وحذف الاسم إذا كان مكرراً نحو قوله تعالى ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرسول﴾[٥]، بتقدير من تراب أثر حافر فرس الرسول[٦].

٥ ـ حذف المضاف إليه نحو قوله تعالى ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[٧]، بتقدير «قبل ذلك».

٦ـ حذف الموصوف وإقامة الصفة مكانه، نحو قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) البقرة ٦٠.

(٢) النساء ١٧١ .

(٣) الأحقاف ٣٥.

(٤) محمد ٢١.

(٥) طه ٩٦.

(٦) خالف أبو مسلم الأصفهاني غالبية المفسرين في أن يكون السامري رأى جبريل ـ عليه السلام ـ وفرسه، وإنما أوله بأنه رأى أثر سنة موسى ـ عليه السلام ـ فطرحها ـ انظر التفسير الكبير: ج١٦، ص١١١ .

(٧) الروم ٤.

الصَّالِحَاتِ﴾[١] بتقدير «أعمالًا صالحات».

وينكر فضل عباس الحذف، فيقول: «والمتحدث عن الزوائد حري به أن لا ينسى قضية خطيرة، لا تقل خطورة عن قضية الزوائد، ونعني بها قضية الحذف، والذين ادعوا أن في القرآن كلمات زائدة، ذهب بعضهم إلى أن فيه كلمات محذوفة كذلك، ولكنه حذف لا يقوم على دليل»[٢].

ولكنه يقول بالحذف عند تفسير قوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[٣]، فيقول: «العقل والحس على السواء يتبادر لهما أن هناك كلمة محذوفة تناسب هذا العدد، كأنه قيل: اثنتي عشرة فرقة، ثم قال: أسباطاً أمماً، وفي ذلك تصوير رائع لاختلاف أولئك وشدة تفرقهم»[٤].

د ـ رابعاً: الزيادة:

تختلف الزيادة عند النحويين عنها عند الصرفيين، فالزيادة عند النحويين زيادة حرف من حروف المعاني، فالبصريون يسمونها حروف زيادة، والكوفيون يسمونها حروف صلة.

وأما علماء الصرف فالزيادة عندهم زيادة في بنية الكلمة.

ورأى البعض أن حذف الحروف ووجودها سواء، وإذا أسقطت بقي الكلام تاماً، ورأى آخرون أن وجودها لغرض لفظي يتعلق بالجرس، والمعنى سواء، حذفت أم ذكرت، ولا تزيد المعنى شيئاً.

---

(١) يونس ٩.

(٢) لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن: ص٩.

(٣) الأعراف ١٦٠.

(٤) لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن ـ ص١٨، ويقول في كتابه «التفسير أساسياته واتجاهاته ـ ص٤٠٧ ـ ومن مجاز ماحذف وفيه مضمر قال: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ»، فهذا محذوف فيه ضمير مجازه: واسأل أهل القرية.

ويعتبرها عبد العال سالم مكرم ظاهرة أسلوبية يستملح بها الكلام، وذلك ما استقر عند العرب، وإنما جاء القرآن على أسلوب العرب ونهجهم.

ومن الذين قالوا بوجود الزوائد في القرآن الفراء والأخفش أبوعبيدة معمر بن المثنى وابن قتيبة وأبو حيان.

وأنكره الطبري ومحمد عبد الله دراز وعائشة عبد الرحمن.

وهناك فريق متردد بين الأخذ والرد، منهم أحمد بدوي الذي يقول: «ومن كل ذلك يبدو أن ما يمكن عده زائداً، إنما هو حروف نادرة جيئ بها لأغراض بلاغية وفت بها هذه الحروف الزائدة، أو يظهرأن تسميتها زائدة معناها أنها لا يرتبط بها حكم إعرابي؛ لأنها لم تؤد في الجملة معنى»(١).

والزيادة والحذف في القرآن الكريم قضية شأنها شأن بقية القضايا اللغوية المختلف فيها، وأحسب أن كلا الفريقين مأجور على اجتهاده، فالمنكرون ما كان إنكارهم إلا من قبيل تنزيه القرآن الكريم من الزيادة التي قد ينظر إليها أنها حشو لافائدة فيه، وأن النقص يتنافى مع كمال إتقانه.

والزيادة في العرف النحوي لاتعني أنها فائضة عن الحاجة، أو أنها مقحمة إقحاماً، وإنما تعني أن التركيب اللغوي يستطيع أن يستغني عنها دون أن يلحق به خلل أو عيب، أو غموض أو إبهام.

ووجود الحرف الزائد في المبنى إنما يزيد في المعنى، ويحدث فيه طفرة بلاغية تجعل الكلام شهياً، فيه كثير من اللطف والرقة والعذوبة.

وإنكارالزيادة في القرآن الكريم مسألة أثارها قوم يظنون أن الزيادة اللغوية في القرآن

---

(١) بدوي، أحمد: من بلاغة القرآن: مكتبة نهضة مصر، ط٣، ١٣٧٠هـ ١٩٥٠م، ١٠٢

قدح فيه، وليس الأمر كذلك؛ لأن القرآن قد صيغ بلسان عربي مبين، وهذا اللسان يضيف حرفاً في بعض المواضع ليزيد المعنى المطروح، أليس قوله تعالى: ﴿أَلَستُ بِرِبِّكمْ﴾[1]، أقوى من قولك: لست ربكم.

المطلب الثالث: التضمين تطبيقياً في القرآن:

أولاً: الحروف:

تطل علينا آيات عديدة يبدو فيها التضمين في أثناء التعدية بالحروف، فمن ذلك التعدية بالحروف التالية:

أ ـ التعدية بحر في «اللام» وعلى نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[2] و﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

فرق البعض ـ منهم الشعراوي ـ بين تعدية الفعل «فتح» باللام وعلى، وعدّ تعدية الفعل «فتح» بـ«اللام» للدلالة على الخير ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، وتعديته بـ«على» للدلالة على الشر، نحو قوله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[3]، فالفتح كان عقوبة.

وقد ورد استخدام حرف الجر «اللام» لتعدية الفعل «فتح» للدلالة على الخير والشر، فمن التعدية بـ«على» للدلالة على الشر ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فكان الفتح عقوبة لهم، ومن تعدية الفعل «فتح» بحرف الجر «على» دالاً على

---

(١) الأعراف ١٧٢.

(٢) الأعراف ٩٦، انظر: البقرة ٧٦، ، الأعراف ٤٠.

(٣) الأنعام ٤٤.

المثوبة والخير، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(١).

وفي حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله «أَنَّ رَجُلًا قَامَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي نَذَرْتُ لله إِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكَ مَكَّةَ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَكْعَتَيْنِ، قَالَ: صَلِّ هَاهُنَا»(٢).

ومما يتضح للباحث من الأدلة السابقة أن الفعل «فتح» عدّي بالحرفين «اللام وعلى» وقد تعاور الحرفان الدلالة نفسها، فبدا واضحاً أن تخصيص «اللام» بالخير وتخصيص «على» بالشر استنباط يفتقر إلى الاستقراء الدقيق، وأن الحَكَمَ في المسألة هو السياق.

ب ـ التعدية بحرف «في»:

١ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣).

لم يتعد الفعل «ركب» في القرآن الكريم بحرف «على»، ولكن جاء الفعل «حمل» متضمناً معنى الفعل «ركب» في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾(٤).

واستدل الشيخ الشعراوي ـ رحمه الله ـ أن سفينة نوح ـ عليه السلام ـ قد صنعها بوحي من الله تعالى على أفضل نظام في البواخر، ولم يصنعها بطريقة بدائية، فهم إذن لم يركبوها على سطحها، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات، بجانب البشر، لذلك كان لابد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار(٥).

---

(١) الأعراف ٩٦.

(٢) سنن أبي داود: كتاب الأيمان والنذور، باب من نذر أن يصلي في بيت المقدس، رقم الحديث ٣٣٠٥ ص٥٠٥.

(٣) هود ٤١، يونس ٢٢.

(٤) القمر١٣.

(٥) تفسير الشعراوي: ج١٠، ص٦٤٧٢.

وهذا استنباط يمكن أن ينطبق على سياق سورة هود لا غير؛ لأن الفعل «ركب»: لم يتعد في القرآن إلا بحرف «في» كما في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(١) وهذا ليس خاصاً بسفينة نوح ـ عليه السلام ـ(٢).

وأما ما حُمِل في السفينة، فإن الله ـ عزوجل ـ يؤلف بينها، وهو القادر على ذلك. ٢ ـ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي:

ومن التعدية بالحرف «في» التي أثارت جدلاً بين القائلين بالتضمين ومعانيه قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾(٣).

يرى الكوفيون أن «في» تقع موقع «على»، قال البقاعي: «وعبرعن الاستعلاء بالظرف إشارة إلى تمكينهم من المصلوب فيه تمكين المظروف في ظرفه فقال: «في جذوع النخل» تبشيعاً لقتلكم ردعاً لأمثالكم»(٤).

ومَنْ نفى التضمين في الآية استند إلى قولٍ أورده أبو حيان حين قال «وقيل: نقر فرعون الخشب وصلبهم في داخله، فصار ظرفاً لهم حقيقة حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً»(٥).

قال الزرَكشي: ولم يقل: «على» كما ظن بعضهم؛ لأن «على» للاستعلاء، والمصلوب لا يجعل على رؤوس النخل، وإنما يصلب في وسطها، فكانت «في» أحسن من «على»(٦).

---

(١) العنكبوت ٦٥.

(٢) انظر: الكهف ٧١، العنكبوت ٦٥.

(٣) طه ٧١.

(٤) نظم الدرر: ج١٢، ص٣١٢.

(٥) البحر المحيط: ج٧، ٣٥٨.

(٦) البرهان في علوم القرآن: ج٤، ص٢٠٠.

ولمناقشة هذه المسألة لا بد من الوقوف على ما يلي:

أولاً: الرواية التي ذكرها أبو حيان «قيل: نقر فرعون الخشب وصلبهم في داخله» واستدل بها محمد حسن عواد، هذه رواية تحمل صيغة التمريض «قيل»، ولا يخفى أن علم الجرح والتعديل من أشرف العلوم التي اختصت بها هذه الأمة، فهو يعد صيغة «قيل» من صيغ التضعيف.

ثانياً: الفعل «ولأصلبنكم» لم يقف الباحث على قول يقول بأنه مجازي، وإنما هو على حقيقته ـ لمن يقول بتضمين الفعل ـ هروباً من القول بتناوب الحروف، فما معنى الفعل الذي يتضمنه الفعل «ولأصلبنكم»؟

ثالثاً: نقر فرعون الخشب وصلبهم في داخله: فصار ظرفاً لهم حقيقة، فهل يقال لمن أدخل حفرة أو أنزل قبراً أنه صلب؟

وقد استخدمت العرب في عصور الاحتجاج تعدية الفعل «صلب» بحرف الجر «في»، فقال سويد بن ابي كاهل اليشكري «ت ٦٠هـ»:

وهم صلبوا العبدي في جذع النخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

وقد باين القرآن الكريم في التعدية بين الحرفين «على» و«في» في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١)، فإن قلت كيف فرق بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: «لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضلال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه، لا يدري اين يتوجه؟»(٢).

قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه:

أتانا والأنام على ضلال فجـدّ إلى هواه به الأنام

---

(١) سبأ ٢٤.

(٢) الكشاف: ج٣، ص٥٩١.

وهذا البيت يبين استعلاء الناس على الضلال قبل بعثة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ج ـ التعدية بحرف الجر «إلى» و«اللام»

«إلى» تفيد انتهاء الغاية الزمانية والمكانية:

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾(٢).

تجاذب العلماء معنى الحرف «إلى» فقال بعضهم: «إلى» تفيد الغاية الزمانية؛ أي أن الشمس والقمر يجريان إلى يوم القيامة.

وقال آخرون: الجري مختص بالحركة وأنهما يجريان في مدارهما بنظام ثابت محكم إلى الوقت المحدد ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٣).

وأما تعدية الفعل «يجري» بحرف اللام في قوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قال هنا ـ لقمان ـ بلفظ «إلى أجل» وفي سورتي فاطر والزمر بلفظ «لأجل»؛ لأن ما هنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهي إليه الخلق، وهما قوله تعالى: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ و﴿ياأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾(٤) الدالة على الانتهاء.

«وما في فاطر والزمر من ذلك، إذ ما في فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه،

---

(١) الرعد ٢، فاطر ١٣، الزمر ٥ .

(٢) لقمان ٢٩.

(٣) يس ٤٠ .

(٤) لقمان ٢٨ و٣٣.

وما في الزمر ذكروا أنها ابتدائه، فناسب ذكر اللام، والمعنى يجرى كل كما ذكر لبلوغ أجل مسمى»(١).

د ـ التعدية بحرف الجر «على» و«لام التعليل»:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾(٣).

يقول ابن عاشور: «حرف «على» أدل على تمكن المجاهدة، أي مجاهدة قوية للإشراك، وأما آية العنكبوت، فجيئ فيها باللام «لام العلة» لظهور أن سعداً كان غنياً عن تاكيد النهي عن طاعة أمة لقوة إيمانه»(٤).

هـ ـ التعدية بالباء، واللام، وإلى:

عدي الفعل «أحسن» بالحروف الثلاثة المذكورة:

قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾(٥).

وقالوا: «الباء ترادف «إلى» في هذا الفعل، تقول أحسنت به وأحسنت إليه بمعنى واحد، وقد تكون على هذا التقديرعلى حذف المضاف؛ أي: أحسنوا ببرالوالدين، والمعنى: وأحسنوا إلى الوالدين»

واعتبر البقاعي أن التعدية بـ«الباء» أدل على القرب من المحسن من التعدية

---

(١) العجيلي، سليمان بن عمر: حاشية الجمل على الجلالين، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، دون سنة النشر ورقم الطبعة، ج٣، ص٤٠٩.

(٢) العنكبوت ٨.

(٣) لقمان ١٥.

(٤) التحرير والتنوير: ج٢١، ص١٦٠.

(٥) يوسف ١٠٠.

بـ«إلى»[١] ومن لم يقل بتناوب الحروف، قال بأن الفعل «أحسن» تضمن معنى الفعل «لطف» لمناسبة رأس الآية ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وعدي الفعل «أحسن» باللام في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٢].

ويوجه ابن عاشور حرفي «اللام، على» في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[٣] فقال: حرف «على» مؤذن بالمؤاخذة وتحمل أعباء، كما أن «اللام» في قوله ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ مؤذن بالعطاء»[٤].

ثانياً: الأسماء

قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[٥].

أثارت هذه الآية جدلاً بين العلماء، فمِـن قائل: إن تمييز العدد محذوف تقديره «فرقة» ليتوافق التأنيث مع العدد والمعدود[٦]، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

ومنهم من قال بتضمين «أسباطاً» معنى قبيلة، «فتضمن لفظ «أسباطاً» معنى قبيلة، كما غلب على لفظ الأنصار وهي بمعنى الحي أو القبيلة، ولهذا وقع المفرد في التمييز»[٧].

ونظير ذلك تضمين لفظ «نفس» معنى «شخص» في الحديث النبوي الشريف، قال

---

(١) نظم الدرر: ج١٠، ص٢١٨.

(٢) الإسراء٧.

(٣) الجاثية ١٥.

(٤) التحرير والتنوير: ج٢٤، ص٣١٩.

(٥) الأعراف ١٦٠.

(٦)البحر المحيط: ج٥، ص٢٠٠.

(٧) روح المعاني: ج٥، ١٢٩.

صلى الله عليه وسلم «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا»[١]، فالنفس لفظ يحمل التذكير والتأنيث، وإن كان غالب ما في القرآن الكريم جاء على التأنيث، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[٢]، فالعدد تسعة يخالف المعدود في التذكير والتأنيث، فكيف جاء لفظ «نفس» موافقاً للعدد في التانيث؟ وقد ورد الحديث بلفظ آخر «قتل تسعة وتسعين إنساناً»[٣].

ثالثاً: الأفعال:

قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾[٤].

«تضمن الفعل «يبلي» معني يعطي»[٥].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل، وإن كثر قتله، رقم الحديث ٧٠٠٨، ص١١٩٩.

(٢) الشمس ٧.

(٣) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٤، رقم الحديث ٣٤٧٠، ص٥٨٥.

(٤) الأنفال ١٧.

(٥) انظر المطلب التالي.

المطلب الرابع: آيات للرد على منكري التضمين في القرآن الكريم

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وِيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾(١)

تناول بعض العلماء قول الله تعالى: ﴿وِيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ من عدة زوايا، فتأولها الكوفيون على حذف حرف النفي «لا» وذلك لنفي الضلال لا لوقوعه، فكيف يجتمع البيان والضلال؟ ويدل على ذلك قول عمرو بن كلثوم:

نزلتم منزل الأضياف منا فَعَجّلْنا القِرى أن تشتمونا

أي: أن لا تشتمونا وتصفونا بالبخل.

وتأولها البصريون من زاوية أخرى، تأولوها على أساس حذف المضاف، وتقديره كراهة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾(٢).

وعند تدبر قوله تعالى: ﴿لوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾(٣) يتبين أن علماءنا لم يمروا عليها دون بيان، فقال الكسائي وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة «إلا» هنا ليست للاستثناء، بل هي بمعنى «غير» صفة لآلهة، ولذلك ارتفع الاسم بعدها.

وقال الفراء إن «إلا» هنا بمعنى سوى، والمعنى لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا، وتعتبر «إلا» أم أدوات الاستثناء، والأصل مغايرة ما بعدها لما قبلها، نفياً أو إثباتاً، فلما اجتمع ما بعد «إلا» وما بعد «غير» في معنى المغايرة، حملت «إلا» على «غير»، ولا يجوز رفعه

---

(١) النساء ١٧٦.

(٢) فاطر ٤١، يقول محمد راتب النابلسي «تزولا ليس بمعنى تفنيان، بل أن تخرج عن مسارها، فالأرض إذا اقتربت من الشمس زادت سرعتها لئلا تنجذب إلى الشمس، وهذه السرعة الزائدة تعطيها قوة نابذة تكافىء القوة الجاذبة، فتبقى في مكانها موسوعة الإعجازالعلمي في القرآن والسنة: ص١٧.

(٣) الأنبياء٢٢.

على البدل؛ لأن «لو» بمنزلة «إن» في أن الكلام معه موجب، والبدل لا يسوغ إلا في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾[(١)]، ولا يجوز نصبه على الاستثناء؛ لأن الجمع إذا كان منكراً لا يجوز أن يستثنى منه عند المحققين؛ لأنه عموم له، بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء، والمعنى: لو كان يدبر أمر السموات والأرض آلهة شتى غيرالواحد الذي فطرهم «لفسدتا» لخربتا لوجود التمانع[(٢)].

ومنه قول الشاعرعمر بن معدي كرب الزبيدي:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

ففي هذا البيت، لو لم تتضمن «إلا» معنى غير، لما ارتفع ما بعدها، وكذلك الحال في الآية المذكورة فإن «غير» تقترض من «إلا» المعنى، فهما أداتان تتقارضان ما لكل منهما.

وبعد هذا التقديم لآراء العلماء في معنى «إلا» وأنها تقترض المعنى من «غير»، فهل من سبيل لإنكار التضمين في هذا الحرف، ولو بقي معنى «إلا» على ظاهرها ـ الاستثناء ـ لدل ذلك على تعدد الآلهة، وهذا لايجرؤ على القول به أحد.

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[(٣)].

فإن خلافاً دار بين المفسرين والعلماء حول دلالة «إن» هل هي شرطية أم لا؟ وهل تضمنت معنى حرف آخر أم لا؟

فذهب البغوي إلى أنّ «إن» بمعنى «إذا»، أي إذا أردن، وليس معناه الشرط، لأنه لا يجوز إكراههن على الزنا، وإن لم يردن تحصناً، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[(٤)].

---

(١) هود ٨١.

(٢) إرشاد العقل السليم: ج٦، ص٦١.

(٣) النور٣٣.

(٤) البغوي: ج٦ ـ ص٤٤.

وقال الرازي: «الذي نقول به أن المعلق بكلمة «إن» على الشيء عند عدم ذلك الشيء، والدليل عليه اتفاق أهل اللغة على أن الكلمة «إن» لشرط، واتفاقهم على أن الشرط ما ينفي الحكم وللموصوف شرطان؛ أحدهما: أن يكون جمعاً أو شبهه، والآخر أن يكون نكرة أو معرفة بأل الجنسية»(١).

ورأى ابن الجوزي «أن في الآية تقديماً وتأخيراً»، وتقديرها وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم إن أردن تحصناً ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء، ويعتب «إن» بمعنى «إذ»(٢)، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقد يخرج الشرط مخرج الغالب؛ لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن، ومثال حمل الأمر على الغالب حرمة نكاح الربيبة التي في حجر زوج الأم، وينضوي تحت هذا الحكم أيضاً حرمة نكاح الربيبة التي ليست في حجر زوج الأم؛ لأن غالب الربائب يكون في حجر زوج الأم.

وفي سبيل الخروج من هذا الاختلاف، فإن الباحث يأخذ بما أورده المرادي في «الجنى الداني» الذي ينص على أن «إن» تقع في لسان العرب بمعنى «قد»

قال: وقد نظمت معاني «إن» في هذين البيتين:

وأقسام إن بالكسر شرط زيادة ونفي وتخفيف لامها

وقد قيل معنى إذ وإما وقد حكى ال كسائي معنى قد وهذا تمامها(٤).

ودليل ذلك دعاء زيارة المقابر «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»، فإنّ «إنْ شاء الله»

---

(١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ج١٥، ص٢٢.

(٢) زاد المسير: ج٦، ٣٩.

(٣) البقرة ٢٧٨ .

(٤) المرادي، حسن بن قاسم بن عبد الله بن علّي، الجنى الداني، تحقيق: فخر الدين قباوة و محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢، ج١، ص٢١٥.

ليست معلقة، وإنما هي على التحقيق، فتكون «إنْ شاء الله» بمعنى: وقد شاء الله.

٣ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾[(١)].

وعند الوقف على هذه الآية يتضح أن الاختلاف على المعنى والإعراب جميعاً قد وقع بين العلماء، فذهب بعضهم إلى أن «نقضت» بمعنى جعلت.

وضمّن تمام حسان «نقضت» معنى «جعلت» ونصب «أنكاثاً» على أنها مفعول ثانٍ لـ«جعلت»، ولا يرتضي أن ينصبها على الحال، فقال: «جعلت تنصب مفعولين، ولا يمكن إعراب «أنكاثاً» حالاً، وإنما مفعول به ثانٍ، وإذا بقيت على معناها الأصلي «نقضت» فتكون «أنكاثاً» حال، وذلك يقتضي أن الغزل كان أنكاثاً حال النقض، أي نقضت غزلها وهو أنكاث، وهذا غير المقصود، لكون النقض عند ذلك يصبح تحصيلاً حاصلا لما بين الحال والفعل الناصب لها من ملابسة في الزمن والوقوع[(٢)].

وأما الإعراب: فمنهم من نصبها على «الحال من غزلها»[(٣)]، ونصبها الزجاج على المصدر، والواحدي على أنها مفعول به ثانٍ[(٤)].

٤ ـ قال الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾[(٥)].

وبتدبر الآية يتبين أن قوله «لاتعبدون» إخبار يحمل معنى النهي، كقولك «تذهب إلى فلان وتقول له كذا»، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي؛ لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء[(٦)].

---

(١) النحل ٩٢.

(٢) البيان روائع البيان ص١٩١.

(٣) التحرير والتنوير: ج١٤، ص٢٦٥.

(٤) التفسيرالكبير ومفاتيح الغيب: ج٢٠، ص١١٠.

(٥) البقرة٨٣.

(٦) الكشاف: ج١، ص١٨٦.

وعمد الرازي إلى تخريج رفع «لَا تَعْبُدُونَ» على أقوال:

أولها: قول الفراء الذي ينص على أن موضع «لاتعبدون» على النهي، إلا أنه جاء على لفظ الخبر على شاكلة قوله تعالى ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾(١)، بالرفع والمعنى على النهي.

ثانيها: قول الكسائي الذي ينص على أن رفعه على أن لا يعبدوا، كأنه قيل: أخذنا ميثاقهم بأن لايعبدوا، إلا أنه لما سقطت «أن» رفع الفعل، وأجازهذا الوجه الأخفش والفراء والزجاج وقطرب(٢).

وشرحها ابن مسعود وأبيّ «لتعبدوا»(٣) على النهي، ويدل على ذلك ما عطف عليه «وقولوا، وأقيموا، وآتوا».

ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

فظاهر الآية النهي، وإن كانت «لا» ناقية، والتقدير بحذف: «يليق»، بمعنى أن الزاني لا يليق به إلا أن ينكح زانية؛ العفيف يأنف ذلك، كما قال حنا الأسعد: «ت ١٣١٥هـ-١٨٩٧م»:

ولا أرضى خليطاً في إناء وقلبي عن صفـيِّ الهون ناء
فذا شرف بنفس ذوي علاء وتجتنب الأسـودُ ورودَ مـاء
إذا كان الكلاب ولغـن فـيـه

٥ـ قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ

---

(١) البقرة ٢٣٤، مفاتيح الغيب، ج٣، ص٥٨.

(٢) التفسير الكبير ـ ج٢، ص١٧٦.

(٣) مختصر في شواذ القرآن، ص٦.

(٤) النور٣.

بِالْحِجَابِ﴾[١] اختلف العلماء اختلافاً واسعاً حول الفعل «أحببت»، فجاءت أقوالهم على النحو التالي:

قال الرازي: وفي تفسير هذه اللفظة وجوه:

الأول: تضمين الفعل «أحببت» معنى يتعدى بـ«عن»، كأنه قيل أَنَبْتُ حب الخير عن ذكر ربي، أو تضمين الفعل «أحببت» ألزمْتُ، والمعنى أني ألزمت حب الخير عن ذكر ربي.

ثم قال: «عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره، لا عن الشهوة والهوى، وهذا الوجه أظهر الوجوه[٢].

وقال ابن عاشور: تضمين «أحببت» معنى عوضت، ، فعدّي بـ«عن» في قوله «عَنْ ذِكْرِ رَبِّي»، فصار المعنى: أحببت حب الخير حباً فجاوز ذكر ربي، والمراد بذكر الرب: الصلاة، فلعلها صلاة كان رتبها لنفسه؛ لأن وقت العشي ليست فيه صلاة مفروضة في شريعة موسى ـ عليه السلام ـ إلا المغرب[٣].

ولابد من وقفة مع هذه الآية:

امتدح الله ـ سبحانه وتعالى عبده ونبيه سليمان ـ عليه السلام ـ بقوله ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٤]، فبعد هذا الثناء، كيف يليق بنبي هذا شأنه أن يشغله عن صلاته استعراضُ الجياد الصافنات؟

يضاف إلى ذلك أنه لم يرد في السورة ذكر للصلاة، فإن قلتَ: كيف قال الله تعالى:

---

(١) سورة «ص» ٣٢.

(٢) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ج٢٦، ص٢٠٤ .

(٣) التحرير والتنوير: ج٢٣، ٢٥٥.

(٤) سورة « ص» ٣٠.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، ولم يرد ذكر للأرض في الآية؟

قلتُ: إن الدابة معلوم أنها تدب على الأرض، وسياق الآيات يأبى عودة الضمير المستتر في «توارت» على الصلاة.

وعلق ابن عاشورعلى مسألة الصلاة التي قيل فيها إن سليمان ـ عليه السلام ـ قد أضاعها، فقال: «والمراد بذكر الرب: الصلاة، فلعلها صلاة كان رتبها لنفسه؛ لأن وقت العشي ليست فيه صلاة مفروضة في شريعة موسى ـ عليه السلام ـ إلا المغرب» يبدو مقبولاً، ولكن تناسب الآيات يبين أن العشي كان وقتاً للتسبيح في عهد داود ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾(١)، ويصعب تفسير التسبيح بالصلاة هنا؛ لأن داود ـ عليه السلام ـ كانت صلاته في المسجد؛ ولأن الجبال تسبح لقوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٢) وتسبيح الجبال هو تنزيه الله عما لايليق به(٣).

أما تضمين حرف الجر «عن» معنى «اللام» يخدم السياق الذي يتحدث عن سليمان بالمدح والثناء، فيكون المعنى: إني أحببت حب الخير ـ الخيل ـ لذكر ربي، أي أحببتها لإعدادها للجهاد في سبيل الله، وبهذا نكون قد برّ أنا نبيَّ الله سليمان ـ عليه السلام ـ مما نسب إليه من أضاعة صلاة من الصلوات، سواء كانت مفروضة أم ألزم نفسه بها؛ لأن من ألزم نفسه بطاعة، لايجوز تركها، كالنذر وغيره.

٦ ـ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة « ص« ١٨.

(٢) الإسراء٤٤.

(٣) التنوير والتحرير: ج١٥، ص١١٤.

(٤) يونس ٣٥.

الملاحظ أن الفعل «يَهْدِي» تكرر ثلاث مرات، مرتين متعدياً بحرف الجر «إلى» ومرة بحرف الجر «اللام»، وجاء في القرآن الكريم الفعل «يهدي» متعدياً بحرف، ومتعدياً بلا حرف.

ودارت آراء العلماء حول معنى الفعل وبأي حرف يتعدى؟

عدّ الزمخشري أن الفعل «هدي» يتعدى بحرفي الجر «إلى» و«اللام» فقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين: ويقال: هدى بنفسه بمعنى اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى اشترى(١).

وسبب هذا التغاير في التعدية بحرفين مختلفين لفعل واحد مرده إلى سببين؛ هما:

الأول: تضمين الفعل «يهدي» إما معنى الإرشاد، فحينها يعدّى بحرف الجر «إلى» الذي يفيد انتهاء الغاية المكانية، بمعنى أن البشر يرشدون الناس إلى طريق السداد، وإما تضمين الفعل «يهدي» معنى التوفيق الخاص بالله ـ عزوجل ـ والذي يتعدى معه الفعل بحرف الجر «اللام» الذي يفيد معنى الملكية.

---

(١) الكشاف: ج٢، ص٣٢٩، التفسيرالكبير: ج٩، ص٦٥.

المطلب الخامس: التضمين عند المحدثين:

انقسم المحْدثون في أمر التضمين إلى فريقين؛ فريق رأى وقوعه في اللغة، وفريق منعه.

وقد عُرِض الأمرعلى المجمع اللغوي في القاهرة، فكان رأيه في التضمين أنه قياسي، لاسماعي، بشروط ثلاثة:

أ ـ تحقيق المناسبة بين الفعلين.

ب ـ وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر، ويؤمن معها اللبس.

ج ـ ملاءمة التضمين الذوق العربي.

وقد أوصى المجمع بألا يلجأ إلى التضمين إلا لغرض بلاغي(١).

وكان من أنصار هذا الفريق حسين والي، والخضر حسين، وأحمد الإسكندري، وغيرهم.

وكان ممن أنكر التضمين وأبطل مسائله: عباس حسن، وإبراهيم السامرائي، ومحمد حسن عواد، وغيرهم.

وسأعرض أقوال بعض المنكرين، ومنهم:

١ـعباس حسن: وبالرغم من تلك المعارك الجدلية، لا ارى الأمر في التضمين يخرج عن إحدى حالتين؛ وفي غيرهما الفساد اللغوي والاضطراب الهدام:

الأول: إن الألفاظ التي وضعت بالتضمين إن كانت قديمة في استعمالها منذ عصور الاستشهاد والاحتجاج اللغوي، فإن استعمالها دليل على أصالة معناها الحقيقي، ما دمنا لم

---

(١) حسن، عباس: النحو الوافي، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٦١م، ج٢، ص٥٩٤ .

نعرف يقيناً لها معنى سابقاً تركته إلى المعنى الجديد.

والثاني: إن العصور المتأخرة عن عصور الاستشهاد والاحتجاج غير محتاجة إلى التضمين، لاستغنائها عنه بالمجاز والكناية وغيرهما من انواع البيان المختلفة التي تتسع لكثير من الاغراض والمعاني الدقيقة البليغة(١).

وهو يرى أن علم الدلالة الحديث أقرب إلى مباحث الدلالة منه إلى التضمين.

٢ ـ محمد حسن عواد: «يقول ببطلان التضمين في الأفعال ونيابة بعض حروف الجر عن بعضها بعضاً، وأن الشواهد التي سيقت للدلالة على التعاور راجعة إلى التركيب الدلالي لا إلى الحرف، وأن الشواهد التي سيقت للدلالة على التضمين فيها راجعة إلى مبحث دلالات الألفاظ..... ثم يقرر أن الألفاظ التي وردت بعد عصور الاحتجاج فهو مجاز أو فرع»(٢).

وبعد هذا فإن الباحث يرى تشابهاً بين الرأيين، وتركيزهما على عصور الاستشهاد والاحتجاج، ولا يدري هل الشعراء المخضرمون بين الجاهلية والاسلام من عصور الاحتجاج أم لا؟ لأن المفسرين و محمد حسن عواد ينقلون بيت الشعر: وهم صلبوا العبدي في جذع نخلة.......، وقائله هو سويد بن أبي كاهل اليشكري المتوفى سنة ٦٠ للهجري.

وقد لخص أحمد حسن حامد المقصودَ من التضمين بطرح سؤال: «ما المقصود من التضمين؟»

«إذا كان المقصود من التضمين هو مجرد التفرقة بينه وبين الحقيقة والمجاز أو الكناية، فإن الذي لا ريب فيه أن للتضمين علاقة بهذه المصطلحات جميعاً، وإذا كان المقصود هو

---

(١) النحو الوافي: ج٢، ص٥٩٥.

(٢) عواد، محمد حسن: تناوب حروف الجر في القرآن الكريم، دار الفرقان، ط١، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ص٨١، ٨٢.

القيمة البلاغية للتضمين فإن مرد ذلك إلى المقام البلاغي الذي يرد فيه، هذا إن سلمنا به كركن قائم بنفسه من أركان البلاغة، وأما إذا كان المقصود من التضمين هو القيمة اللغوية، فإن السياق اللغوي هو الذي يحدد دلالة اللفظ الذي جرى فيه التضمين»(١).

وبعد أن وقف الباحث وقفة طويلة على آراء العلماء، تبين له بما لا يدع مجالاً للشك أن الخلاف بين العلماء قد وقع في المسميات والاصطلاحات، سواء أكان التضمين بحثاً في الدلالة، أو تضميناً ونيابة.

❊ ❊ ❊

---

(١) حامد، محمد حسن: التضمين في العربية، دار العلوم العربية، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، ص١٦.

النتائج

أحمدك ربي حمد الشاكرين أن أعنتني على إنجازهذا البحث الذي أرجو له القبول والنفع، وبعد؛

فإنني لاأدعي السبق في طرح موضوع البحث؛ لأنني أعلم أن كثيراً من مسائله قد قتلت بحثاً، ولكن حاولت أن أجمع شتات كثير من مسائله المبثوثة في بطون الكتب، وأن أضفي عليها شيئاً من الجدة، كما وإنني لا أبخس السابقين جهودهم، فلهم مني كل التقدير.

وقد تعرضت في هذا البحث لقضايا لغوية كالاشتراك اللفظي والترادف والتضمين، وكانت هذه القضايا مثار جدل منذ القدم، ولم يجمع روادها على أمر جامع، وتراوحت آراؤهم بين مقر متوسع ومنكر مضيق، وبينهما مقتصد، يقر ضمن شروط.

ولعل أهم ما لفت انتباهي خلال عرض آراء المنكرين أن كثيراً منهم وأمام قهر بعض النصوص يجد نفسه مضطراً لمخالفة رأيه، فهذا أبو هلال العسكري بعد أن أعمل فكره في إيجاد فروق دلالية بين كثير من الألفاظ في كتابه «الفروق اللغوية» والذي نفى فيه القول بالترادف، نجده يطالعنا بكتاب التلخيص» الذي يقول فيه بالترادف.

وبعد التطواف في مناحي هذا البحث، أختم ببعض النتائج التي توصلت إليها:

١ ـ الحقيقة والمجاز:

هما ركيزتا غالب القضايا اللغوية، فجعل من ينكر الاشتراك اللفظي ـ بما فيه من غريب وتضاد ـ والتضمين والترادف يحيلون القول بهذه القضايا إلى الاستخدام المجازي.

ويطيب لي أن أقف مع المجاز وقفة، فهذا الزركشي يقول: لو سقط المجاز من القرآن سقط شطرالحسن، وابن قدامة يقول: من منع المجاز في القرآن فقد كابر.

وحجة بعض مانعي المجاز أن مصطلح المجاز لم يعرف في القرون الثلاثة الأولى، وهذه حجة داحضة؛ لأن كثيراً من العلوم في بواكيرها لم تعرف كثيراً من المصطلحات بمسمياتها اللاحقة، ثم إن عنوان كتاب «المجاز في القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى، كاف لدحض هذه الحجة.

فالمجاز قنطرة عبور إلى فهم النصوص فهماً سليماً، وإنكاره عقبة كؤود تحول بين المرء وفهمه.

٢ ـ أساليب القرآن:

نزل القرآن متحدياً أرباب الصنعة البلاغية، بأساليب لم تكن غريبة عليهم، ولاغير مألوفة لديهم، فأخرس ألسنة البلغاء، وسجدت لهيبته جباه الفصحاء، فلو نزل على غير أساليبهم، لما كان لهذا التحدي من قيمة ولا أثر؛ لأن التحدي فيه ندّية.

ولاشك أن للقرآن أساليب قد تبدو في ظاهرها أنها قد خالفت بعض أساليب العرب، وهذا ليس صحيحاً؛ لأن شأن هذه الأساليب شأن القراءات المتواترة، التي قد يبدو بعضها على غير ما اعتادت عليه العرب، ولكن المتأمل في حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف، يجد من حِكَمها التسهيل على كثير من القبائل من غير قريش؛ لأنه ليس بالأمر الهيّن أن ينتقل الإنسان من لسان قومه إلى لسان قوم آخرين.

ويبدو مستحيلاً الإحاطة باللغة كلها، فقد قال بعض الفقهاء: «كلام العرب لا يحيط بِهِ إِلاَّ نبيّ»(١).

وهذا لايتأتى إلا لنبي، فإن خفي على النحاة أسلوباً من أساليب القرآن على غير المعهود لديهم، فعليهم بالتأني، وما كان ينبغي لهم الإسراع إلى إنكاره.

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة، ج١، ص٢٤.

٣ ـ الاستقراء:

الأسلوب الاستقرائي هو الأسلوب الأمثل لدراسة النسق القرآني، وبغيره فإن الجهود تذهب هباء منثوراً، ولا يمكن التوصل إلى نتائج ناجعة في هذا المضمار إلا بالاستقراء.

٤ـ مستويات القراءة:

هناك ثلاثة مستويات لقراءة القرآن وفهمه:

الأول: القراءة الركنية؛ وهي قراءة الآية الواحدة من أولها إلى آخرها لفهم دلالة الألفاظ من خلال سياقها.

الثاني: القراءة الرأسية؛ وهي دلالة الألفاظ من خلال قراءة السورة كاملة، وربط الآية بالسياق السابق واللاحق.

الثالث: القراءة الأفقية؛ وهي البحث عن دلالات الألفاظ من خلال قراءة القرآن كله، للوقوف على الدلالات السياقية للفظ الواحد.

لقد ارتبطت غالب المادة اللغوية لكلمة «السياق» بالشدة، ، فمنها ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(١)، ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾(٢) و﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾(٣)، ويسمى النزع سياقاً، وفيه دلالة على شدة ما يعانيه المحتضر.

فيستشف من مادة السياق اللغوية الشدة، وكأن النظر في السياق يتطلب مزيداً من الجهد لاستثارة خفايا النص.

---

(١) القلم ٤٢.

(٢) القيامة ٣٠.

(٣) الزمر ٧١، وأما بالنسبة لقوله تعالى ﴿وسيق الذين اتقوا﴾ فقال ابن عاشور هو من المشاكلة التي تعتبر من المحسنات.

يقول محمد المبارك: «ولهذا فإن المعنى المعجمي ليس كافياً للوقوف على دلالة السياق، إن معرفة مادة الكلمة وأصلها الاشتقاقي، والصيغة التي صيغت بها، لاتكفي غالباً لتحديد معناها تحديداً تاماً ودقيقاً، فإن كل كلمة بعد أن أخذت من مادتها الأصلية، وبنيت على أحد الأوزان الصرفية استعملت في مواطن من الكلام، وخصصها الاستعمال لمعان أخص من المعنى العام الذي تدل عليه مادتها، وبتعدد الاستعمال خلال العصور، وفي مختلف المناسبات والبيئات، يتم للكلمة أكثر من معنى، وهذه المعاني المتعددة تتصل كلها بالمعنى الأصلي، وتفيد الكلمة في ذاتها المعاني التي اكتسبتها كلها.... ويبرز أحدها عند استعمال الكلمة في جملة معينة وسياق محدد من الكلام، فلو نطق متكلم بكلمة «كاتب» هكذا مجردة من الكلام، لثار في الذهن عدة معان لها، ولايعين أحد هذه المعاني إلابااستعمالها في جملة من الكلام، ولهذا كان للسياق قيمة في تحديد المعاني وفهم الكلام»(١).

ويخلص إلى القول بأنه لايمكن أن تحمل الكلمة معنيين في وقت واحد؛ لأن السياق هو الذي يحدد المعنى المقصود، ولايخفى ما للسياق من أثر فعال في الترجيح بين الآراء.

وأختم بحثي بأبيات من الشاطبية:

لعلَ إلهَ العرشِ يا إخوتي يقي جماعتنا كلَّ المكاره هُوّلا

ويجعلنا ممن يكون كتابه شفيعاً لهم إذ ما نسوه فيمحلا

وبالله حولي واعتصامي وقوتي وما لي إلا ستره متجللا

فيا رب أنت الله حسبي وعدتي عليك اعتمادي ضارعاً متوكلا

وصلّ ربّ وسلم على رسول الثقلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) فقه اللغة وخصائصها ـ ص١٨٢، ١٨٣.

التوصيات

أولاً:

تسيطرعلى عقول كثير من طلبة العلم مقولة مفادها أن الأولين لم يبقوا للآخرين شيئاً، وهذا قول كفيل بأن يتسبب بإحباط لدى طلبة العلم، ويقف حجر عثرة يعترض سبيلهم.

وفي هذا المقام يحلو لي بيتان من الشعر تحث على المزيد من العطاء:

البيت الأول للمعري:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

والبيت الثاني لأبي العباس الجراوي يبين فيه فضل السابقين واللاحقين بقوله:

لاغرو أن كنتَ الأخير زمانه فالفضل للآصال والأسحار

ثانياً:

دراسة التماثل اللفظي دراسة صرفية نحوية، مغايرة للدراسات السابقة، تعتمد على التحول في الحركة الإعرابية، ودلالة التعريف والتنكير، والتنوين ودلالته، والجمع والإفراد.

ثالثاً:

الرسم القرآني والقراءات القرآنية والفاصلة، كل أولئك يحتاج لمزيد من الدرس اللغوي، وإن كانت هناك دراسات حولها، فهي لاتزال في بواكيرها.

رابعاً:

أتمنى على الذين خاضوا غمار الإعجاز العددي في القرآن أن يتناولوا السر الكامن في الحروف المقطعة من حيث توزيعها، حيث إنه توجد سوراً افتتحت بحرف مثل «ص» وأخرى بحرفين نحو «حـم» وثالثة بثلاثة حروف نحو «ألـم» ورابعة بأربعة نحو «ألـمـر»، وخامسة تبدأ بخمسة حروف، ولكنها على ضربين؛ الأول: خمسة حروف مجتمعة في آية واحدة، نحو«كهيعص»، والثانية: خمسة حروف موزعة على آيتين، نحو: «حم❁عسق».

خامساً:

الاهتمامَ الاهتمامَ بالأداء القرآني من نبر وتنغيم، وألا يُكتفى بقواعد التلاوة العامة.

وهذه دعوة إلى أقسام القراءات في الجامعات لإدخال مادة الأداء القرآني حتى تستكمل الدراسات القرآنية حلقاتها، خدمة لكتاب الله العزيز.

سادساً:

عجلة التفسير لم ولا تتوقف عند زمن معين، وتبقى متجددة في الإبانة والكشف.

توصيات أقدمها، عسى الله أن يقيض لها من ينهض بها وينزلها إلى أرض الواقع.

❁ ❁ ❁

المراجع والمصادر

القرآن الكريم

- الآلوسي، محمود بن عبدالله الحسيني، روح المعاني، دارالفكر، ١٤١٤هـ ١٩٩٤

- الآمدي، علي بن محمد، : الإحكام إرشاد الفحول في أصول الأحكام، دارالفكر، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م

- ابن الأثير، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: ظاهرالزاوي ورفيقه، المكتبة الإسلامية، بدون سنة النشر ورقم الطبعة.

- ابن الأثير، المبارك بن محمد، المثل السائر: تحقيق محمد محيي الدين، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١ هـ ١٩٩٠م

- ابن أبي حاتم: تفسيرالقرآن العظيم، تحقيق: أسعد الطيب، المكتبة العصرية، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م

- ابن تيمية، أحمد، مقدمة في أصول التفسير، اعتنى به فواز أزمرلي، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٤هـ١٩٩٤م

- ابن الجزري، محمد بن محمد، طيبة النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد تميم الزعبي، مكتبةالهدى، جدة، ط١ـ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م

- ابن الجزري، محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، بدون سنة النشر، ورقم الطبعة

- ابن جزي، محمد بن أحمد: التسهيل لعلوم التنزيل، دارالكتاب العربي، بيروت، ٤ط

ط٤، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م

- ابن جماعة، بدر الدين، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠م

- ابن جني، عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١م

- ابن الجوزي، عبد الرحمن: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: تحقيق محمد عبد الكريم كاظم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م

- ابن الجوزي، عبد الرحمن، زاد المسير في التفسير، المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م

- ابن حجرالعسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق دار أبي حيان، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م،

- ابن حنبل، أحمد: مسند أحمد، بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م، بدون طبعة

- ابن حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد «الموسوعة الحديثية» تحقيق: شعيب أرناؤوط ورفاقه، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م

- ابن خالويه، الحسين بن أحمد، مختصر في شواذ القرآن، عني بنشره، ج. برجشتراسر، دار الهجرة، دون سنة النشر.

- ابن خلدون، عبدالرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بدون سنة الطبع

- ابن ذي الوزارتين، علي بن محمد بن أحمد بن مسعود، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي – بيروت ط٢، ١٤١٩ هـ

- ابن رشد، محمد بن أحمد، بداية المجتهد، دار الفكر

- ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير- الدار التونسية، بدون سنة النشر

- ابن عطية، عبدالحق بن غالب، المحررالوجيز، تحقيق: عبد الله الأنصاري، الدوحة، ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م

- ابن عقيل، عبد الله: شرح ابن عقيل، دار القلم، ١٤٠٧هـ

- ابن فارس، أحمد بن فارس، الصاحبي، تعليق: أحمد بسج، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م

- ابن فارس، أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة ط١ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣مـ مكتبة المعارف ـ بيروت تحقيق د. عمر فاروق الطباع

- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، مكتبة ابن قتيبة، ط١، ١٩٨١م

- ابن قدامة: روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون سنة الطبع ورقم الطبعة

- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، تحقيق بشيرعيون، مكتبة دارالبيان، ط٣، ١٤٢٥هـ٢٠٠٤م

- ابن كثير، إسماعيل بن عمرو، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م

- ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة مكتبة المعارف، الرياض،

- ط ا، دون سنة النشر

- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١ ٢٠٠٠م

- ابن هشام: سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا ورفيقيه، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٥هـ١٩٩٥

- ابن يعيش، يعيش بن علي: شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت

أبو حمدة، محمد علي، في التذوق الجمالي، سورة الكهف، دارعمار، ط١ ١٤٢٢ هـ٢٠٠٠م

- أبو حيان، محمد بن يوسف بن حيان، البحر المحيط، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٣، ١٩٨٣م

- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، مكتبة المعارف، السعودية ـ دون سنة النشر والطبعة

- أبو السعود، محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم «تفسير أبي السعود»، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٥هـ

- أبوشهبة، محمد محمد، المدخل لدراسة القرآن، القاهرة الحديثة للطباعة، ١٩٧٢م

- أبوعبيدة، معمر بن المثنى، : مجاز القرآن، تحقيق: محمد سركيس، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠١هـ١٩٨١م

- أبو هلال العسكري، الحسين بن عبد الله بن سهل، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، تحقيق: عزة حسن، دار صادر، ط٢

- أبو هلال العسكري، الحسين عبد الله بن سهل بن سعيد، الصناعتين، ضبطه: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ ١٩٨١م

- أبوهلال العسكري، الحسين بن عبد الله بن سهل، الفروق اللغوية:، تحقيق: محمد سليم، دار العلم والثقافة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م

- استيتية، سمير، اللسانيات، عالم الكتب الحديث، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م

- الإسكافي، محمد بن عبد الله، درة التنزيل وغرة التأويل، دار الكتب العلمية، ط١،

١٤١٦هـ، ١٩٩٥م

- الأسنوي، عبد الرحيم، الكوكب الدري في كيفية تخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية: تحقيق: محمد حسن عواد، دار عمار، ط، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م

- أمين، أحمد، ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط٦، ١٩٦١م

- الأنباري، محمد بن القاسم، الأضداد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المطبعة العصرية

- أنيس، إبراهيم، الأصوات العربية، دار النهضة العربية، ط٣، ١٩٦١م.

- أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، دار المعارف بمصر، ط٦، ١٩٥٦م

- أنيس، إبراهيم: اللهجات العربية، المطبعة الفنية الحديثة، ط٣، ١٩٦٥م

- أنيس، إبراهيم، من أسرار اللغة ـ مكتبة إنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٨م

- أيوب عبد الرحمن، محاضرات في اللغة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦م

- باجودة، حسن محمد، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، دار الكتب الحديثة، دون سنة النشر

- البخاري، عبد العزيز أحمد: كشف الأسرارعن أصول فخر الإسلام البزدوي، وضع حواشيه: عبد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ـ ١٤١٨هـ ١٩٩٧م

- البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، مراجعة محمد هشام البرهاني، المطبعة العصرية، الإمارات العربية المتحدة ١٤٠٢هـ ١٩٨١م

- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري دار السلام السعودية، ط٢، ١٩٩٩م

- بدوي، أحمد: من بلاغة القرآن: مكتبة نهضة مصر، ط٣، ١٣٧٠هـ ١٩٥٠م

- بروكلمان: فقه اللغات السامية، ترجمة: عبد التواب رمضان، جامعة الرياض، ١٩٧٧م

- بشر، كمال، علم اللغة، دار غريب للطباعة والنشر - ١٩٩٨م

- البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد، معالم التنزيل، تحقيق: محمد النمر ورفاقه، دار طيبة، ط٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م

- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدررفي تناسب السور، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

- البيضاوي، عبدالله بن عمر بن محمد: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ١٩٩٨م

- البيلي، أحمد، الاختلاف بين القراءات، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٨م

- البيومي، محمد، خطوات التفسيرالبياني، الكتاب ٤٢، شوال، ١٣٩١هـ١٩٩٧١م

- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، مكتبة المعارف، السعودية ط١، بدون سنة النشر

- التوتنجي، محمد ورفيقه: المعجم المفصل في علوم اللغة، مراجعة إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م

- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، فقه اللغة وأسرارالعربية، مكتبة الخانجي، ط١، ١٤١٨هـ١٩٩٨م

- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت

- الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان: تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، ١٣٨٨هـ١٩٦٩م، ط٣،

- جبل، محمد حسن، في علم الدلالة دارالمعرفة الجامعية، مصر ١٩٧١ م

- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ تعليق: محمد رشيد رضا

- المرادي، حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ، الجنى الداني في معاني الحروف، تحقيق: فخر الدين قباوة و محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢

- الجويني، مصطفى، مناهج في التفسير، منشأة المعارف، الإسكندرية

- الجياني، ابن مالك، الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، تحقيق: محمد حسن عواد، دار عمار، ط١ ١٩٩١م

- حامد، محمد حسن، التضمين في العربية، دار العلوم العربية، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م

- حسان، تمام: البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ١٩٩٣م

- حسان، تمام، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٠ه، ١٩٧٩م

- حسن، عباس: النحو الوافي، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٦١م

- الحسون، محمد بنيان: النحويون والقرآن، مكتبة الرسالة، عمان، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

- الحموز، عبد الفتاح، الحمل على الجوار، مكتبة الرشيد، الرياض، ط١، ١٩٨٥م.

- الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩١م

- الخالدي، صلاح: البيان في إعجاز القرآن، دار عمار، ١٩٨٩م

- الخطابي، حمد بن محمد، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: الرسالة الأولى، تحقيق محمد خلف الله و رفيقه، دار المعارف، ط٤، بدون سنة الطبع

- خليل، السيد أحمد، دراسات في القرآن، دار المعارف، مصر

- خليل، حلمي، الغموض في العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١

- خليل، حلمي، الكلمة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م

- خليل، حلمي، مقدمة لدراسة علم اللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية٩١٩٩م

- الخولي، محمد: الأصوات اللغوية، دار الفلاح للنشر، ١٩٩٠م

- الدالي، محمد، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، أمون للطباعة، ط١ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م

- دراز، طنطاوي: في أصول اللغة، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٦م

- الدمياطي، أحمد بن محمد، إتحاف فضلاء البشر، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م

- الذهبي، محمد حسين: الإسرائيليات في التفسير والحديث، دار الإيمان ـ دمشق، ط٣ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥

– الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، دار المنار، دون سنة الطبع ورقم الطبعة

– الرازي «فخر الرازي» محمد بن عمر بن الحسن، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان داوودي، دارالقلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٣هـ٢٠٠٢م

- الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي، ط٩، ١٣٩٣هـ ١٩٧٢م

- الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن، مطبعة الاستقامة، مصر

- رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ط٢

- الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس، دار الفكر، ١٤١٤هـ١٩٩٤

- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان، تحقيق: بديع اللحام، دار قتيبة، ط١، ١٤١٨هـ١٩٩٨م.

- الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت بدون رقم الطبعة، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م

- الزمخشري، مجمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، مطبعة أولادأورفاند ط١

الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤٢١هـ

- الزمخشري، محمود بن عمر، أسرار البلاغة: تحقيق محمد الإسكندراني، دارالكتاب العربي، ط١٤١٧هـ ١٩٩٦ م

- زيدان، جورجي، اللغة العربية كائن حي، مراجعة كامل مراد، دارالهلال، بدون سنة الطبع ورقم الطبعة

- زيدان، عبد الكريم: الوجيزفي أصول الفقه، مكتبة البشائر، عمان، ط٤، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤م

- سالم، رشاد محمد، القراءات القرآنية وصلتها باللهجات العربية، دارالمنار، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م

- السامرائي، فاضل: بلاغة الكلمة في التعبيرالقرآني، دار عمار، ط١، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م

- السجستاني، محمد بن عزيز، غريب القرآن، دار طلاس للدراسات للترجمة والنشر،

ط١، ١٩٩٣

- السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسيركلام المنان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٤هـ،

- السكاكي، محمد بن علي، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم

تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق

- سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون سنة النشر

- سيد طنطاوي: الوسيط، دار المعارف، بدون سنة النشر

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تفسير الجلالين، دار المنار، ٢٠٠٠م، بدون رقم الطبعة

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتفان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، بدون سنة النشر

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، أسباب النزول، دار الهجرة، ط١، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: المزهر، ضبطه محمد أحمد جاد المولى، دار الفكر

- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، دار الفكر العربي، ط٢

- الشاطبي، القاسم بن فيرة بن خلف، حرز الأماني ووجه التهاني، دار الكتاب النفيس، ط١، ١٤٠٧هـ١٩٨٧م

- شاهين عبد الصبور، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٦م

- شاهين عبد الصبور، أثر القراءات في الأصوات، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ ١٩٩٧م

- الشايع، محمد عبد الرحمن، أسباب اختلاف المفسرين، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٥م

- شحاته، عبد الله، التفسير بين الماضي والحاضر، دار بوسلافة، تونس ـ بدون سنة النشر

- شعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم

- الشنقيطي، محمد الأمين: أضواء البيان، عالم الكتب، بدون سنة النشر

- الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول، دار المعرفة، بيروت

- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير ـ دار المعرفة ـ بيروت

- الصالح، محمد أديب: تفسيرالنصوص في الفقه الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م

- الصغاني، الحسن بن محمد بن الحسن، العباب الزاخر، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م

- الضبي، عامر بن عمران، الأمثال، تحقيق: رمضان عبد التواب، مجمع اللغة العربية، دمشق

- طلب، عبد الحميد سيد: غريب القرآن، رجاله ومناهجهم، جامعة الكويت، ١٩٨٦م

- عباس، فضل: لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن، دار النور، لبنان، بدون سنة النشر

- عباس، فضل، التفسير أساسياته واتجاهاته، مكتبة دنديس، عمان، ط١، ٢٠٠٥م

- عبد الباقي، محمد، معجم ألفاظ القرآن الكريم، دار إحياءالتراث العربي، بيروت

- عبد التواب، رمضان، فصول في فقه اللغة، مكتبة الخانجي

- عبد الرحمن، عائشة، الإعجاز البياني، دار المعارف، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م

- عبد الرحمن، عائشة، من أسرارالعربية في البيان القرآني، دارالأحد، بيروت، ١٩٧٢م

- العبيدان، موسى، دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين، الأوائل للنشر، ط١ ٢٠٠٢م

- العجيلي، سليمان بن عمر «المشهور بالجمل» الفتوحات الإلهية بتوضيح الجلالين للدقائق الخفية «حاشية الجمل على الجلالين» مطبعة علي البابي الحلبي، بدون سنةالنشر

- عزام، محمد، النقد والدلالة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦

- عليان، مصطفى: نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده، دار البشر، عمان، ط١، ١٩٩٢م

- عمارة محمود، غيرة محروسة بالرجولة، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط١، ١٤١٧هـ١٩٩٧م

- عواد، محمد حسن، تناوب حروف الجر في القرآن الكريم، دار الفرقان، ط١ ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

- عودة، خليل عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، مكتبة المنار، الأردن، بدون سنة الطبع ورقم الطبعة

- الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، ملاك التأويل، دار النهضة، العربية، لبنان، ط١ ١٤٠٥هـ، ١١٩٨٥م

- الغزالي، محمد، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، ط٢،

١٤١٣هـ ١٩٩٢م

- فتح الله سليمان: مدخل إلى علم الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١٢هـ ١٩٩١ م
- الفقير، نوح، عبق الريحان في علوم القرآن، مكتبة دنديس، عمان، ١٢٢٤هـ، ٢٠٠٤م
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، دار الجيل: بدون سنة النشر ورقم الطبعة
- القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، ط٢ ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م،
- القرطبي، حمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، مراجعة صدقي جميل، تخريج وتعليق عرفان العشا، دار الفكر، بيروت، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م
- قطب، سيد، التصوير الفني، دار المعارف بمصر، بدون سنة الطبع ورقم الطبعة
- قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ط٨، ١٣٩٩هــ ١٩٧٩م
- قنيبي، حامد صادق: مباحث في علم الدلالة، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.
- القيسي، مكي ابن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق: محيي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق، دون سنة النشر
- الكرماني، محمود بن حمزة، البرهان في متشابه القرآن، دار الكتب العلمية، تحقيق: عبد القادر عطا، ط١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م
- ماريو باي: Invitation to linguistics By Mario Pei أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار، عالم الكتب، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٨م
- الإمام مالك: الموطأ، مراجعة: فاروق سعد، بيروت، ط١، ١٩٧٩م

- مجلة الأزهر، صفر، سنة ١٣٨٩هـ

- مختار، أحمد، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، ١٩٩٠م.

- مختار، أحمد: العربية الصحيحة، عالم الكتب، ط٢، ١٩٨٨م

- مختار، أحمد ورفيقه: معجم القراءات القرآنية، مطبوعات جامعة الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م

- المراغي، أحمد، تفسير المراغي، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م

- مسلم، ابن حجاج، صحيح مسلم دار السلام، السعودية ط١، ١٩٩٨م

- مشاهرة، مشهور، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراة، غير مطبوعة، الجامعة الأردنية، أيار ٢٠٠٤م

- منصور، خالد ورفاقه، المزهر في شرح الشاطبية والدرة، دار عمار، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٣م

- المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٣٩٢هـ١٩٧٢م

- النقراط، عبد الله، بلاغة تصريف القول في القرآن، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ٢٠٠٢م

- نهارنة، إبراهيم مصطفى، المحكم والمتشابه في القرآن، ط١، ، إربد

- ١٤٢٢هـ٢٠٠٢م

ـ النووي، يحيى بن شرف، خلاصة الأحكام، تحقيق: حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة – لبنان – بيروت، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م

- النيلي، عالم سبيط، النظام القرآني، مطابع الأرز، ط، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م

- الهائم المصري، أحمد بن محمد، التبيان في تفسيرغريب القرآن، تحقيق: فتحي الدابولي، الفاروق الحديثة، ط١، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م

- الواحدي، علي بن أحمد: أسباب النزول، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م

– وافي، علي عبد الواحد: فقه اللغة، دارنهضة مصر للطباعة والنشر